حمدي الحسيني

دارفور أرض السحرة والقرآن



في أعماق الفتنة بين العرب والأفارقة



دارفور
أرض السحرة
والقرآن
الناشر: دار الخيّال
الغلاف: محمد الصباغ
الطبعة الأولى



دارفور
أرض السحرة والقرآن

فى أعماق الفتنة بين العرب والأفارقة

حمدى الحسينى

إهداء

إلى أم شروق، وخلود، وسلمى.. والأمل فى غد أكثر إشراقا..

إلى كل إنسان يخاف على دارفور من كلمة.. «كانت»!

أهدى هذا الكتاب

حمدى الحسينى

القاهرة يناير ٢٠٠٧

البريد الإلكترونى

hamdyelhussiny@yahoo.com

المقدمـــة

خليط من الثقافات والأعراق، فقر ودمار.. موارد معدومة، تاريخ حافل بالبطولات والمعارك، حياة غريبة وعجيبة، مساحات شاسعة من الأرض الخصبة..لكن مهملة، ثروات حيوانية مهولة، استثمارات محدودة، بنية تحتية متهالكة، مدارس ومبان متواضعة، بشر عميقو التدين، شيمتهم التسامح، يعيشون فى جزر منعزلة.. المواصلات نادرة، الأمان مفقود.. سكانها راضون، قانعون، صابرون يحسبون المسافات بالأيام، والساعات بحركة الشمس والزمان بمواقع القمر كأن الزمن يمر على الدنيا كلها ولا يمر عليهم، إنه إقليم دارفور فى غرب السودان موطن حفظة القرآن، والسحر والخرافات والصراعات.. وأخيرا أصبحت دارفور مسرحاً لواحدة من أكبر الكوارث التى عرفتها الإنسانية فى العصر الحديث، تحول فيها الآمنون إلى مشردين، والمستقرون إلى لاجئين، وانقلبت بيوتهم وقراهم إلى معسكرات وخيام، الكل فى انتظار المساعدات، فقد تفجرت براكين الغضب التى تغلى منذ سنين.. فريق منهم يحمل السلاح، اختاروا التمرد طريقاً للكفاح فاشتعلت نار الطائفية. وأضحت أرض القرآن مكاناً لتصفية حسابات سياسية بين الأشقاء والفرقاء.

أهل البلاد الطيبون يدفعون ثمنا باهظا لمغامرات ساسة فاشلين، أصبحوا ضحايا مؤامرات انطلق بعضها من داخل السودان، أكملت حلقاتها قوى أخرى متربصة على الحدود.. أعداء السودان استغلوا الفرصة وأشعلوا الفتن بين أبناء الدم.. صبوا الزيت على نار الصراع بين العرب والأفارقة فعمقوا العداء لكل ما هو عربى أصيل.

ليس من سمع ورأى عبر الشاشات كمن شاهد وعايش المأساة على أرض الواقع، فقد شاهدت ورصدت الكثير من معاناتهم فى رحلة فريدة من نوعها، بعد أن تحولت هذه المنطقة المنسية إلى مركز جذب لوسائل الإعلام العالمية..

السودان عموما بلد تتقاذفه أنواء الزنجية والمسيحية والوثنية، والصراعات القبلية التى لا تنتهى إلا أنه المعبر الرئيسى للعروبة والإسلام إلى أفريقيا.

عدد سكانه حوالى ٤٠ مليون نسمة موزعين على ٦٠٠ قبيلة، يتكلمون ١١٠ لغة ولهجة محلية، ٨٠٪ مسلمون يتحدثون جميعا اللغة العربية.

عوامل كثيرة ساهمت فى تفاقم معاناة سكان دارفور البالغ عددهم حوالى ٦ ملايين نسمة.. أكثر من مليونى إنسان أصبحوا فى عداد اللاجئين.. فجأة.. اكتشف العالم حاجتهم الماسة للمأوى والطعام والعلاج، فضلا عن الأمان الذى اختفى تدريجيا أمام تعدد الحركات المسلحة بين أبناء القبائل ذات الأصول الأفريقية.. هذه الحركات وجدت أن الظروف الدولية تتجه نحو دعم الأقليات.. ويتضاعف الاهتمام بهذه الأقليات إذا كانت تعيش فى أقاليم عربية وإسلامية، فهناك ارتباط عضوى بين أزمة دارفور، والحرب التى أشعلتها الولايات المتحدة بين الغرب والعالم الإسلامى.. وأصبح للعامل الخارجى دور كبير فى تعميق الصراع وتحويله – من احتكار للثروة والسلطة يتكرر فى الكثير من دول العالم الثالث – إلى صراع اثنى وعرقى بين المسلمين «العرب» والمسلمين الأفارقة «الزرقة».. بعدها بدأ مسلسل استضافة زعماء التمرد من أبناء القبائل الأفريقية، وفتح مكاتب لهم فى الكثير من الدول الأوروبية، وتشجيع هؤلاء الشباب المتعلم المتحمس على الاستمرار فى المواجهة المسلحة لنظام الحكم فى الخرطوم.. الإعلام الغربى ساهم بصورة كبيرة فى تعميق الشعور لدى قادة التمرد بأنهم يخوضون حربا مقدسة لتحرير أبناء «الزرقة» من عبودية حكام السودان المسلمين المنحدرين من أصول عربية. تداول الاعلام مصطلح (الغزاة) العرب من «الجنجويد» بعد أن حولوا أبناءها الأصليين إلى مجرد عبيد.. وهكذا بدأ الاحساس بالظلم والاضطهاد يتعمق لدى مواطنى الإقليم.. السياسات العشوائية للحكومات السودانية المتعاقبة، انشغلت بالهاجس الأمنى مثل باقى أنظمة الحكم العربى، بينما أهملت برامج التنمية.مما ترتب عليه تفشى الفساد. وراحت الفتنة تنتقل من قرية إلى أخرى.. وخرجت الأزمة من محيطها المحلى إلى الساحة العالمية، وتحولت دار فور إلى جرح جديد فى قلب

السودان المثقل بالمواجع.

دار فور كانت محط اهتمام الصحافة الأجنبية أكثر من الإعلام العربى، فقد سجلت إحدى الجهات السودانية أن ١٧ مليون قصة تمت كتابتها عن دار فور على شبكة الإنترنت بعد اشتعال الصراع بثلاثة أشهر.. بيانات مكتب الإعلام الخارجى السودانى أثبتت أن عدد الصحفيين والإعلاميين والباحثين الأجانب الذين زاروا الإقليم يفوق أضعاف نظرائهم العرب.. الصحفيون العرب اكتفى معظمهم بالاعتماد على مصادر أجنبية لمتابعة كل ما يتعلق بملف الصراع، المفاجأة أن بعض الصحف والمثقفين السودانيين، يعتمدون فى معلوماتهم عن دار فور على المصادر الخارجية، مما يعكس مدى الإهمال العربى رسميا وإعلاميا بمتابعة هذا الملف الحيوى.. دارفور تجسيد حى لمعاناة القارة السوداء بما فيها من ظلم، وفقر وحروب.. وسط كل هذه المعاناة هناك الكثير من المشاهد النادرة، والمناظر الطبيعية الساحرة، والقصص الإنسانية المؤثرة يشعر معها المرء أن عجلة الزمان قد توقفت لسنوات طويلة، وأن حياة الإنسان الأول عادت من جديد، زائر الإقليم يندهش من حيل وابتكارات البشر فى التغلب على قسوة الطبيعة بدءا من الوسائل البدائية فى توليد الطاقة، وتطويع الطبيعة، إلى التحالف بين الإنسان وباقى الكائنات الأخرى للتغلب على قسوة الحياة.اللافت أن ما يحدث فى دارفور قابل للتكرار فى الكثير من بلداننا العربية التى تضم بين سكانها عرقيات واثنيات مختلفة.. المثير حقا أن دارفور هى المكان الوحيد المغلق حتى الآن أمام حملات التبشير الكنسية التى يزدحم بها الجنوب والشمال وباقى البلدان الأفريقية، كما أن جميع سكان الإقليم من المسلمين ولا توجد كنيسة أو أى دار للعبادة غير المسجد، وأن جميع أبناء القبائل لديهم ثقافات ولهجات ولغات محلية يتحدثون بها فيما بينهم، لكن فى نفس الوقت يتسابقون جميعا منذ الصغر على حفظ كتاب الله، حتى أطلق بعض السودانيين على الإقليم مسمى «أرض القرآن»، كما يتكلم الجميع اللغة العربية بطلاقة نادرا ما نجد لها مثيلا فى الكثير من البلاد العربية.

هذا الكتاب يغوص فى هموم الإنسان بعيدا عن لعبة السياسة القذرة ومعاناة الإنسان وصراعه فى البحث عن احتياجاته الضرورية جدا.. وإلى أين تأخذه هذه الصراعات الدموية؟

حمدى الحسينى

١

اللعب مع التماسيح

ضابط الجوازات فى مطار القاهرة لم يصدق أننى أول مصرى يدخل السودان بدون تأشيرة مسبقة، وفقًا لاتفاقية الحريات الأربع التى وقعتها الحكومة، الضابط الشاب أصر على إجراء اتصالات عديدة وصلت حد الاتصال بالسلطات السودانية، بالرغم من أن الساعة تقترب من منتصف الليل، المتبقى على موعد إقلاع الطائرة المتجهة إلى الخرطوم دقائق معدودة.

لحظات وكنت أجلس فى طائرة الإيرباص الحديثة، معظم ركابها من السودان، وقليل من المصريين المرتبطين بوظائف وأعمال حكومية فى الخرطوم، انطلقت الطائرة سريعًا مودعة القاهرة بأضوائها المتلألئة. يجلس بجوارى شاب سودانى بدا عليه التأثر.. تبادلنا أطراف الحديث، فعرفت أنه طبيب مسالك بولية بمستشفى عمومى فى الخرطوم، وعائد بعد منحة ثلاثة أشهر قضاها فى التدريب بمعهد لعلاج وزراعة الكُلَى فى مدينة المنصورة.. هذه الفترة تركت فى نفسه ذكريات لا تنسى.

الرحلة من القاهرة للخرطوم مريحة، ولم تستغرق سوى ١١٠ دقائق، بعدها كانت الطائرة تحلق فوق العاصمة الخرطوم. فهى قريبة الشبه بالقاهرة خصوصًا أن نهر النيل يقسم كلاً منهما إلى شطرين.. من شباك الطائرة تبدو أضواء الخرطوم خافتة.

لحظات كنا فى صالة كبار الزوار، استقبلنا مسئولى المطار بابتسامة صافية.

رغم الهدوء الشديد فى مطار الخرطوم الدولى إلا أن تواضع مبانيه وقدم معداته وبدائية مقاعد صالات الانتظار فيه كانت مصدر دهشة وصدمة، فى ذلك الوقت من شهر أكتوبر ٢٠٠٤م. سرحت قليلاً وأنا أقف بجوار سير الحقائب فهو لا يختلف كثيرًا عن مثيله فى مطار القاهرة قبل عقدين من الزمان.

لم يخرجنى عن هذا الشرود سوى نداء موظفة الجوازات المحجبة التى لفت نظرى عملها فى وردية ليلية، وعندما سألتها عن السبب، كانت الإجابة سريعة من زميلها ضابط الجوازات، بأن ذلك أمر طبيعى، فما ينطبق على الموظف الرجل ينطبق أيضًا على الموظفة المرأة، أوضح أن الشرط هو الالتزام بالحجاب الشرعى أثناء عملها بالوردية وفقا للقواعد التى وضعتها حكومة الإنقاذ بزعامة حسن الترابى!

بمجرد خروجنا من بوابة المطار التف حولنا عدد من سائقى التاكسى إلى أن تَدَخَل رجلٌ تخطى الخمسين من العمر، هادئ الملامح، إنه عم إسماعيل، المسئول عن توصيلى إلى فندق القرية الخضراء المجاور لأرض المعارض بالخرطوم.. فى الطريق سألنى عم إسماعيل عن أخبار كرة القدم، ثم دخل فى تفاصيل دقيقة، تتعلق بالحياة الشخصية لنجوم كرة القدم المصرية.

أدهشنى أنه مُلِمٌ بأسرار جميع الأندية، ونجوم كرة القدم فى مصر، بل وفى المحافظات المصرية النائية، وقد صُدم الرجل عندما اكتشف عدم إلمامى بهذه المعلومات!، سألنى لماذا انهار حال الكرة فى مصر؟ فقلت له إن الكرة مثل باقى أمور الحياة، فإذا كان المجتمع يتمتع بلياقة بدنية عالية، انعكس ذلك بالطبع على كافة مؤسساته والرياضة أحد المظاهر وأبرزها... ابتسم الرجل الذى بدا عليه عِشقُ الرياضة وكراهية السياسة.

***

فى غرفة مريحة تحيطها الأشجار العالية، تمددت بعد يوم طويل وشاق قضيته فى الاستعداد للسفر المفاجئ، فقد تمنيت كثيرًا أن أزور السودان، خاصة بعدما

سمعت عنها من أصدقائى، الذين عاشوا مع أسرهم سنوات طويلة بحكم عملهم فيها، وشعرت بأنى محظوظ صحفيًا؛ لأنه ستُتاح لى فرصة التعرف- عن كثب- على واحدة من أعقد القضايا الدولية والإنسانية، ففى تلك الفترة تصدرت قضية دار فور الصفحات الأولى لمعظم صحف العالم، كما كانت الفضائيات الإخبارية العالمية تتسابق إلى تغطية أخبارها.

تداعت في رأسى أفكارٌ متنوعة حول هذه المنطقة البعيدة، التى أستعدُ للسفر إليها.. كل شخص أقابله أستفسر منه عن آخر الأخبار، حتى أصبح مشرف المطعم يزودنى بمعلومات عن الأوضاع مع كل طبق يقدمه لى، من خلال قرابته مع مسئول حكومى كبير.

***

قبل أن استسلم للنوم، نظرت حولى فوجدت كل ما بداخل الغرفة عبارة عن حياة صناعية، قررت مغادرتها، وبدأت أتحرك بين الأشجار وسط الخضرة الاستوائية.. الجو فى الخارج شديد الحرارة، لأن الطقس فى السودان معكوس مع مصر؛ أشهر الصيف الحارة فى مصر تكون موسم أمطار بالسودان، والعكس صحيح، لكن سحر المناظر الخلابة، وزقزقة العصافير والطيور على أغصان الأشجار، خفف من قسوة المناخ.

قطعت مسافة طويلة حتى وصلت إلى سلك شائك يفصل الفندق عن شاطئ النيل، لم استمع لتحذيرات الحارس، بعدم عبور الأسلاك بسبب خطورة الأفاعى والثعابين القاتلة التى تسيطر على الأحراش المحيطة بالفندق، واصلت السير حتى الشاطئ نفسه، لفت نظرى وجود عدد من الأطفال يمارسون السباحة فى النيل، تقريبًا كما يحدث فى ريف مصر، ربما الفارق الوحيد أن مياه النيل الأبيض على عكس اسمها فهى مخلوطة بالطمى الكثيف ولا تصلح للسباحة.

أدهشنى أن معظم هؤلاء الأطفال نازحون من الجنوب، دفعتهم الحروب والصراعات للعيش على هامش الحياة فى العاصمة الخرطوم، بحثا عن الأمن. «ماركو» أكبرهم سنًا - ٢٠ عامًا، لا يعمل سوى يومين فى الأسبوع ويقضى بقية الأيام هنا على الشاطئ يلتقط بعض الثمار من الأراضى المحيطة، ويمارس السباحة.

ماركو طلب منى الابتعاد عن المياه، وأشار بإصبعه إلى رأس تمساح يتحرك وسط المياه العكرة بالقرب من الشاطئ، سرد لى قصصًا مؤلمة كان شاهدًا عليها، عندما التقط التمساح بعض أصدقائه أثناء السباحة، ومع ذلك لم يتوقف هو وباقى الصبية عن نزول المياه والسباحة وسط التماسيح المنتشرة بكثافة فى مياه النيل!

2

موت فى علبة صفيح

الوقت يمر بطيئا.. فى انتظار موعد الطائرة المتجهة إلى دارفور، فالطائرة هى وسيلة الانتقال الأسرع لقطع ألفى كيلومتر بين الخرطوم ومدينة نيالا فى جنوب الإقليم، حاولت التغلب على ملل الانتظار.. فاقترحت السفر بالسيارات.

فكان الرد أن ذلك مستحيل، لأن تعطل خط الطيران يرجع إلى تصعيد المتمردين لأعمالهم ضد الحكومة، وبالتالى فإن السفر بالبر سيكون أكثر خطورة، خاصة إذا أضفنا إلى مخاطر المتمردين، قطاع الطرق، حيث تحولت السرقة بالإكراه إلى مهنة يعمل بها كثير من أبناء قبائل البادية الذين يواجهون خطر الموت جوعًا وعطشًا.

فجأة تلقيت رسالة عاجلة بالاستعداد لركوب أول طائرة تنطلق من الخرطوم إلى دارفور، توجهت للمطار قبل الموعد المقرر بفترة كافية.. الموعد كان فى الثانية ظهرًا، قضيت ساعتين أحاول التعرف من الركاب على طبيعة الحياة فى نيالا، العاصمة التجارية، ومحطتنا الأولى، لكن الركاب كانوا يرتابون فى أمرى فيهونون من الأزمة.. بعضهم قال إن الصراع انتهى، والمتمردون ألقوا أسلحتهم، لا داعى للسفر والمشقة!

لكننى وجدت صحفيًا تركيًا بصحبة طالب تركى يدرسُ فى جامعة الخرطوم ضمن الركاب، تناقشنا فى مشاكل دارفور وأسبابها، وماذا يمكن أن نفعله، وعرفت منهما أن واحدة من الصحف التركية مهتمة برصد الأوضاع فى البلاد الإسلامية،

كلفت الصحفى إعداد سلسلة تحقيقات صحفية حول الوضع فى الإقليم.

مكبر الصوت ينادى على ركاب دارفور، العدد محدود ربما لا يزيد على ٢٠ راكبًا، بعضهم موظفو هيئات الإغاثة الإنسانية، وعدد من أثرياء الإقليم، اعتادوا التنقل بين العاصمة والإقليم بالطائرات.

داخل أتوبيس، تحركنا نحو طابور من الطائرات القديمة، الرابضة فى أرض مطار الخرطوم، كل منها تستعد إلى الانطلاق لوجهة مختلفة، أمام إحدى الطائرات، أشار إلينا سائق الأتوبيس، وطلب منا النزول إليها.

جلسنا فى مقاعدنا، وفجأة سأل الصحفى التركى أحدَ الركاب: كم من الزمن تستغرق الطائرة لتصل إلى دارفور، فأجابه الرجل أن هذه الطائرة متجهة إلى إقليم دنقلا، حينها وقع الفزع بين الركاب، هرول الجميع إلى خارج الطائرة المفترض أن تقلع خلال لحظات، أحضروا لنا أتوبيسًا آخر، أخذ يتحرك بنا ويقف أمام كل طائرة ويسأل موظفيها: دارفور.. فيجيبون بالرفض!. إلى أن استقر أمام طائرة روسية متهالكة من طراز أنتينوف، كانت هى الطائرة التى نبحث عنها وسط هيستيريا من الضحك!!

***

الطائرة من الداخل شديدة التواضع، متهالكة .. تشبه سيارات الميكروباص، خصوصًا المقاعد، ضيقة.. ممزقة.. علاوة على صوت محركاتها الصاخب.. قائد الطائرة، ليس سودانيًا، ولا حتى عربيًا، فهو روسى.. قبل أن أسأل أحد المعاونين عن السبب، أجاب مبتسمًا أن هذا الطراز لا يستطيع أى طيار فى العالم ترويضه والتفاهم معه مثل الروس.. لأنهم هم الذين صنعوها قبل الحرب العالمية الثانية.

تم إغلاق أبواب الطائرة.. الجو شديد الحرارة.. لا تكييف.. ولا منفذ آخر للتنفس.. شخص يقف فى منتصف الطائرة، بالقرب من قائدها يتلو آياتٍ من القرآن الكريم، ويشرح ظروف الرحلة التى نبدأها حالاً، كان من المفترض أن يشرح لنا مميزات الطائرة، لكنه بالطبع تجاوز هذا الأمر وانتقل بسرعة إلى طريقة تحليق الطائرة على ارتفاعات محدودة، حاول طمأنتنا بأنها آمنة، وأنه يمكن فتح أبوابها

بينما هى تواصل سيرها فى الجو بسلاسة ويسر على عكس باقى الطائرات.

كل معلوماتى السابقة عن هذا النوع من الطائرات غير مطمئنة، فلا يمر أسبوع إلا وتسقط طائرة.. لا ينجو منها أحدا.. أشهر حادث راح ضحيته الفريق الشهيد الزبير محمد صالح النائب الأول لرئيس الجمهورية السودانية، و١٥ قائدًا عسكريًا خلال هبوط طائرته بأحد مطارات مدينة (عدربيل) فى ولاية أعالى النيل بجنوب السودان.

الجو صاف.. الطائرة تحلق على ارتفاع محدود، نشعر بالتماس مع الأرض مما يمكن الركاب من الاستمتاع بمشاهد جميلة.. ربما كانت هذه المتعة منقوصة، بسبب الرعب الذى ينتابنى، منذ أن أغلقت الطائرة أبوابها.. حاولت الانشغال باستعراض الفرق بين نيل مصر، ونيل السودان شديد الاتساع، شواطئه غير المحددة، مياهه التى تفيض على الصحراء فتغرقها بطريقة تشبه الفيضان الذى كان يغرق القرى المصرية قبل بناء السد العالى.

صورة الخرطوم نهارًا تختلف عنها ليلاً، فالطائرة تعرفك على ضواحى العاصمة الأشد فقرًا.. أحياء الصفيح بدت كثيرة متراصة، شغلتنى هذه البنايات الكئيبة عن إزعاج الأصوات التى تصدر عن محركات الطائرة.. دقائق ثم بدأنا نبتعد تدريجيا عن الخرطوم، مشاهد جديدة تظهر فى الأفق أكثر إثارة، كنت أتمكن من تحديد ملامح قطعان الماشية ورؤية الرعاة وهم يحملقون فى السماء بحثًا عن أزيز الطائرة.

واحات خضراء فى قلب الرمال الصفراء.. أشجار عالية.. مساحات من الأراضى الزراعية المحدودة تخفف من قسوة الصحراء الشاسعة.. بيوت وقرى صغيرة متناثرة هنا وهناك.. سرعان ما تختفى مظاهر الحياة، لتحل محلها مشاهد استوائية قاحلة.. أشجار متباعدة تبدو فقيرة فى الخضرة، والكائنات. تظهر مشاهد أخرى لصخور شديدة السواد، تميل إلى الحمرة فى بعض الأحيان، عرفت بعد ذلك أنها مناطق غنية بالمعادن المختلفة لكن أكثرها غنى بخام الحديد.

قطع المضيف السودانى تأملاتى حين مد يده بكوب من الماء البارد، وناولنى ساندوتش ملفوفا فى مناديل ورقية، عليها شعار الشركة السودانية التى تمتلك الطائرة، شربت ووضعت الساندوتش بجانبى وواصلت تأمل الطبيعة التى تبدو من نافذة الطائرة شديدة القسوة، ذهب تفكيرى فى أسلوب وطريقة الحياة البشرية

وسط هذا الحصار الطبيعى القاسى.. بحور الرمال لا تنتهى، سلاسل الجبال الصخرية القاحلة ممتدة على مدى الرؤية.

الوقت يمر ببطء شديد.. المشاهد، تتكرر الصورة تقريبًا لا تتغير الطائرة ترتفع أكثر فأكثر، حتى تاهت معها الملامح.

سألت المضيف عن موعد الوصول.. فاكتشفت أنه كان يتتبعنى مندهشًا لانفصالى المؤقت عن رعب الطائرة والهبوط أرضًا للتعرف على ما يجرى فى هذه المسافات الطويلة، قال لى الطائرة تقطع المسافة من الخرطوم إلى نيالا فى حوالى ١٥٠ دقيقة، ولم يتبق سوى نصف ساعة ونهبط بعدها فى مطار نيالا.

عدت إلى متابعة المشاهد خصوصًا أن الطائرة بدأت الهبوط التدريجى، بالفعل الصورة تتغير .. مساحات الخضرة تتضاعف، اللون الأصفر يتراجع، من بعيد تظهر ملامح البيوت، والقرى وتجمعات الرعاة فى (المراحيل).

هنا طلب المضيف من الجميع الاستعداد للهبوط، فبعد أن تأقلمت على وضع الطائرة المخيف عاد القلق يتسرب إلى نفسى مرة أخرى وأنا أتخيل لحظات الهبوط، لأن خطر هذه الطائرات يحدث فى حالتى الهبوط والإقلاع.. فى هذه اللحظات سمعت صوت ارتطام عنيف، أغمضت عينى، حتى سكنت الطائرة أرض مطار نيالا فى جنوب دارفور.

***

المطار صغير، لكنه يمثل شريان الحياة فى هذه المنطقة.. عدد من الطائرات الحربية رابضة فيه، طائرة أخرى تحمل شعار الأمم المتحدة.. فى مبنى بسيط انتهت إجراءات الوصول بسهولة... دقائق وكنا داخل سيارة صغيرة أقلتنا إلى قلب مدينة نيالا التى لا تبعد سوى ١٠ دقائق عن أرض المطار.

الطقس هنا مختلف تمامًا عن الخرطوم.. الساعة تشير إلى الرابعة بعد الظهر.. السماء صافية.. الأطفال يلعبون كرة القدم.. لا توجد أى مظاهر لأمر غير عادى.. أنا الآن فى الميدان الرئيسى للمدينة حيث الزحام الرهيب.. ملامح الناس متشابهة.. حركة بيع وشراء للصحف والمأكولات والمقاهى.. هناك على قطعة من الخشب..

يجلس شخص أمامه مرآة، وحلاق يداعب شعره فى الهواء الطلق، سيدة تجلس وأمامها كومة من ثمار تشبه البطيخ.. خلف سور مرتفع جاءت صفارات وهتافات مدوية، إنها مباراة لكرة القدم بين فريقى مدينة «عد الفرسان» ومدينة «بليل».

وجوه الناس عليها آثار الإرهاق والخوف.. لا يتحدثون عن تفاصيل.. معظم السكان فى «نيالا» من قبائل الفور، أبناء دارفور الأصليون أغلبهم تعامل معى باعتبارى «عربيا» تابعا لحكومة السودان، ومفترضين انحيازى المسبق للحكومة، مطالبين بما يطلقون عليه «التوزيع العادل للسلطة والثروة» وهو الشعار الذى أشعل الفتنة، أعلنوا التمرد والعصيان المسلح فى وجه الحكومة المركزية، فاستهدفوا كل رموزها بدءا بالمسئولين المدنيين وانتهاء بالعسكريين مرورًا برجال الشرطة.

بالطبع كان التمرد هو حديث الليلة الأولى.. تلقيت أول تحذير بعدم الخروج من مقر إقامتى بعد التاسعة مساءً، قوات الأمن تطلق النار على أى شىء متحرك، وفقًا لقرارات حظر التجوال التى تظل سارية من التاسعة مساءً، وتنتهى فى السادسة صباحًا، تقوم خلالها قوات الجيش والشرطة بنشر الأكمنة فى جميع مداخل ومخارج المدينة فضلاً عن تسيير دوريات فى الميادين والشوارع الرئيسية.

نيالا.. أكبر مدن دارفور، الذى يضم ثلاث مدن رئيسية، تقع فى الجنوب الغربى للسودان، قريبة من الحدود مع كل من أفريقيا الوسطى وتشاد، عدد سكانها حوالى مليون نسمة، يتبعها الكثير من المدن والقرى المحيطة، بها سوق ضخمة للجمال، يأتى إليها التجار من كل الأنحاء، على أطراف المدينة سوق ضخمة للتجارة فى كل شىء، فهى أهم وأكبر المدن التجارية والاقتصادية والصناعية، فيها جامعة متواضعة وعشرات المدارس، وعدد محدود من المستشفيات، والصيدليات و١٢ طبيبًا فى مختلف التخصصات.

من هذه المدينة (نيالا) تم التخطيط لإشعال الحرائق فى باقى دارفور.. انطلقت الشرارة الأولى، من داخل منزل متميز يقع على ناصية أحد شوارعها الرئيسية كان يمتلكه ويقيم فيه الدكتور على الحاج الساعد الأيمن للدكتور حسن الترابى.. الحاج تمكن من الهرب مع زوجته الألمانية، فى أعقاب انهيار التحالف السياسى بين المؤتمر الوطنى والمؤتمر الشعبى، الذى قام بثورة الإنقاذ بتحالف كل من البشير والترابى فى صيف ١٩٨٩ .

3

عند مفترق الطرق

«إذا أردت احتواء مصر عليك بالسودان» .. هذه العبارة يرددها بعض الساسة السودانيين كثيرا حيث يعتقدون أن مشكلة السودان الرئيسية أنه جنوب مصر أى عمقه، ومن يريد الإحاطة بمصر فعليه أن يضعف السودان أولا.. الحقيقة أن الواقع السياسى فى تلك المنطقة أثبت صدق هذا الاعتقاد بنسبة كبيرة. قبل أن يغلق السودان ملف الحرب الأهلية الطويلة فى الجنوب، تفجرت فى الغرب نار الفتنة، واشتعل الحريق فى دارفور.. هذا الحريق جاء نتاج أخطاء سياسية، بعضها يعود إلى مرحلة الاحتلال البريطانى، والآخر تتحمله الحكومات السودانية المتعاقبة منذ الاستقلال. كأنه مكتوب على هذا البلد أن يبقى محصورا بين سندان الداخل ومطرقة الخارج.. فما أن يهدأ جرح فى إقليم إلا ويظهر آخر أكثر خطورة.. فالسودان يعد أكبر بلد عربى فى أفريقيا مساحته حوالى ٢,٥ مليون كم مربع، حدوده تشترك مع تسع دول، عدد السكان ٤٠ مليون نسمة، ٣٢٪ منهم حضريون و٦١٪ ريفيون وحوالى ٧٪ بدو. الإسلام الدين المهيمن فى الشمال والغرب، فى حين أن المسيحية والوثنية أكثر انتشارا فى الجنوب. السودان جمهورية ذات نظام حكم فيدرالى، يضم مستويات متعددة للإدارة تشمل ٢٦ ولاية مقسمة إلى وحدات فرعية تبلغ ١٢٠ إدارة محلية.

العناصر التى تشكل الهوية القومية فى السودان معقدة.. فالسكان ينتمون إلى قبائل متعددة ويصل عددها حوالى ٦٠٠ قبيلة يتحدثون أكثر من ١١٠ لغات ولهجات.. ولكن العربية لغة التخاطب المشتركة لكافة السكان.

***

الثقافة الإسلامية - الأفريقية متغلغلة فى نسيج السودان البشرى عبر السنين فهو البلد رقم ١٣٩ فى مؤشر التنمية البشرية لبرنامج التنمية الدولية لعام ٢٠٠٤، شبكة طرقه القومية متواضعة، أجزاء كبيرة منه تعتمد على اقتصاد معيشى زراعى ورعوى يشكل السودانيون أعلى نسبة عالمية فى عدد اللاجئين، وتشير الإحصاءات إلى أن من بين كل ألف لاجئ على مستوى العالم خمسة سودانيين..

التهميش والنسيان شبح يهدد الاستقرار دائما.. فمنذ عهد الاستعمار حتى الآن ظل الاهتمام منصبا على المنطقة الوسطى حيث يلتقى النيلان الأزرق والأبيض، وأن التنمية والبناء يتجهان إلى الخرطوم ومنطقة الجزيرة الخصبة حيث بات القطن طويل التيلة يزرع باعتباره المحصول الرئيسى للبلاد. باستثناء هاتين المنطقتين بقيت أغلب مناطق السودان الشاسعة مهمشة.. هذا التهميش كان لدارفور النصيب الأكبر منه، بجانب كردفان، جبال النوبة،الشرق، الجنوب. وكذلك الإقليم الشمالى الواقع فى منطقة الحدود مع مصر.

الأوضاع السياسية فى السودان تقف حاليا فى مفترق طرق، بعد أن أثبتت التجارب استحالة القضاء على حركات التمرد والثورة فى شرق وغرب وجنوب البلاد.. السودان تشكله على الأقل ثلاثة بلدان لكل بلد خصائصها السكانية والجغرافية والتاريخية (السودان النيلى الأوسط - دارفور - جنوب السودان) بل إن كل كيان من هذه الكيانات يتميز بالتعددية العرقية والثقافية مما يغرى بالتدخلات من جانب جيرانه التسعة..

نال السودان الاستقلال عن الحكم (الانجليزى - المصرى) فى أول يناير ١٩٥٦. منذ ذلك الحين ظلت البلاد تتقلب بين الأنظمة العسكرية والحكم الديمقراطى.

على مدار نصف القرن الماضى، عاش السودان عشرة أعوام من الديمقراطية فى الفترات ما بين ١٩٥٦ إلى ١٩٥٨، و١٩٦٥ إلى ١٩٦٩ وما بين ١٩٨٥ إلى ١٩٨٩. خلال الفترات المتبقية ظل السودان خاضعا لأنظمة عسكرية قفزت إلى السلطة عبر الانقلابات.

***

قبل أن يمر عامان من الحكم الديمقراطى الذى أعقب الاستقلال دبر الفريق إبراهيم عبود أول انقلاب واستولى على السلطة نوفمبر ١٩٥٨، ركز عبود على تعزيز ونشر اللغة العربية والإسلام، وهو الأمر الذى قابله الجنوبيون بمقاومة عنيفة.. الاضطرابات أخذت تتصاعد فى الجنوب، عام ١٩٦٣ ظهر أول تمرد مسلح واجهته الحكومة بالقمع.عام ١٩٦٤ اندلعت مظاهرات طلابية فى الخرطوم، عمت الفوضى.. فاستقال عبود من رئاسة الدولة وتم تعيين حكومة انتقالية بموجب الدستور المؤقت.. مايو ١٩٦٥ جرت الانتخابات وشكلت حكومة ائتلاف، فى يونيو تم تشكيل الحكومة برئاسة محمد أحمد محجوب القيادى فى حزب الأمة.. لكن حكومته فشلت فى تنفيذ سياسات إصلاح فاعلة.. مايو ١٩٦٩ قامت مجموعة من الضباط بقيادة العقيد جعفر محمد نميرى بالاستيلاء على السلطة، وتبنوا أيديولوجية اشتراكية ذات حزب واحد.. فى فبراير ١٩٧٢ وقع نميرى اتفاقية مع المتمردين الجنوبيين فى اديس ابابا ،حصلوا بموجبها على الحكم الذاتى.. الاتفاقية فتحت الباب أمام تحقيق السلام فى تلك الفترة.. فى أعقاب اكتشاف النفط ثم دمج مناطق الجنوب المنتجة للنفط مع الشمال وتراجع نميرى عن الحكم الذاتى للجنوب. فى سبتمبر عام ١٩٨٣ وقع نميرى تحت تأثير حسن الترابى زعيم الجبهة الإسلامية القومية والإخوان المسلمين.. حيث نجح الترابى فى إقناعه بتطبيق الشريعة الإسلامية.. هذه الخطوة أدت إلى ردود أفعال قوية فى الجنوب، انتهت باندلاع التمرد الثانى ١٩٨٣ بقيادة الضابط الجنوبى جون جارنج.. فى البيان الافتتاحى للحركة الشعبية لتحرير السودان الذى ركز على طبيعة الحركة الجديدة[1] التى تستخدم العنف ومنهج الثورة لتغيير الأوضاع فى السودان القديم وتحطيم الهياكل التقليدية واقامة سودان اشتراكى علمانى ديمقراطى، وتحرير كل السودان من سيطرة الأقلية «الخرطومية» وهو وصف يحلو للمهمشين استخدامه للتعبير عن رفضهم لسياسات الحكومة المركزية.

حركة جارنج اختلفت عن حركات التمرد الجنوبية، من خلال طرح نفسها كحركة لتحرير كل السودان ونظرت إلى شمال السودان بأنه مديرية الخرطوم والجزيرة،

بينما اعتبرت أقاليم السودان الأخرى مناطق مهمشة تتساوى فى ذلك مع المديريات الجنوبية، وبذلك وجدها جارنج مجالاً حيويًا للحركة الشعبية حيث تتوافر فيها أسباب الثورة، ولذلك رأت الحركة أنها مجرد تمهيد لزحف ثورى كبير يشمل كل السودان بحيث يشكل الجنوب قاعدة انطلاق ثم يلى ذلك جبال النوبة فجنوب النيل الأزرق ثم مناطق البجا فى الشرق ودارفور فى الغرب.

فإذا كان ثوار دارفور يستندون إلى محتوى الكتاب الأسود فى قتالهم الحالى مع الحكومة، فإن حركة جارنج قامت مستندة على الإحصاء السكانى لعام ١٩٥٥ الذى أثبت أن المكون العربى ٣٩٪ من سكان السودان وأن البقية أفارقة وزنج.. تعريف العروبة فى هذا الإحصاء كان محصورًا فى النقاء العرقى، بينما المعروف أنه لا يوجد فى السودان نقاء عرقى، ولا نقاء لغوى لأن العروبة فى اللسان، كما اعتبر الإحصاء أن كل من له لسان آخر بجانب اللسان العربى ليس عربيًا، وبهذا التصنيف جرى إخراج قبائل السودان المسلمة عن العروبة لأنها تتكلم العربية بجانب لهجاتها المحلية، مع أن هذه القبائل ثقافتها وأشواقها إسلامية عربية، حيث يشكل الناطقون باللغة العربية، كلغة أم أكثر من ٨٠٪ من السكان.

***

أبريل ١٩٨٥تمت الإطاحة بنميرى من السلطة فى انقلاب عسكرى دبره ضباط الجيش، وتم تشكيل مجلس عسكرى انتقالى بقيادة الفريق عبد الرحمن سوار الذهب. فى عام ١٩٨٦ أجريت انتخابات انتهت بفوز زعيم حزب الأمة الصادق المهدى كرئيس للوزراء.. هذه الوزارة واجهت تحديات صعبة منذ اليوم الأول كان أبرزها استمرار الحرب فى الجنوب بجانب الجفاف والتصحر الذى ضاعف من الصعوبات التى عصفت بها قبل أن تكمل عامها الرابع. يونيو ١٩٨٩ استولى الفريق عمر حسن البشير على السلطة عقب انقلاب عسكرى تم تدبيره بالتعاون مع الإخوان المسلمين.. بعدها كثير من السودانيين أما أودعوا السجون أو ذهبوا إلى المنفى بعد الانقلاب. وتمت مصادرة الممتلكات وحظر نشاط الأحزاب السياسية، وتأثر البشير . مثلما تأثر نميرى . بمفكر الجبهة الإسلامية القومية حسن الترابى. عام ١٩٨٩ بدأت الأجهزة القانونية والقضائية تتغير إلى حد كبير بما يلائم فكر الإسلام

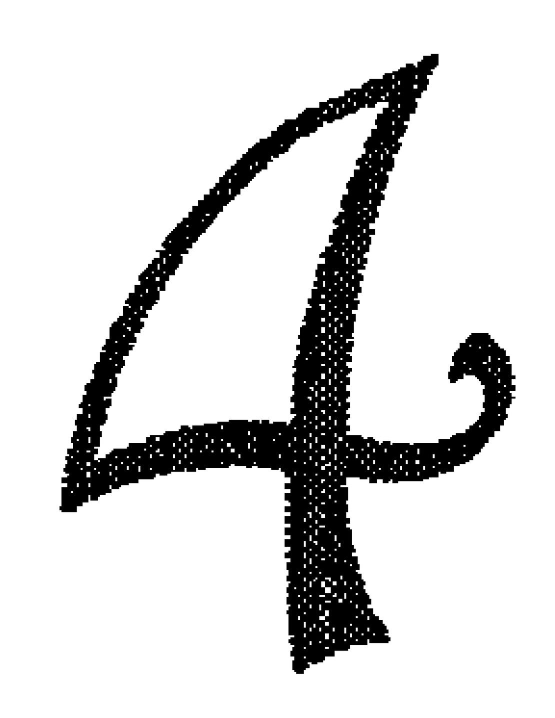
السياسى، جرت إعادة هيكلة الحزب الحاكم عام ١٩٩٨ ووضع مسودة دستور جديد يعكس أيديولوجية إسلامية صارمة تنص على نظام حكم فيدرالى وتضمن بعض الحقوق الأساسية المهمة. فى عام ١٩٩٩ اشتعل الصراع على السلطة بين الترابى والبشير فأعلن الأخير حالة طوارئ حل بموجبها البرلمان وعلق مواد مهمة من الدستور شملت تلك البنود المتعلقة بإشكال الحكم المحلى فى الولايات.

مايو ٢٠٠٠ انشق الترابى عن المؤتمر الوطنى الحاكم وأنشأ حزبا جديدا باسم المؤتمر الشعبى، تم طرد المسؤولين المرتبطين بالترابى من الحكومة، بعد شهور تم وضع الترابى نفسه قيد الإقامة الجبرية فى منزله بالخرطوم.. بعد أن اتهمه البشير بتدبير انقلاب، ثم جرى اعتقاله فى سجن كوبر الشهير.

فى عام ٢٠٠٢ أحرزت عملية سلام بين الحكومة، وجيش تحرير السودان تقدما برعاية أمريكية غربية وفى يوليو وقع الطرفان «بروتوكول مشاكوس» باعتباره إطارا عريضا يتضمن مبادئ اقتسام السلطة والثروة بين الشمال والجنوب يحصل بموجبه (الجنوبيون) على حق تقرير المصير عبر استفتاء شعبى بعد ست سنوات من تنفيذ الاتفاقية أى فى عام ٢٠١١.

***

٩ يناير ٢٠٠٥ وقع نائب الرئيس على عثمان محمد طه ورئيس الحركة الشعبية جون جارنج اتفاقية سلام تتضمن كل الوثائق الموقعة من قبل بما فيها بروتوكولات ٣١ ديسمبر ٢٠٠٤. هذه الاتفاقية وضعت حدا لعقدين من الحرب وعقد الشعب السودانى عليها الأمل لإنهاء أطول صراع فى أفريقيا لقى خلاله مليونا إنسان حتفهم واجبر ٥,٤ مليون شخص على النزوح القسرى... بعد حوالى عامين عاد شبح القلق يطل برأسه من جديد.. قبل أن تنفض السودان غبار معاناة الجنوب، قفزت معاناة جديدة فى الغرب، اشتعلت أزمة دارفور ليظل الجسد السودانى ينزف بشكل دائم وكلما انتهت حرب اشتعلت أخرى.



حب بطعم ولون الشيكولاته

كانت عتمة الليل قد أسدلت ستائرها، والضيوف جلوس فى خيمة الرئيس السودانى الأسبق، جعفر نميرى، يشربون الشاى والقهوة السودانية المغلية فى دوارق صغيرة من الفخار، قبل أن ينصرف الجميع إلى النوم فى الخيام التى أُعدت للضيوف.. وقف شيخُ القبيلة موجهًا حديثه إلى الكاتب الصحفى المصرى يوسف الشريف قائلا: قم يا مصرى، الليلة ليلة عرسك؟!

لم يدرك الشريف فى البداية معنى ولا مغزى عبارته.. لكنه فوجئ بالرئيس نميرى وأعضاء مجلس الثورة يستحثونه على الاستجابة للدعوة الكريمة.. عندئذ بدأ شيخُ القبيلة يشرح الأمر قائلاً: لقد سمعتك تسأل عن تقاليد الزواج فى قبيلتنا.. وهل يقبلون زواج بناتهم بغيرهم من رجال القبائل الأخرى من خارج السودان، وعرفت أنك أعزب.

استطرد الشيخ: مصر لها مكانة عظيمة فى قلوبنا.. فمعظم رجالنا يذهبون بجمالهم عبر درب الأربعين لبيعها، ومن متاجر شارع الأزهر ومكتباتها يعودون باحتياجاتنا من القماش والصناعات المصرية وبالمصاحف والكتب الدينية.. وأكمل شيخ القبيلة.. هل تعلم يا مصرى أن لديكم بلدة فى الصعيد اسمها «نقادة» تصنع قماش كل عروس فى السودان؟

ثم سأله: ماذا لو عرضنا عليك الزواج من إحدى بناتنا؟.. ثم نظر- مشيرًا بسبابته

بعيدًا، قائلا: هناك فى هذه الخيمة تنتظرك فتاة جميلة، عمرها ١٧ عامًا.. اذهب إليها فإذا نالت لديك القبول زوجناها لك الآن.. لا نطلب منك مهرًا ولا فراشًا.. والمأذون جاهز لعقد قرانك وشاهدا العقد هما الرئيس نميرى وأى رجل آخر تختاره.

نظر الشريف بعيدًا باتجاه سبابة الشيخ.. فرأى بالفعل خيمة صغيرة من شعر الماعز ينبعث من داخلها نورٌ خافت، فظن لأول وهلة أن الأمر مجرد مقلب من مقالب الرائد أبو القاسم محمد إبراهيم، وزير الإدارة المحلية فى ذلك الوقت، التى اعتاد أن يدبرها تباعًا لرفاق الرحلة.

وبينما يفكر يوسف الشريف فى وسيلة للخروج من المقلب، إذا بالرئيس نميرى يقول له بلهجة آمرة[٢]: المسألة جد وليست هزلاً.. اذهب إلى الخيمة حتى ترى الفتاة بعينيك.. هذا تكريم لمصر فى شخصك، لم يجد الشريف مفرًا، فنهض من مكانه؛ وتوجه إلى الخيمة من باب الفضول ليس إلا.. ومن فتحتها رأى فانوسًا مضاءً بالغاز، معلقًا فى عمود الخيمة، تجلس تحته فتاة على كليم من الصوف الملون لكنه لم يتبين ملامحها بدقة.. إذ كانت تضع رأسها بين ركبتيها خجلاً.. وكانت ترتدى فستانًا من التيل أو المخمل.

بعدها تأكد أن الأمر جدٌ لا هزل.. وهكذا فى طريق العودة القصير إلى الخيمة التى يجلس فيها نميرى وأعضاءُ مجلس الثورة والوزراء كان عليه أن يتخذ قرارًا.. بدون تردد قرر الاعتذار إلى شيخ قبيلة «الكواهلة»، وطلب تأجيل قبول عرض الزواج إلى حين الاستعداد له.. شاكرًا للشيخ حسن ثقته، وهذا التكريم الذى اختصه به من دون بقية رفاق الرحلة.

لكن الرئيس نميرى لم ينس للشريف هذا الموقف، الذى رآه ماسًا بكرامته الشخصية، لكونه ضيفه ولأنه خذله، وربما تصور الرئيس أنه استخف بالتقاليد والعادات السودانية، وراح يحكى ما حدث فى جلساته الخاصة، فيما بعد...

هذه الواقعة تثبت أن القبيلة هى السياج الذى يحتمى به المواطن السودانى، من خطر الطائفية، وشبح الحروب الأهلية، فهى الكيان السياسى الذى يؤمن به، والإطار الاجتماعى الذى يستمد منه هويته وانتماءه، فالقبيلة هى الجنسية الحقيقية، جواز السفر والحصانة، من أى عدوان أو ظلم.

ويعتبر زعيم القبيلة هو المرجعية التى يحترمها المواطن، ويستجيب لقراراته دون تفكير فكلمته تُوقف القتال، وتُشعل الحروب.. مازال الانتماء القبلى مقدمًا على كل شىء والإخلاص والولاء للقبيلة أمرًا حتميًا ومقدسًا، والخروج عليه يعنى الفسوق والعصيان، بل تعد جريمة تصل إلى حد المحرمات والكبائر.

وما زالت القبيلة هى السند المادى والمعنوى لكل سودانى، مهما كان مستواه الاجتماعى أو الثقافى، فإذا تعرض أحدُ أتباعها إلى أذى، لحق العار بكل أفرادها، وإذا أراد أحد أبناء القبيلة أن يتزوج، فهى المسئولة عن تدبير كل شىء، بدءًا من العروس، وانتهاءً بالمسكن.

إذا رغب أحدهم فى السفر لاستكمال دراسته فى الخارج، لجأ إلى زعيم القبيلة الذى يتعهد بتدبير التكاليف، وإجراء الاتصالات، وتسهيل المهمة، حتى أن المبعوث يظل يتلقى الأموال اللازمة وهو فى الغربة طوال سنوات دراسته، مهما طالت المدة، أو بعُدَت المسافات، أو ارتفعت التكاليف، فى هذه المناطق الواسعة الوعرة يلتزم الجميع بقانونٍ غير مكتوبٍ، ربما يستند إلى الشريعة الإسلامية، ويتعلقُ بعدم الاعتداء.

القاعدة الأساسية التى تحكم العلاقة بين أغلب القبائل أن السلام والأمن حقٌ للغرباء، طالما التزموا بقواعد وأصول الضيافة، بجانب احترام العادات والتقاليد القبلية فهى المنظم لكل تفاصيل وأوجه الحياة اليومية، منذ أن يستيقظ الإنسان حتى ينام.

***

اليوم فى البادية يبدأ مبكرًا، قبل شروق الشمس، يذهب الجميع إلى أعمالهم، التى- عادة- لا تنتهى حتى الغروب، بعدها يتجه كلُ شخص إلى مقر زعيم قبيلته، الذى يتحول إلى منتدى مفتوح، حيث يستعرضون معًا مشاكلَهم، ويناقشون قضاياهم، وينهون خلافاتهم، كما أن بيت شيخ القبيلة يظل مفتوحًا للضيافة الجماعية، إلى أن يتناول الجميع العشاء، ثم يحتسون الشاى، ويُصَلونَ العشاءَ جماعةً خلف الشيخ، ثم يهمون بالانصراف إلى قراهم، وبيوتهم المجاورة، استعدادًا ليومٍ جديد.

هذا البرنامج متكرر فى كل القبائل، بصرف النظر عن جذورها؛ أو معتقداتها الدينية، والفوارق محدودة، تظهر فى بعض التفاصيل الحياتية البسيطة؛ ففيما يتعلق باللغة أو اللكنة، فلكل قبيلة فى دار فور لهجتها الخاصة التى يتفاهمون بها ، وربما تكون أكثر هذه اللهجات غير مكتوبة لكن يجيدها جميع أعضاء القبيلة.

أحيانًا تنتشر فى القبيلة لهجات متعددة خصوصًا تلك القبائل الأفريقية الكبيرة؛ مثل الزغاوة، والفور، والمساليت وهى القبائل الثلاث الأساسية التى تشكل الكتل الكبيرة فى الإقليم، ويمتد وجودها فى دار فور من الشمال إلى الجنوب فضلاً عن امتداد جزء منها خارج الحدود، ليصل إلى عمق الدول المجاورة، فى ليبيا وتشاد وأفريقيا الوسطى وبعضها يصل حتى إلى نيجيريا فى غرب القارة.

هذه القبائل تحافظ على ثقافتها الأصلية المستمدة من الجذور الأفريقية، بعد تنقيتها من بعض العادات والتقاليد التى تتعارض مع القيم الإسلامية، وربما تبدو خلافات ظاهرية بين القبائل ذات الأصول العربية والأفريقية، لكن نادرا ما تلجأ القبائل العربية إلى تعلم وتداول لغات غير العربية.

كما أن بعض الثقافات والغناء والرقص والحفلات مستمدة من الثقافة العربية، حيث مازال معظم العرب يتمسكون برفض الاختلاط بين المرأة والرجل خلال الحفلات الراقصة، فى المقابل هناك قبائل أفريقية لديها ثقافات قائمة بشكل أساسى على الاختلاط بين الجنسين، والشىء الذى تشترك فيه القبائل العربية والأفريقية هو تعدد الزوجات، والاعتماد على المرأة كشريك رئيسى فى العمل، وتحمل الجزء الأكبر من نفقات الأسرة.

وقد شاهدت حفلات قبائل أبناء الفور، وكان مما عُرض فيها رقصة مشتركة لشباب وشابات فى سن المراهقة وكلاهما يتنافس فى الرقص قفزًا لأعلى، الجميع يجتهد فى تحقيق أعلى مستوى من القفز، وعندما سألت عن السر فى ذلك أجابوا بأن القفز لأعلى يعد دليلاً على النضج، ومن ثم القدرة على الزواج، يحق لأهل قبيلته البحث له عن زوجة، أو البحث لها عن زوج.

تختلف عادات الزواج من قبيلة إلى أخرى حسب الجذور والعادات والتقاليد، وإن كانت جميعًا تشترك فى بعض العموميات، فإن التفاصيل تتنوع بحسب كل قبيلة

ومدى قربها أو بعدها عن العمران والمدينة؛ فمثلا فى قبيلة «الفلاتا» وهى من القبائل التى نزحت من غرب أفريقيا واعتنق أتباعها الإسلام ثم استقرت منذ مئات السنين فى دار فور، يحرص معظم أفراد القبيلة على المشاركة بالحفل والاستعداد له مسبقًا.

تبدأ عملية التعارف أولاً بين الشاب والفتاة، إما عن طريق الأقارب أو فى الحفلات الجماعية، التى تتم فى المناسبات الدينية، بعدها يكلفُ العريسُ الشابُ أحدَ أصدقائه ويُسمى «وزير» أن يبدأ المفاوضات مع العروس، التى تفوض إحدى صديقاتها المقربات تسمى «وزيرة».

يلتقى كل من الوزير والوزيرة فى أكثر من جلسة للحديث نيابة عن الطرفين فى كل التفاصيل، بدءًا من التصريح بالحب والعواطف وانتهاءً بترتيبات الزواج والحفل، مكان الإقامة وغيرها من التفاصيل. يتم تحديد موعد الزواج الذى عادة ما يكون بعد مواسم حصاد أو بيع محصول الصمغ العربى والفول السودانى، الذى تعمل فى زراعته معظم القبائل، بجانب رعى وتربية الحيوانات. ربما لا يلتقى العريس والعروس سوى مرات محدودة، لأنهما عادة ما يكونان صغيرى السن، ولا تسمح العادات والتقاليد أن تجمعهما أى لقاءات منفردة.

***

فى يوم الخطبة يمتطى العريسُ حصانا أبيض مزركشًا، وخلفه أصدقاؤه وأقاربه، ويتجه إلى منزل العروس، ولا يسمح له بدخول المنزل إلا بعد أن يقدم «هدية» للعروس، عبارة عن مبلغ من المال و«كتاب الله»، يقوم الوزير المرافق للعريس بتسليم هذه الهدية إلى الوزيرة، التى تتولى تقديمها إلى صديقتها العروس، بعدها تنطلق الزغاريد، إيذانًا ببدء طقوس الزواج.

يظل الأقارب يغنون ويرقصون فى مجموعتين منفصلتين؛ الأولى شباب مع العريس والأخرى فى مكان مجاور بنات مع العروس، يستمر الرقص والغناء حتى ساعة متأخرة من الليل، بعدها يعود العريس إلى منزله دون أن يلتقى مع عروسه، وبعد عدة أيام تبدأ الاستعدادات للفرح.

ويكون خلالها العريس قد انتهى من تجهيز منزل الزوجية، الذى عادة ما يكون على شكل «قطية» من البوص، والمواد المحلية، إذا كان من عموم الناس، أما إذا كان من الميسورين فيحيطها بسياج من «البوص»، ويلحق بجوارها حمامًا من البوص أيضًا، مقام بطريقة تحجب الرؤية عمن بداخله، عن المارة خارج السياج.

عادة تكون «القطية» مزودة بأدوات بسيطة للطبخ بالإضافة إلى مكان للنوم، حيث يقضى الزوجان معظم أوقات النهار خارجها؛ إما فى الحقل أو سعيًا فى البادية خلف القطعان.

عندما يحين وقت الزواج، يركب العريس سيارة أو حصانًا أو جملاً حسب ظروفه، ثم يتوجه إلى منزل العروس، ويدخل إلى غرفتها، ويكون لقاؤهما لأول مرة بحضور قارئ للقرآن من أهل القبيلة، يقرأ سورة «يس» كاملة بالتجويد، ثم- بأمر من الشيخ- يضع العريسُ يدَه على رأسِ العروس، وبعدها يدخل أقاربهمُا إلى الغرفة، ويبدأون فى قراءة سورة من القرآن، ثم يقرأ الجميع الفاتحة، ويدعون للعروسين بالتوفيق.

فى مساء نفس اليوم يتشارك الجميع فى الرقص والغناء، ويتناولون ما لذا وطاب من طعام وشراب اللبن، الذى أعده أهل العروس، وشارك فيه جميعُ الجيران، الذين يرتبطون بعلاقات قرابة ونسبٍ، فضلاً عن انتمائهم إلى قبيلة واحدة.

فى تلك المناسبة ترتدى العروس ملابس مزركشة، فيها ألوان زاهية عديدة، يطلقون عليه «الثوب»، يتم تصنيعه بطريقه يدوية عن طريق متخصصين، ومن أهم عاداتهم أيضًا- خصوصًا قبيلة «الفلاتا»- أن العريس يقضى ليلته رقصًا وطربًا، ثم ينام فى نفس البيت دون أن يقترب من عروسه التى أصبحت زوجته، ثم يستأنف الأهل الفرح فى اليوم التالى الذى يكون مخصصًا للرقص الجماعى بين أفراد الأسرة، مثل الأفراح المعتادة فى كل مكان.

لكن أهم ما لفت نظرى هناك أن العروس ترقص لعريسها فى هذه الليلة رقصة شهيرة، يطلقون عليها اسم «قطع الرهط»، وهو عبارة عن حزام من الجلد، تتدلى منه سيور من القماش، تلف به العروس وسطها أثناء الرقص، بينما يقف العريس يراقبها، فإذا حاولت أن تسقط على الأرض فجأة يمسكها من الحزام ويعيدها مرة أخرى.

تتكرر هذه المحاولة على مرأى ومسمع من الأهل والأقارب، الذين يشكلون دائرة حولهما، والطريف أن العروس تحاول أن تغافل عريسها لتقع على الأرض، وإذا سقطت تكون بذلك قد تفوقت عليه، ويدفع غرامة ألف جنيه، عن كل مرة تنجح فيها فى السقوط على الأرض، لذلك يتأهب كل عريس ويستنفر كامل قواه حتى لا تسقط العروس وتهتز صورته أمامها وأمام أقاربه.

تستمر الاحتفالات سبعة أيام متواصلة، أحيانًا يكتفى البعض بثلاثة أيام من الأفراح والليالى الملاح، بعدها تبدأ الحياة الزوجية الحقيقية، حيث يقيمان لمدة يومين، عند أقرب أصدقائه، يتم خلالها حسم ما يسمى «البشارة»، وهى عبارة عن قطعة من القماش عليها «دم العذرية»، تتسلمها الوزيرة والوزير، ويعلقانها فى عنق «خروف» يطلقون عليه «خروف البشارة» الذى يتبرع به أحدهما، ثم يتوجهان إلى منزل العروس، وما إن تراهم أم العروس حتى تنطلق بالزغاريد، وتستعد بالرد على البشارة، بـ«الصباحية» التى تتكون من أرز وسكر وشاى ومأكولات مطبوخة وطازجة، تعدها لابنتها، وبذلك تنتهى طقوس الزواج، وينتهى دور الوسطاء، الوزير والوزيرة.

تختلف بعض العادات والطقوس من قبيلة إلى أخرى، بحسب ما لديها من تراث وعادات موروثة، فمثلاً بعض القبائل العربية الرعوية ترفض تزويج بناتها خارج أبناء القبيلة، خاصة أن هؤلاء الرعاة تتسم حياتهم بالتنقل والترحال الدائم بحثًا عن المرعى والماء.

بينما قبائل أخرى تحرص على أن ترتبط بعلاقات مصاهرة مع قبائل عربية أخرى، يكون الزواج والنسب هو أفضل وسيلة لتوثيق الروابط بينهما، لكن الأكثر شيوعًا هو زواج أبناء القبائل العربية من الفتيات ذوات الأصول الأفريقية، وهناك زعماء لقبائل أفريقية متزوجون من عربيات.

من الصعب تحديد الانتماء القبلى، نظرًا للزواج المختلط، حيث يتميز أبناء «الفور» بسواد البشرة الداكن، والأنف الصغير المفلطح، هم أقرب إلى الزنجية، بينما أبناء القبائل العربية يتمتعون ببشرة سوداء، فاتحة فى بعض الأحيان، والأنف التقليدى الشائع فى السودان، غير أنى لاحظت أن شابًا قمحى اللون كان ضمن قوة شرطة فى مدينة نيالا فتصورت أنه ينتمى لجذور مصرية، لكنه فاجأنى بأنه من قبيلة «الفلاتا» الأفريقية.

كما حدث معنا العكس، فقد كان لنا مرافق دائم من أبناء الجنوب، طوال عشرة أيام من مرافقتنا لم ندرك أنه من أصول عربية حيث أكد أن والدته من قبيلة البرقد الأفريقية، ووالده من بنى هلبة العربية، بينما هو شديد السمرة، يحمل ملامح القبائل الأفريقية.

من الطرائف- أيضًا- أن هناك من بين عادات الزواج لدى بعض القبائل الأفريقية، موروثا ثقافيا يفرض على والد العروس تجهيز «قطية» الزواج لابنته بجوار مسكنه، وتظل مقيمة هى وزوجها بجواره، بينما يتكفل هو بجميع نفقاتهما حتى ينجبا الطفل الأول، بعدها يكون للزوجين حرية الانتقال للإقامة فى مكان آخر، أو البحث عن مسكن مستقل بعيدًا عن القرية نفسها.

فى المقابل هناك قبائل أفريقية أيضًا تلزم والد العروس بأن يتكفل بالبحث عن زوجة أخرى للعريس، إذا لم تنجب ابنته خلال العام الأول من الزواج، بشرط أن تظل الأولى على ذمته.

معظم قبائل السودان اعتادت وضع وشم يميز أبناءها عن أبناء القبائل الأخرى، تتساوى فى ذلك القبائل العربية أو المنتمية لجذور أفريقية؛ فقبيلة «الشيقية» العربية مثلاً على وجه أبنائها ثلاثة «شلوخ» على الخد الأيمن، والقبيلة الأقرب لهم هى «الجعليين» ترسم هذه الشلوخ على شكل حرف (H)بينما ترسم قبيلة الشلوك الأفريقية على جبهة أبنائها ثمانية ثقوب، أما قبيلة النوير فتضع نفس الثقوب على الجبهة لكن إلى الأسفل قليلاً.

ومن أشهر أبناء قبائل «الشلوك» «لما كول» وزير الخارجية السودانى، وأشهر أبناء النوير «رياك مشار» نائب الرئيس السودانى، أما القبيلة الأكثر تميزا فهى «الدنكا» التى تميز أبناءها بثمانية شلوخ، أربعة على يمين الجبهة وأربعة على اليسار، كل هذه العلامات يتم رسمها بالكى وبدون تخدير.. العملية تتم تحت إشراف شيخ القبيلة ووسط تهليل الأهل والأقارب.

5

النسخة السودانية من الكتاب الأسود

البؤس لابن الشعب يأكل قلبه   والمجد والإثراء للأغـــراب
والشعب معصوب الجفون مقسم   كالشاة بين الذئب والقصاب
والحق مقطوع اللسان مكبل   والظلم يمرح مذهب الجلباب
هـذا قليــل مــن حيــاة مـــرة   فى دولة الأنصاب والألقـاب

تذكرت هذه الأبيات للشاعر التونسى الراحل أبى القاسم الشابى، وأنا أتصفح تفاصيل الكتاب «الأسود» الذى لعب دور الفتيل، وأشعل صراعا داميا بين الحكومة المركزية، وشعب الإقليم، هذا الكتاب وضع السودان أمام مفترق طرق، وفتح الباب على مصراعيه أمام القوى الخارجية والدولية للعبث بمصيره، فقبل أن تلتقط الحكومة أنفاسها، كانت على موعد مع حرب أهلية أخرى فى الغرب، تحولت بسرعة إلى جرح غائر فى الجسد السودانى ضاعفت معاناة المواطنين، وأصبحت تشكل واحدة من أكثر الأزمات الإنسانية تعقيدا على المستوى الدولى.

***

وسط أحد معسكرات اللاجئين، فى منطقة الفاشر شمال دار فور، دار حديث بينى وبين أحد الأطباء السودانيين.. كنت متأثرا بحالة البؤس والفقر، التى أصابت أغلب أهل القرى، فاجأنى الطبيب قائلا «هؤلاء الناس يعيشون فى رغد، مقارنة

بأحوال قبائل البلجة فى الشرق، أو حتى بعض مناطق الجنوب النائية.

فدار فور موطن أكثر السودانيين ثراء، وهى الأعلى فى نسبة التعليم والتحضر، لا تنخدع فيما تراه، أو ما تسمعه من مزاعم قادة التمرد، بشأن الإقصاء والتمييز، هذه شماعتهم لتحقيق طموحاتهم السياسية، وتنفيذ أجندات دولية وإقليمية، بدليل أن أغلبهم كانوا مسئولين، ووزراء وقيادات سياسية فى حزب المؤتمر الشعبى الذى يقوده الترابى.

وقد لمست بالفعل تواجدا قديما لحزب الأمة الذى يعد ثانى أكبر حزب سياسى فى البلاد بعد الحزب الاتحادى، إضافة إلى حزبى المؤتمر الشعبى الذى يقوده الترابى، والمؤتمر الوطنى الذى يقوده البشير.

يعود السبب فى تغلغل حزب الأمة فى الإقليم إلى جذور تاريخية ترجع إلى عهد الثورة المهدية، حيث لجأ مؤسسها إلى دارفور، فوجد فيها دعما وحماسا من سلطانها على دينار الذى وفر العتاد والسلاح لقادتها، كما خرج من دارفور عبد الله التعايشى الرجل الثانى فى الثورة المهدية، منذ هذا التاريخ ونجح المهديون فى التواجد بدار فور، حيث يستحوذ حزب الأمة وحده على نحو ٩٠٪ من الدوائر.

بعد الضعف السياسى الذى أصاب حزب الأمة فى السنوات التى تولى فيها نظام «الإنقاذ» السلطة، بدأ ظهور جماعات سياسية جديدة يقودها شباب ينتمى بعضه إلى التيارات الإسلامية، بينما يميل القسم الآخر إلى التيارات العلمانية، مع التشدد العرقى والثقافى تجاه الجذور الأفريقية، ومعاداة المظاهر العربية التى يعتبرها رمزا للسلطة المتجبرة، والعنصرية.

كان الظلم والتفرقة هما المدخل الحيوى، لتحقيق أجندتهم السياسية، خاصة أن الأيام كشفت فيما بعد أن قادة التمرد أنفسهم غير متفقين على أهداف محددة لما بعد انتهاء الصراع، وربما نجحت الحكومة المركزية فى اللعب بورقة الشقاق والخلافات بين قادة التمرد لكن ضعف الحكومة وتشتت جهودها فى أكثر من اتجاه كان فرصة لاستمرار الصراع وابتزاز المتمردين لها،بوسائل عديدة.

حزب المؤتمر الشعبى الذى يقوده حسن الترابى يعتبر أحد الأطراف المحرضة

على الفتنة، ويقودها من خلال العديد من قياداته الحزبية التى تنتمى أصولها إلى غرب السودان، وسعى الترابى لاستخدام صراع دارفور كأداة لخلخلة نظام الحكم الذى يسيطر عليه حلفاؤه السابقون، وهم تلاميذه فى السابق، وهو يفعل ذلك تحت دعاوى الحرية والمساواة والديمقراطية والعدالة التى تغلف طرحه الجديد الذي حاول من خلاله أن يخفض من نبرته الأيديولوجية فى ظل المناهضة الغربية والأفريقية للحركات الإسلامية اعتقادا منه بأن هذا الخطاب قد يجلب له الدعم والتعاطف، ويبعده عن العداوات ،فمظلته الجديدة هى الدعوة إلى تبنى مطالب المهمشين غير عابئ فى سبيل عداواته ومصالحه الحزبية بمصالح السودان متناقضا فى الوقت نفسه مع تاريخه السابق.

***

وبنظرة سريعة على خريطة قادة التمرد، والمنطلقات السياسية والجغرافية لها، تظهر أصابع خارجية، وملفات، سرية غامضة تثير القلق.

فقد ظل غرب السودان مقرًا للحركات المناوئة للحكومة.. أيام محمد على باشا استعصت هذه المنطقة على الفتح، حتى فتحه الضابط التركى الزبير باشا الذى ما لبث أن انطوى تحت التاج المصرى بعد سخطه وغضبه عليه، ثم أصبح الغرب مديرية من مديريات السودان حتى أيام المهدية، وفى عهد التعايشى كان على دينار مسئولا عن إدارة شئون دارفور باسم المهدية، لكن الخليفة كان يشك فى ولائه للمهدية، حيث تأكدت شكوكه عندما انفصل عن الدولة فى ظل الهجوم الإنجليزى على السودان والفوضى التى حدثت.

فى البداية تعاون السلطان مع الحكومة الثنائية بدفع الجزية مقابل عدم تدخلهم فى مملكته، لكن ما أن مر بعض الوقت حتى بدأ يتذمر من الوجود الإنجليزى الذى بدأ يتدخل فى شئون سلطنته. طلب السلطان العون من الحكومة التركية وظل فى انتظار هذه المعونات ليقضى على الوجود الإنجليزى فى السودان لكن الحكومة التركية فشلت فى إيصال المدد عن طريق ليبيا.

الحكومة علمت بنواياه وبتعاونه مع الخليفة العثمانى فخرج القائد هدلستون من الأبيّض فى ٣٠٠٠ جندى، وقتل آخر وأشهر سلطان فى دارفور، فى ٢٢ مايو

١٩١٦م. وبعد إخماد ثورة على دينار لم تشتعل أى ثورة فى البلاد باسم الدين.

فى المقابل تنامت حركة الاحتجاج السياسى فى الأطراف لتنشط فى دارفور جبهة نهضة دارفور التى كان منشؤها مدينتى «نيالا وزالنجى» ثم امتدت للفاشر والجنينة ومن قيادات تلك الحركة عمر أبكر والدكتور على حسن تاج الدين والدكتور على الحاج محمد.

وجاء تكوين جبهة نهضة دارفور على أثر استئثار الأحزاب التقليدية خاصة حزب الأمة بالدوائر الجغرافية فى البرلمان بترشيح قيادات الحزب فى تلك الدوائر لتمثيلها فى البرلمان دون معرفة موقعها الجغرافى فى بعض الأحيان.

كما احتكرت أسماء بعينها حق الترشيح فى دائرة أم كدادة بمدينة الفاشر وانحصرت مطالب جبهة نهضة دارفور فى الآتى:

١- تمثيل دارفور بنواب منها.

٢- التزام النواب بالسعى لتحقيق تنمية الإقليم.

٣- نشر التعليم وتوفير خدمات الصحة العلاجية

٤- إلغاء الضرائب والرسوم الحكومية

٥- الولاء مقدم لدارفور على ما عداه من اعتبارات ..

فى تلك الفترة برز اسم أحمد إبراهيم دريج كقيادى سياسى شاب فى منطقة جبل مرة؛ ودعا لاعتبار جبهة نهضة دارفور حزبا سياسيا يجمع تحت سقفه الإقليم،واتخاذ موقف موحد من الأحزاب السياسية التقليدية.

الدعوة لاقت مناهضة من قبل قيادات الجبهة باعتبارها (وعاء مطلبى) يحقق أهدافه العليا من خلال اندماج قياداته ورموزه فى الأحزاب السياسية والسعى لتحقيق أهداف الجبهة عبر تلك الأحزاب. بيد أن حزبى الأمة والاتحادى الديمقراطى انتابتهما مخاوف من تصاعد جبهة نهضة دارفور، والمطالب التى رفعتها وانتهجت الأحزاب تجاهها سياسة الاحتواء فانضم د. على الحاج لحركة الإخوان المسلمين وهو طالب فى جامعة الخرطوم.

وتمت استمالة الدكتور على حسن تاج الدين لحزب الأمة بينما خاض أحمد

إبراهيم دريج الانتخابات تحت لافتة جبهة نهضة دارفور ودخل البرلمان، ثم انضم لحزب الأمة. ومن جراء الخلافات التى نشبت فى أوساط جبهة نهضة دارفور ضعف وجودها فى أرض الواقع، وذلك بعد رفض معظم رموز الإدارة الأهلية من القبائل العربية الانضمام لها كالناظر عيسى ديكة من «بنى هلبة» والناظر «موسى مادبو» من الرزيقات والغالى تاج الدين من الهبانية، بينما انضم زعماء قبيلة الفور للحزب الاتحادى الديمقراطى حيث كان معظم قياداته من الفور فى منطقة كاس وجبل مرة وزالنجى، فى المقابل ذهبت قيادة المساليت باتجاه حزب الأمة، وسلطان الزغاوة دوسة لحزب الأمة أيضا بعد انضمام معظم قيادات جبهة نهضة دارفور للأحزاب التقليدية وتصاعد الخلافات بين قياداتها، وغداة عام ١٩٦٨ م نشأ فى مدينة نيالا تنظيم سرى باسم «حركة سونى» قوامها المتقاعدون من القوات النظامية تلقت دعمها من الحزب الشيوعى وقد نشطت الحركة وسط مجموعة القبائل الأفريقية «الفور والمساليت والتنجر».

جرت ملاحقة قيادات تلك الحركة باعتبارها تنظيما شبه عسكرى يتخذ السرية منحى فى تعاطيه للشأن العام، وأصدر التنظيم السرى بيانا فى يناير ١٩٦٩ م جاء فيه «محافظات دارفور يقل حظها فى التنمية بسبب سيطرة فئة «الجلابة» «العرب» على الحياة الاقتصادية واستغلالهم لأهلنا البسطاء وتسخيرهم فى الزراعة والعمالة الرخيصة، مما جعل دارفور غير قادرة على الإسهام فى تنمية قدراتها ويضيف البيان الذى نشرته صحيفة الرأى العام (إن الثورة على الأوضاع الراهنة تتطلب وحدة الفور والمساليت والتنجر لقطع الطريق أمام انتهازية الجلابة التى هى جزء من الرأسمالية والنظام العشائرى).

***

تنظيم سونى كان أول حركة فى دارفور تدعو صراحة لحمل السلاح على غرار حركة «الأنانيا» بجنوب السودان، هذه الحركة تأثرت بأدبيات مقاومات المستعمر والاشتراكية الأفريقية التى رفع لواءها كوامى نكروما فى غانا وجليوس نايريرى فى تنزانيا، لكن معظم قيادات سونى التحقت فى وقت لاحق ببعض الأحزاب السياسية خاصة الحزب الشيوعى، بينما بقى جزء منها مستقلا بأطروحاته إلى أن

حدث التغيير فى ٢٥ مايو ١٩٦٩ م وصعد العقيد جعفر محمد نميرى للحكم .

فى حقبة مايو، طرحت قضية الحكم فى دهاليز مجلس الشعب والاتحاد الاشتراكى ووضع دستور ١٩٧٣ م الذى أقر نظام الحكم اللامركزى فى البلاد وتوسع الحكم النيابى بقيام البرلمانات الإقليمية، وشكلت مدينة الفاشر العاصمة السياسية لإقليم دارفور، حينذاك مارس قادة دارفور ضغوطا كثيفة على المركز لتحقيق مطالب أهمها قيام طريق أم درمان، أم كدادة الفاشر، ومطار نيالا وطريق نيالا كاس زالنجى الجتينة.

هذه المطالب ،كانت صلب البرنامج الانتخابى لكثير من النواب. وأثناء المواجهة بين مايو والأحزاب السياسية ممثلة فى الجبهة الوطنية تم تجنيد عدد كبير من أبناء ولايات دارفور فى جيش المعارضة، خاصة أتباع حزب الأمة.

عندما فشلت حركة يوليو ١٩٧٦م كان عدد كبير من جنود الحركة المسلحة قد هرب من أم درمان لمناطق دارفور الشمالية دون عمل أو مهنة وبلغ عدد العسكريين الذين تدربوا فى ليبيا وكانوا ضمن الحركة المسلحة نحو(٧٠٠) جندى، بعد فشل المحاولة هرب بعضهم لدارفور وقدر عددهم بـ(٣٠٠) من بقايا الحركة المسلحة، واستقر هؤلاء فى مدن الفاشر ونيالا ومليط وزالنجى، وأغلبهم ممن لا مهنة أو حرفة لهم، هذه المجموعات هى بذرة عصابات النهب المسلح والسرقات المنظمة فى دارفور، فالهجوم على سوق «كورو» فى يناير ١٩٧٩م كان بداية نشاط مجموعات النهب.

فى الأسبوع الأول من يناير ١٩٨١م، انطلقت أول تظاهرة فى مدينة الفاشر ضد سياسات الاتحاد الاشتراكى ، قوامها طلاب مدرسة الفاشر الثانوية، ووزعت من خلالها منشورات تدعو لتضامن أهل دارفور من أجل نيل حقوقهم.

فيما يتعلق بحركات التمرد الحديثة هناك ثلاثة تنظيمات رئيسية ارتبطت بأحداث التمرد،منذ بدء الصراع. أولها «جبهة تحرير السودان» وهو يعد التنظيم الأكثر نشاطًا، جناحه العسكرى «جيش تحرير السودان» الذي تعود إليه معظم العمليات العسكرية، هذه الجبهة بدأت فى أول بيان لها باسم «جبهة تحرير دارفور» ثم عادت فى بيانها الثانى لتعدل من اسمها دون أن تذكر أو توضح الأسباب التى دعتها إلى ذلك» وإن كان من الواضح أنها أرادت اسما يبعدها عن شبهة النوايا

الانفصالية، ويجعل مطالبها أكثر قبولا لدى الرأى العام فى الداخل والجهات الخارجية التى تعول على الحصول على الدعم منها .

يترأس الجبهة محامٍ سودانى شاب هو عبد الواحد محمد نور الذى ينتمى إلى قبيلة الفور، بينما يحتل «منى أركو مناوى» ابن مدينة السلام القريبة من الفاشر موقع أمينها العام..معظم القادة العسكريين فى صفوف الحركة كانوا ضباطًا سابقين فى الجيشين السودانى والتشادى.

البيانات السياسية للحركة ركزت على التهميش الذى تعرض له إقليم دارفور واستبعاد أبنائه من قسمة السلطة، وانعدام الخدمات الأساسية فيه، كما تنتقد هيمنة ما تسميه بالوسط النيلى على أقدار السودان، وتنادى بحكم ذاتى موسع، وإعادة بناء السودان على أسس جديدة، وتعتبر الاضطهاد الوحشى والتطهير العرقى المدعوم من قبل النظم الحاكمة فى الخرطوم قد ترك سكان دارفور بدون أى خيار سوى اللجوء إلى المقاومة المسلحة .

حركة تحرير السودان تتشابه إلى حد كبير مع «الحركة الشعبية لتحرير السودان» التى قادها الزعيم الجنوبى الراحل «جون جارنج»، سواء فى الاسم المعلن لها أو فى تقسيم الأدوار بين جناح سياسى وآخر عسكرى أو فى المطالب المرفوعة والخطاب السياسى الذى تتخذه جسرا لتحقيق أهدافها .

***

التنظيم الثانى الأكثر نشاطا هو «حركة العدل والمساواة» التى يقودها «خليل إبراهيم» المقيم فى لندن، بينما يقود عملياتها العسكرية «التيجانى سالم درو» وهو ضابط سابق اختلفت المصادر حول هويته الأصلية هل هو تشادى أم سودانى؟

خليل إبراهيم طبيب وينتمى عاطفيا وسياسيا إلى المفكر الإسلامى الشيخ حسن الترابى وقبليا إلى قبيلة الزغاوة حيث كان عضوا قياديا فى حزب المؤتمر الوطنى الحاكم فى السودان، وعمل وزيرا ولائيا فى دار فور لفترة طويلة فى عهد نظام الإنقاذ، حيث كان قياديا وسيطا فى تنظيم الجبهة القومية الإسلامية إلا أنه- وبعد العديد من التطورات- أعلن فى مارس ٢٠٠٣ تأسيس حركة «العدل والمساواة» التى

أصدر بيانها الأول من لندن باللغة الإنجليزية.

وبدا واضحا أن خليل إبراهيم يريد أن يتخلى عن طرح توجهاته الإسلامية السابقة، وميله إلى تبنى طرح علمانى، وحرصه على إبعاد نفسه وحركته بقدر كاف عن الثقافة العربية الإسلامية، حيث انخفضت نبرة الخطاب الدينى لصالح تزايد مساحات الخطاب الاثنى والقبلى لكى يتلاءم مع الجغرافيا الثقافية لمنطقة غرب السودان .

«حركة العدالة والمساواة» تدعو إلى فصل الدين عن الدولة وبناء سودان جديد مدنى «ديمقراطى» كما تتحدث عن تحالف المهمشين ضد سلطة المركز وإتاحة دور أساسى للمهمشين فى عملية إعادة ترتيب الأوضاع فى البلاد.

يعتبر خليل إبراهيم أبرز المشاركين الأساسيين فى إعداد «الكتاب الأسود» عام ١٩٩٩ وتم توزيعه سرًا ولم يكن يحمل اسم مؤلفه، حيث يضم حصرا دقيقا لكافة المناصب القيادية فى السودان منذ الاستقلال لكى يثبت مقولة هيمنة أبناء الوسط والشمال فى الاستئثار بالسلطة على عموم السودان.

الكتاب «الأسود» يحتوي على تقويم عرقى للوظائف والمناصب العليا فى السودان، ذاهبا إلى أن مجموعة سكانية صغيرة تسيطر على البلاد وأن سكان أغلب المناطق وعلى رأسها إقليم دارفور مهمشون الكتاب يكشف أن ٨٠٠ من أصل ٨٨٧ وظيفة، يشغلها موظفون شماليون، فى البداية اتُهم الترابى وأنصاره بتأليف الكتاب حتى أكد رئيس حركة العدل والمساواة أنه مؤلفه الحقيقي.

التنظيم الثالث المشارك فى أحداث دارفور هو «حزب التحالف الفيدرالى» يتزعمه أحمد إبراهيم دريج، حيث لعب دريج أدوارا بارزة فى السياسة السودانية منذ النصف الثانى للستينيات، ومعروف بعلاقاته القوية والمبكرة ببعض الشخصيات الأوروبية إلا أن حزبه بقى جهويا على الدوام يحمل مطالب دارفور.

أحمد إبراهيم دريج الذى يقيم الآن فى لندن طاردته بعض المشاكل وأصابه الملل من الحياة السياسية فى السودان فأصبح «شريف حرير» نائبه فى الحزب هو الشخصية الأكثر نشاطا و«حرير» ينتمى إلى قبيلة الزغاوة، أصدر بيانات ينسب

فيها العديد من الأعمال العسكرية الجارية إلى حزبه.

ثم عاد وذكر أن العمليات العسكرية تعبر عن تحالف عريض من أبناء دارفور، وإن كان من الواضح أن علاقة «حزب التحالف الفيدرالى» غير ودية مع «حركة العدالة والمساواة» ، حيث يلجأ «شريف حرير» إلى الإشارة الدائمة للانتماء الإسلامى لخليل إبراهيم ، كما لعب العقيد الراحل جون جارنج دورا مؤثرا فى تسخين الأوضاع فى دار فور ،حيث ارتبط بأواصر قديمة مع الشباب المتحمس فى تلك المنطقة.

وحينما نضجت اتفاقيات الشراكة السودانية الجنوبية بين الحكومة وجون جارنج وجد الاتحاد الفيدرالى نفسه معزولاً، وحينما طلبت قيادات دارفور من جارنج تمثيلهم فى المفاوضات الجارية مع الحكومة تعلل بأن الأمور لم تنضج فى دارفور، وأن الحريق لم يشتعل بما فيه الكفاية حتى ينتبه إليه العالم الخارجي ويصبح جزءًا مهمًا فى محاولات قسمة السلطة والثروة وإعادة هيكلة السودان لافتًا نظرهم إلى ما قام به من محاولات لإشعال الثورة فى دارفور، وكيف ضاع خمسة آلاف من رجاله غنيمة سهلة فى يد الحكومة السودانية عام ١٩٩١ بقيادة الشاب الدارفورى داود يحيى بولاد..جارنج من العداوات التاريخية القديمة والمتأصلة فى نفوس أبناء المنطقة والأوهام المتعلقة بوجود مشروع لاستئصال الزرقة من أهل دارفور.. هذه الأوهام بدأت فى مؤتمر عقد فى عام ١٩٨٧ باسم تضامن القبائل العربية دعمته بعض الجهات الليبية فى محاولاتها لتطويق تشاد.

إن القبائل العربية الكبرى كالرزيقات قاطعت هذا المشروع، بينما التقت فيه القبائل البدوية الصغيرة، ولم يكن لهذا المشروع أى أهمية تذكر، لولا خلفيات الحرب التشادية، الليبية. إذ وقر فى ذهن القبائل التشادية الزنجية، أن تسليح ليبيا للقبائل العربية التشادية بقيادة أحمد أصيل وغيره، القصد منه إضعاف مركز القبائل غير العربية الأخرى مثل القرعان. التى كانت تساند حكومة الرئيس حسين هبرى من قبل.

***

الواقع يشير إلى أن ما يحدث فى دارفور تقوم به مجموعات متعددة، بعضها قبلى تنتهى أجندته فى حدود جغرافية دارفور، والبعض الآخر يتمدد حتى يصل إلى

الخرطوم. خصوصا أن المجموعات القائدة للعمليات العسكرية مازالت فى مرحلة تذويب الخلافات العسكرية والسياسية وإن كانت تلتقى مع بعضها البعض، أيضا مع الحركة الشعبية التى كان يقودها جارنج فى مسعى مشترك- هو محاولة إنشاء حزام أو طوق دائرى يعتمد على تجميع الأطراف للقضاء على مركزية الوسط السودانى .

الخطاب المعارض فى دارفور ظل يعانى من ضعفه على تحديد أجندته بشكل واضح ودقيق، ويمكن أن نلاحظ ثلاثة اتجاهات متعارضة:(٣)

الأول: أن الصراع على مكونات الطبيعة من مزارع ومراعٍ وظروف بيئية فرضت ندرة فى الموارد ترتب عليها صراع مصالح .

الثانى: يقسم دارفور على أساس اثنى بين القبائل الأفريقية والعربية، ويصور الصراع بأنه ضد الوجود العربى بدارفور، ويعتبر المركز كامتداد لذلك الوجود وكداعم له ضد المجموعات الأفريقية لذا يجب مناهضته .

الثالث يصور الصراع على أساس جغرافى باعتبار أن دارفور جزء من قطاع واسع - يضم الجنوب والشرق الشمال- يتم تهميشه من قبل المركز النيلى المحدد بمثلث (الخرطوم وكوستى وسنار) .

هذه الاتجاهات المختلفة تعكس فى الوقت نفسه أبعاد أزمة الهوية، فهناك التباس فى تحديد الذات؛ ومن ثم فى تحديد «العدو» هل هو اثنى محدد؟ أم ثقافى؟ أم عدو جغرافى؟ كل خيار من هذه الخيارات يفترض لغة وخطابا مغايرا للخيارات الأخرى ، بما يعنى أن الفارق الأساسى بين تمرد الجنوب وتمرد دارفور، أن الأول بدأ عسكريا ثم جرى «تسييسه» والثانى بدأ سياسيا ثم «تعسكر».. فالعسكريون فى الجنوب هم الذين استقطبوا المدنيين للصراع.. ترى هل ستسير المعارضة الدارفورية فى الاتجاه المعاكس؟!

6

فى لحم القرد.. لذة غريبة

«حلة النحاس».. قرية صغيرة على الحدود الفاصلة بين مدينة الجنينة فى أقصى غرب دارفور، وحدود جمهورية أفريقيا الوسطى.. فى كشك من الصفيح، بداخله شاب أربعينى، شديد السمرة، ملابسه ملوثة، بالدماء وحوله زحام من الناس رجالاً ونساءً، بعضهم يرتدى ملابس غريبة تختلف عما يرتديه أغلب سكان دارفور.

الرجل أخذ يقطع اللحم بالسكين، ويزنه، فتتلقفه أيدى الواقفين، وما إن ينتهى الجزار من ذبيحة، إلا ويحضر له مساعدُهُ- مسرعًا- ذبيحة أخرى، من خلف الكشك.. الذبائح مختلفة، فقيرة فى اللحم، وشكلها غير مألوف، سألت عن نوعية الذبائح التى يبيعها هذا الرجل، فقالوا لى إنها لحوم القرود، وإنه الجزار المتخصص فى بيع هذا النوع من اللحوم التى يفضِلُها بعضُ سكان القرى، على الحدود المفتوحة بين ثلاث دول هى تشاد والسودان وأفريقيا الوسطى.

هنا تتداخل القبائل، وتتنوع الثقافات واللهجات، ما بين عرب، أفارقة، وزنوج يتبعون قبائل مازال بعضُها يُحَافِظُ على وثنيته، يَظْهَرُ ذلك فى طريقة ملابس النساء تحديدًا، فنساء القبائل المسلمة، عربيًا أو زرقة، يحافظن على ارتداء ملابس زاهية، تغطى معظم أجسادهن، كما أن أغلبهن محجبات، بل إن بعضهن منقبات.

أما نساء القبائل الوثنية، فبعضهن يغطى بالكاد العورات، بينما باقى أجسادهن مكشوفة، والأمر ليس غريبًا بل الرجال والنساء يشتركون فى هذه العادات، التى تُعدُ مظهرًا طبيعياً .. الجميعُ، يعيشون معا فى سلام دائم، رغم التباين الثقافى والعرقى، باستثناء الخلافات التقليدية التى تنشأ نتيجة للصراع على المراعى وعيون المياه.

الجنينة تعتبر ثالث أكبر مدينة فى إقليم دارفور، بعد نيالا فى الجنوب، والفاشر فى الشمال، حيث يُوجد بها مطار مجهز لاستقبال الطائرات الحديثة، أغلب السكان من المسلمين السنة، لكن أكثرهم ينتمى إلى قبيلة المساليت، ثانى أكبر القبائل الأفريقية بعد (الفور)، ويعملون فى زراعة الصمغ العربى والسمسم والفول السودانى. والجنينة، أهم محطة تجارية مفتوحة لتجار الدول المجاورة خصوصًا تشاد وأفريقيا الوسطى.

هنا يقال إن الجنينة بعيدة عن البحر أكثر من أية بلدة أخرى فى أفريقيا، وهذا الجزء من دارفور، الذى تشيع تسميته بدار مساليت نسبة إلى الجماعة السائدة، لم يُضم إلى السودان إلا فى عام ١٩٢٢م، بموجب معاهدة بين سلطانهم والبريطانيين، ومنذ فترة قريبة جدًا كان حفيدُ السلطان، الذى يجمع حاشيته فى قصر آيل للسقوط، يردد مازحًا أنه مازال له الحق فى الانفصال عن السودان، وكان لا يزال يعلق فى مكان بارز على جداره خريطة دار مساليت.

أبناء قبيلة المساليت يتحدثون اللغة العربية بطلاقة، ويميلون جميعا للتدين، ويحرصون على تحفيظ أبنائهم القرآن الكريم فى الخلاوى، التى تشتهر بها الجنينة والقرى المحيطة بها، لكنهم أيضا يحرصون على التخاطب فيما بينهم بلغتهم الخاصة، القريبة من اللغة الإنجليزية، من حيث الشكل والنطق.

فمثلا كلمة تفضل بالجلوس «كانونق Ca ngang ، و«انقر قا يونق» angor gayouag ومعناها ماشى وين؟»، «كلمة كو- (Co) التى تعنى اذهب، وهو نفس معناها بالانجليزية، وأيضا هناك كلمة go تعنى تعال، وتقابلها Come وهكذا تبدو اللغة فى ظاهرها صعبة ومعقدة، لكنها بالنسبة لأبناء المساليت سهلة وممتعة، إجادة هذه اللغة ليست مقصورة على المساليت وحدهم، بل هناك قبائل عربية وأفريقية أخرى

يتحدث أبناؤها بهذه اللغة، واللافت أن المساليت يعرفون الغرباء حتى لو تحدثوا معهم بلغتهم.

الحدود فى هذه المنطقة مفتوحة، ويمكن للرعاة من الجانبين التجوال بأبقارهم على طول الحدود، وممارسة الأنشطة التجارية بدون أى إجراءات، نظرًا للفقر الشديد الذى تعانى منه كل من تشاد وأفريقيا الوسطى، من جانبها لا تضع السلطات السودانية أية قيود على حرية التجارة فى هذه المنطقة التى تعد الجنينة منارة بالنسبة للمناطق المحيطة بها.

وقد اعتاد أبناء القبائل التشادية الكبيرة إرسال أولادهم إلى خلاويها ومدارسها للتعليم، وتبادل السلع من أسواقها والتعامل عادة يكون بالدينار السودانى أو بالدولار الأمريكى لكن أغلب التعاملات التجارية تتم بنظام المقايضة أو التبادل التقليدى.

مدينة الجنينة تقع أقصى غرب دارفور على الحدود مع كل من تشاد وأفريقيا الوسطى، المدينة محاصرة بين جبلين فى منطقة منخفضة مما جعلها واحة خضراء معظم أوقات العام، كما أن بها بحيرات تتحول إلى مصدر أساسى لمياه الشرب والرى فى بعض الأحيان، ويمر بجوارها وديان تمتلئ بالمياه فى مواسم الأمطار فيستخدمها السكان فى زراعة (الدُخن)، الذى يصنع منه الخبز ويدخل فى صناعة العجائن والحلوى.

الإنتاج المحلى من المحاصيل والفاكهة وفير، يزيد عن حاجة السكان البالغ عددهم نحو مليون نسمة، فيتم تصديره إلى تشاد أو مبادلته ببعض أنواع البهارات والسلع التى يجلبها التجار القادمون من قرى أفريقيا الوسطى المجاورة.

فى المدينة نسبة كبيرة من المتعلمين، وبها مدارس ثانوية، وجامعة أنشئت حديثًا، عدد الأثرياء بها أقل من عددهم فى نيالا والفاشر.. مؤخرا تحولت إلى مقر للعديد من معسكرات اللاجئين الفارين من أعمال الفوضى التى يشهدها الإقليم. بعضُ هذه المعسكرات وأكثرها فقرًا أقيم داخل الحدود فى مدينة الطينة التشادية وهؤلاء أقل حظًا من غيرهم نظرًا لصعوبة وصول إمدادات الإغاثة الدولية إليهم، بجانب شدة الجفاف والفقر فى المناطق المحيطة بالمعسكرات التى يبلغ تعداد المقيمين بها نحو ٥٠ ألف شخص.. السلطات المحلية تحاول مساعدتهم فى العودة

إلى قراهم لكن هاجس الخوف ما زال يعوق هذه الجهود بالإضافة إلى أنهم يجدون فى المعسكرات ما لن يجدوه فى قراهم المدمرة.

ظلت الجنينة محطة هامة لتجارة الرقيق، على مدى قرون طويلة فقد كان يقيم فيها أكبر تجار العبيد الذين يشترون البشر، ويعيدون بيعهم إلى العائلات الثرية فى الدول المجاورة سواء ليبيا أو مصر، أو حتى بعض دول الجزيرة العربية. وقد روى لى الشاعر العربى الكبير محمد الفيتورى، وهو أحد أشهر الشخصيات الذى تعود أصوله إلى الجنينة، أن جده كان تاجر عبيد يتخذ من الجنينة مقرًا له.

وفى إحدى رحلاته إليها كان من بين العبيد فتاة أعجب بها، وبدلا من بيعها فى السوق قرر الزواج منها، واصطحبها للإقامة معه فى مدينة الإسكندرية.. الفيتورى يعتز بانتمائه إلى هذه البقعة التى يعتقد بأنها غرست بداخله ملكة الشعر وعشق اللغة العربية، بعد أن حفظ القرآن الكريم وهو طفل صغير، واستمر الفيتورى يحرص على زيارة الجنينة، رغم أنها لم يكن بها مطار وكانت الرحلة إليها تستغرق عدة أيام من الخرطوم فى داخل سيارة نقل ضخمة تظل تخترق البوادى والصحارى، وفى إحدى جلساتنا روى لى مشاهد مثيرة عديدة لرحلاته المختلفة إلى الجنينة.

أغلب الناس فى دارفور مولعون باقتناء الأحجبة بكافة أشكالها ولديهم اعتقاد جازم بفاعليتها.. كل شخص عادة يحمل هذه الأحجبة فى حله وترحاله، فهى جزء من حياته، تكاليف كل حجاب تختلف وفقا لنوعه والأمر الذى يعالجه، فمثلا المتمردون يظهرون دائمًا وفى أيديهم أحجبة ضد الرصاص، وقد حدثنى أحدهم عن واقعة إطلاق نار عليه فى أحد المواقع أثناء المواجهات، ثم أشار إلى الحجاب وإلى آثار إصابة قديمة فى قدمه، قائلا إن رصاص المدفع لم يستطع اختراق ساقه، وأن السبب كان بركات الشيخ داود، الذى أعد له حجابًا يحميه من أى أذى حتى لو كان مدفعا رشاشا.. الأمر لا يقتصر على المتمردين وحدهم بل إن معظم الناس، رجالاً ونساءً لديهم أحجبة، لحمايتهم من المخاطر المختلفة فأغلب البسطاء يؤمنون بقوة السحر والقدرة الهائلة للسحرة علي صنع المعجزات.

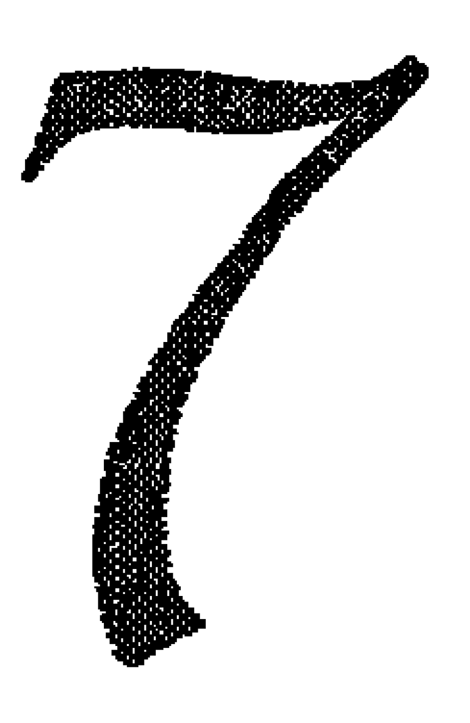
فى البادية قابلت أحد الرعاة، وسألته عن طرق الحماية من الوحوش والثعابين فى

الصحارى القفار، فأشار مبتسما إلى حجاب ملفوف بدقة وموضوع داخل قطعة من الجلد، هذا الحجاب يختص بالأفاعى، فما عليك إلا أن تضعه تحت رأسك وأنت نائم، بالتجربة ثبتت فاعليته، فإما أن تبتعد الأفاعى عن صاحب الحجاب، أو أن يستيقظ فيقتلها قبل أن تؤذيه، هكذا لدى أهالى دارفور عموما حجاب لكل نوع من المخاطر.

وما زالت الجنينة تنتظر موسم الحج لتشهد انتعاشة اقتصادية، حيث كانت فى الماضى تعيش على قوافل الحجيج القادمين من غرب أفريقيا ونيجيريا، يقطعون القارة كلها وصولاً إلى الأراضى الحجازية، إما عبر مصر، أو عبر البحر الأحمر، ،ربما تراجعت أعداد الذين ما زالوا يستخدمون هذا الأسلوب فى الوصول إلى المملكة العربية السعودية، بعد انتشار السفر بالطائرات، والوسائل الأخرى الأسهل والأقل خطرًا، لفت نظرى حرص القبائل الأفريقية على تداول أسماء بعينها، تتكرر بصورة ملحوظة فيما بينهم، منها على سبيل المثال: آدم، يحيى، إسحق، إدريس، يعقوب، زكريا، موسى، عيسى، داود، يوسف، جبريل، سليمان...

الفيتورى يفسر هذه الظاهرة بأن استمرار انتشار هذه الأسماء حتى الآن هو أحد مظاهر التأثيرات الوثنية، رغم اعتناقهم للإسلام، خاصة أن الأسماء المتداولة للأنبياء والرسل، وأن أكثرها انتشارًا أسماء أنبياء سبقوا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، كما توجد هناك تفسيرات شعبية غريبة لهذه الظاهرة، لكن الأقرب إلى الواقع أنها ترجع إلى تدين هذه القبائل وتمسكا منها بالعقيدة الإسلامية السمحة التى تؤمن بجميع الأنبياء والرسل ولا تفرق بينهم.

فى المقابل هناك قبائل أفريقية مولعة بأسماء غريبة على الثقافة العربية، لكنها ترتبط بالجذور الأفريقية، منها: «أركومناى، درو، تموا، سيخة، دريج، ديكة، كورنى، شركاى، أدود،....»، ورغم أنها أسماء غير متداولة كثيرًا، إلا أن أهم ما يميزها أن يحمل صاحب الاسم بين أسمائه لقب أحمد، إبراهيم، أو محمد.



القصة رقم ١٧ مليون

مع انفجار أزمة دارفور تمسكت الحكومة السودانية بوجود أصابع أجنبية وراء المتمردين، دليلها على ذلك السرعة التى أبداها المجتمع الدولى للتفاعل مع الأزمة وتبنى وجهة نظر المتمردين، كما رصد مكتب الإعلام الخارجى ١٧ مليون مادة خبرية (٤) جمعها موقع «ياهو» على شبكة الإنترنت، من وكالات أنباء عالمية حول دارفور حتى منتصف يوليو ٢٠٠٤ بعد شهرين من اشتعال الصراع المسلح فى فبراير ٢٠٠٣.

بينما ظلّت القناة التلفزيونيّة الداخليّة لمبنى الأمم المتحدة فى نيويورك، تبث ضمن فترات إرسالها على مدار عامين، برامج توثيقية عن معسكرات اللاجئين، وتنقل شهادات النازحين الحية يرون خلالها تفاصيل ما تعرضوا له من قتل ودمار وطرد من قراهم وكيفيّة نزوحهم المرعب نحو المجهول إلى المعسكرات.

يتخلل هذا البث شهادات العاملين فى منظّمات الإغاثة الأجنبيّة ومراسلى الصحف ووكالات الأنباء الذين تسللوا إلى تلك المعسكرات تحت هويّات مختلفة بعد عجزهم عن الدخول إليها بالطرق الرسميّة، هذه البرامج، يعدها ويشرف عليها صحفيون محترفون، عادة تكون مصحوبة بترجمة فورية إلى اللّغة الإنجليزيّة، حتى يتسنى للدبلوماسيين والمهتمين بشأن قضايا حقوق الإنسان متابعتها أثناء

وجودهم داخل مبنى الأمم المتحدة.

الفضائيات العالمية، جعلت من معسكرات دارفور، وأهلها مواد ثابتة فى برامجها، الإخبارية والوثائقيّة، مشاهد المعسكرات المأساوية رسخت انطباعات لدى الرأى العام العالمى، انعكس على شكل مظاهرات واحتجاجات شعبيّة صاخبة تفرض بدورها ضغوطا ومواقف سياسيّة، على السلطات السودانية، كانت محصلتها قرار مجلس الأمن، بتشكيل لجنة تقصى الحقائق ،حول الأوضاع فى دارفور.

منظمة هيومن رايتس ووتش،(*) أعدت عشرات التقارير التى تبدؤها بعبارة «دارفور المكان الذى تحدث فيه أسوأ انتهاكات لحقوق الإنسان فى العالم ولا تتخذ أى إجراءات لإيقافها. هذا هو التطهير العرقى على الطريقة السودانية.. حملة تشرف عليها الحكومة، يقوم بها رجال القبائل العرب على مواطنيهم الأفارقة السود، الحملة التى أطلقت أكبر أزمة إنسانية فى عصرنا وأكثر نكبة منسية - بينما عيون العالم مثبتة على العراق.. هذه الكلمات المؤثرة تمهد لكل تقارير المنظمة الدولية.

ولا تنسى «هيومن رايتس ووتش» فى كل تقاريرها أن تحمل القبائل العربية مسئولية ما يجرى من فظائع عندما تقول: «الجنجويد تلك الميليشيا العربية الرهيبة التى تمتطى الجمال والأحصنة، مسلحة بالبنادق الكلاشينكوف، والكرابيج.. يقتلون الرجال والأطفال فى سن القتال، ويغتصبون النساء - أحيانا أمام عائلاتهم - ويحرقون البيوت. يسرقون ماشية القرويين، ويحملون ممتلكاتهم المتواضعة على عربات تجرها الدواب ويمضون، يهرع الناجون إلى الحدود مع تشاد المجاورة، بحثا عن أسباب الحياة فى منطقة صحراوية قاحلة، تتهددهم الأوبئة، والمجاعة المحدقة ومزيد من الهجمات المستمرة».

إجمالى عدد معسكرات اللاجئين داخل دارفور غير معروف بالدقّة، فالإحصائيات الرسميّة تقول بأنّها ثلاثون معسكرًا لكن تقارير المنظّمات الإنسانيّة العاملة تضاعف ذلك الرقم ثلاث مرات وتقدرها بأكثر من مائة معسكر أشهرها معسكرات «كلمة» و«السريف» بالقرب من نيالا و«أبو شوك والمشتل» بالقرب من الفاشر وهى المعسكرات التى تزورها الوفود والشخصيات العالميّة.. بجانب عشرات المعسكرات المنتشرة فى الدول المجاورة للسودان.. المعسكرات تخدمها حوالى ١٤١

منظمة إغاثة عالميّة تتوزع بين وكالات دوليّة متخصصة، جمعيات إنسانيّة، ومنظّمات مجتمع مدنى، وهيئات أهليّة وشعبيّة ودينيّة تمثل أكثر من ٦٠ دولة، يصل عدد العاملين بهذه المنظّمات إلى ١٤ ألف موظف وعامل.

غالبيّة سكان المعسكرات ينتمون لقبيلة الفور، وأغلبها يقع فى مناطق الفور تحديدًا سواء فى مناطق حول نيالا، جبل «مُرّة»، وادى صالح، كتم، كبكابيّة وجبل سى، بل إنّ معسكرات بعيدة نوعًا ما عن تلك المدن مثل المعسكرات حول الفاشر يمثل الفور نسبة ٧٠٪ من سكانها، المساليت القبيلة الثانية التى تضررت بسياسات مماثلة، ذهب معظم أبنائها إلى معسكرات اللاجئين داخل تشاد. حيث تشكل قبيلتا الفور والزغاوة والمساليت حوالى ٨٠٪ من اللاجئين، بجانب أبناء القبائل الأفريقية الصغيرة الأخرى،مثل الداجو، التنجر، القمر، التاما، البرقد، البيقو، البرنو، البرقو والميما..فالأرض الزراعية، وما عليها من قرى و«حواكير»، تمثل قضيّة لا بد من حسمها مبكرًا قبل محاولة البحث عن حلول دائمة للصراع، ولذلك فإنّ اقتراحا حكوميا ببناء قرى نموذجيّة لإعادة توطين النازحين عليها، لم يلق قبولا من اللاجئين.

***

النساء والأطفال أكثر الشرائح الاجتماعية عرضة للمخاطر، نتيجة للنزوح الاضطرارى، فى أعقاب اشتعال الصراع، فقد كانوا وقودا للحريق الذى اشتعل فى دارفور.. آلاف الأطفال فقدوا آباءهم أو أمهاتهم أو الاثنين معًا. هؤلاء أصبحوا يشكلون ظاهرة داخل معظم المعسكرات، مثلا سكّان معسكر السريف بالقرب من نيالا عددهم ٢٧ ألفًا أغلبهم من النساء والأطفال، بل إنّ عدد الأطفال والصبية يفوق الـ ١٠ آلاف.

أما معسكرات مورنى ومكجر بوادى صالح فإنّ عدد الأطفال فاقدى الأبوين يبلغ ١٧ ألفًا، هؤلاء الأطفال لا يجدون مدارس أو تعليما، ويقضون أيامهم يكبرون ويستمعون إلى قصص وروايات مختلفة عن المآسى التى تعرض لها ذووهم، مما غذى بداخلهم، مشاعر الرفض والكراهية، خصوصا فى ظل غياب أى جهة وطنيّة ترعاهم سوى المنظّمات الأجنبيّة، احدى منظّمات الإغاثة، رصدت ظاهرة النمو

المبكر عند أطفال المعسكرات ..السبب فى ذلك أنّ استمرارهم فى معسكرات مفتوحة يشاهدون والديهم أو الكبار المتزوجين يمارسون الجنس.. مع تكرار ذلك أدي إلى فرز هرمون فى أدمغتهم وأجسامهم ساهم فى سرعة نموّهم الجنسى.

عمليّات اللجوء والنزوح القسرى فى الإقليم تركت مشاكل سرطانيّة مزمنة فى جسد المجتمع الدارفورى، منها تفكك البنيان الاجتماعى وتمزق الوحدة بين القبائل وتفشى التباغض والشكوك والريبة بين كافة قطاعات المجتمع بجانب الإخلال بالتوازن الديموغرافى للمجتمع وتنامى الصراع الاثنى، مقابل انحسار مفهوم الوطن والمواطنة لدى هؤلاء الأهالى وتراجع عدم ثقتهم فى الأجهزة الرسميّة للدولة.

.. تزايد الغبن والمرارات وتعاظم الشحن النفسى نتيجة الإحساس بالظلم، ازدياد الرغبة المحمومة فى التشفى والانتقام. الالتجاء للقبيلة كحصن وحيد ودرع لحماية النفس والأرض والعرض. توقف الإنتاج واعتماد الأهالى على ما تجود عليهم به منظّمات الإغاثة العالميّة بكل ما يحمل ذلك من امتهان.

***

مشاهد النساء وهن يتصارعن فيما بينهن للفوز بحفنة قليلة من الحبوب لصنع وجبات لأطفالهن الجوعى فى معسكرات فقيرة على الحدود أمر يتكرر فى العديد من المدن الكبيرة بدارفور التى نزح إليها معظم المزارعين البسطاء وسكان القرى الصغيرة بعد أن تحولت إلى هدف لنيران المتمردين والقوات النظامية؛ وذلك بحثا عن الأمان المفقود.

بعض الباحثين الأجانب ،الذين زاروا دارفور بدأوا يروجون لنظريات تحمل الكثير من المغالطات، من بين هؤلاء الباحث الفرنسى (فرانسوا ابرتون) من مركز الدراسات والوثائق الاقتصادية والقانونية الفرنسى الذى قضى أكثر من عامين متنقلا بين شمال وجنوب وغرب دارفور.

فى محاضرة بالمركز الثقافى الفرنسى بالقاهرة تحدث عن التعدد اللغوى بين أبناء القبائل الأفريقية وهذا أمر مغاير تماما لما لمسته من حرص كافة أبناء الإقليم على تعلم وإجادة العربية بطلاقة باعتبارها لغة القرآن والصلاة، مع احتفاظ

الكثير من أبناء الفور بلهجات أغلبها غير مكتوبة يتم التعامل بها بين أبناء القبيلة الواحدة، ويطلقون عليها، مصطلح «روطان» وهى لهجات مشتقة من التراث الأفريقى القديم الذى يميز كل قبيلة عن غيرها.

إحدى القبائل الأفريقية المقيمة فى محيط مدينة نيالا، يتحدث أبناؤها لهجة مشتقة من اللغة الألمانية، رغم عدم قدرتهم على كتابة هذه اللهجة إلا أنهم يجيدون العربية كتابة وقراءة. يفسر البعض سبب إجادة أهالى هذه المنطقة اللغة الألمانية إلى جذور أجدادهم المنتمية إلى بعض القبائل الأوروبية التى هاجرت من وسط أوروبا إلى أفريقيا قبل مئات السنين، وهذه الخصوصية منحت أتباع هذه القبائل أهمية خاصة من جانب المنظمات الألمانية ،كما يكشف عن سر لجوء الكثير من نشطاء أبناء الفور المعارضين إلى ألمانيا.

الباحث الفرنسى طرح العديد من الأسباب التى أدت إلى تفجر الصراع أهمها الجفاف الذى يشكل أكبر تحد لسكان إقليم دارفور خاصة الجزء الشمالى الذى تتضاعف فيه حالة التصحر؛ حيث تعرضت دارفور إلى موجتين من الجفاف على مدار ٢٠ عاما أدتا إلى تراجع المساحة المزروعة إلى أقل من ٥٪ من الأراضى القابلة للزراعة التى تقدر بحوالى٥٠ ألف فدان مقابل كثافة سكانية متصاعدة باستمرار حتى وصلت إلى ٥٠٠ نسمة فى كل كيلومتر، وهى الأكثر كثافة فى السودان.

هذا الوضع المعقد أدى بدوره إلى ظهور مجموعات مسلحة خارجة عن القانون تقوم بالهجوم على القرى، وطرد أهلها الأفارقة بالقوة منها، والاستيلاء على أراضيهم ...إبرتون روى أنه شاهد قرى ومناطق كاملة أصبحت خالية من الرجال؛ لأن قسما منهم إما اختار الانضمام إلى أحد الأطراف المتصارعة، أو غادر الإقليم بحثا عن فرصة عمل فى الدول المجاورة، وأصبحت النساء يشكلن غالبية سكان هذه القرى التى تنتشر فى المناطق الغربية لدارفور.

8

طفلة هزت العالم

فى ليلة شتاء ممطرة بداية التسعينيات من القرن الماضى لف الظلام أكواخ قرية صغيرة وسط منطقة جبال النوبة جنوب غرب السودان، وبينما يغط السكان البسطاء فى نوم عميق بعد يوم شاق من الرعى والبحث عن الرزق، فجأة دبت الفوضى وتعالى الصراخ والعويل بين السكان الذين ينتمى أغلبهم لقبيلة الدنكا الشهيرة، ثم تسلل ملثمون للقرية مخترقين السياج الشجرى الذى يحيطها.

ووسط أجواء من الرعب لم تدم سوى دقائق معدودة انتزعت أيدى الملثمين ثلاث فتيات فى عمر الزهور، وحملوهن على صهوات الجياد ثم فروا هاربين غير مبالين بتوسلات أمهات المختطفات، فى الصباح تبين أن هؤلاء ما هم إلا تجار رقيق يختارون أهدافهم بعناية ويلتقطون فتيات بعض القبائل الزنجية لبيعهن للعمل خادمات لأسر شمالية غنية.

من بين المختطفات فتاة نحيفة شديدة السمرة ذات وجه مبتسم دائما لا يزيد عمرها على ١٢ عاما تدعى «ميندى نازر» جرى بيعها للعمل فى خدمة أسرة تعمل بالسلك الدبلوماسى السودانى، ورغم أن ميندى لم تكن تعرف القراءة والكتابة ولم يسبق لها أن غادرت محيط قريتها الصغيرة بجبال النوبة إلا أنها تحولت بعد عدة سنوات إلى واحدة من أشهر القصص الإنسانية التى شغلت الرأى العام البريطانى وفجرت بقصتها ملفا مثيرا للجدل، وكشفت عملية اختطافها وبيعها ثم هروبها

من العبودية، عن استمرار تجارة الرق فى السودان، وهو ما يسبب الحرج للحكومة التى تكافح هذه الظاهرة بوسائل عديدة لكنها فشلت فى القضاء عليها.

المعاناة التى جسدتها قصة اختطاف الفتاة السودانية الجنوبية ميندى نازر والظروف الصعبة التى واجهتها أثناء عملها كخادمة للأسرة السودانية الثرية التى اشترتها طوال ثمانى سنوات حتى تمكنت من الهروب بطريقة مثيرة وألفت كتابا بعنوان «عبدة» لحساب دار النشر البريطانية «virago press» أثارت تعاطفا كبيرا فى الأوساط الغربية، ودفعت العديد من منظمات حقوق الإنسان لتكثيف أنشطتها لوقف هذه الظاهرة غير الإنسانية.

وبدت ميندى نازر فى وسائل الإعلام الأوربية، فتاة ذكية ومرحة واثقة من نفسها سرعان ما تضفى ابتسامتها إشراقة خاصة على وجهها الأسمر، غير أن شيئا من هذا لا يعكس ما أوردته فى كتابها، الذى ذكرت فيه أنها قضت ثمانى سنوات من حياتها فى الرق بعد أن اختطفت من بين أفراد عائلتها التى تعيش فى جبال النوبة بجنوب السودان.

وما إن تبدأ ميندى فى التحدث عن ماضيها(٦) إلا وتختفى الابتسامة وتغرورق عيناها بالدموع. وتحدثت مع الصحف ووسائل الإعلام البريطانية عن تفاصيل مأساتها والكوابيس التى مازالت تطاردها فى لندن رغم مرور سنوات على هروبها واستعادتها لحريتها».

وحسب روايتها بدأت مأساة ميندى عندما كانت فى الثانية عشرة من عمرها حينما استهدفها تجار رقيق أغاروا على قريتها فى إحدى الليالى، حيث انتزعوها من أسرتها لتبدأ حياة العبودية بعيدا عن أهلها فى الخرطوم شمالا، حيث كانت تجبر على العمل منذ مطلع الصباح حتى وقت متأخر فى الليل.

وتقوم بأعمال الغسل والتنظيف وكى الملابس دون أن تتلقى أى أجر أو تأخذ أجازات، وكانت تنام فى كوخ صغير فى الحديقة بعد أن يوصد الباب عليها، لأن سيدتها اعتقدت أول الأمر أنها غير نظيفة ومصابة بأمراض، بالتالى لم تكن تسمح لها بلمس الأطفال، ولكن بعد فترة أضيف إلى قائمة واجباتها اليومية رعاية الأطفال والطهى للأسرة.

كانت عادة تأكل بقايا طعام الأسرة بمفردها فى المطبخ بطريقة مهينة، حيث إن تناول الطعام فى جماعة يعد من صميم ثقافة قبيلتها فى جبال النوبة. بجانب تعرضها الدائم للضرب المبرح، وتسرد فى كتابها أنها أعدت يوما بيضا مقليا بدلا من البيض المسلوق فما كان من سيدتها إلا أن أمسكت المغرفة المعدنية من المقلاة وضربتها بها على ذراعها وهى شديدة السخونة، وظلت تصرخ فى صمت من شدة الألم.

ويتضمن كتاب عبده فصلا كاملا حول أحداث مثيرة تتعلق بطريقة هروبها من العبودية إلى الحرية عندما أنجبت شقيقة سيدتها، توأما ثم «أعارتها» السيدة إلى شقيقتها للمساعدة فى أشغال المنزل.

وتشرح ميندى أن زوجة أحد تجار العبيد قالت لسيدتها «من السهل أن نجلب لك عبدة أخرى... بينما من المستحيل أن يعثر الناس على من يقوم بتلك المهام فى لندن»، وتتابع أن «مالكيها» الجدد عادوا إلى عطلة بالخرطوم، وتركوها مع زملاء لهم، عندها أدركت ميندى أن هذه هى فرصتها فى الهرب. غير أنها لم تكن تتحدث الإنجليزية على الإطلاق كما لم تكن تدرى شيئا عن عملية اللجوء أو كيفية العيش فى مدينة مزدحمة مثل لندن، وأثناء وجودها فى شوارع لندن حاولت الحديث إلى أى شخص يبدو من ملامحه أنه من جنوب السودان.

وبعد الكثير من النظرات المستفسرة، عثرت على شخص سودانى يعمل فى جراج وكان يعرف شخصا من منطقة جبال النوبة، وتقول إنه بعد ذلك بأيام قليلة، انتظرها بعض السودانيين خارج المنزل الذى كانت تعمل فيه وقالوا لها إن الفرصة مناسبة للفرار. وتخشى ميندى العودة إلى السودان مرة أخرى، بينما تقوم أمها برحلة شاقة تستغرق نهارا كاملا على متن شاحنة من قريتها إلى أقرب بلدة تجد فيها هاتفا حتى تتمكن من التحدث إلى ابنتها.. تنتهي قصة ميندي باختيارها العاصمة البريطانية للإقامة الدائمة كلاجئة بينما تطاردها فى كل لحظة أشباح الملثمين الذين انتزعوها من بين والديها وأشقائها.

***

يتواعد زعماء قبيلتين للتصارع فى ميدان معركة بينما على مقربة منهم كل ما

يملكون من مال ونساء وأطفال وحيوانات يحيطونهم بسياج من الشوك يحرسه كبار السن الذين لا يستطيعون القتال، فإذا ما انتصر أحدهما على الآخر سبى واسترق الحلائل والحرائر، هذه هى لعبة «العُقَال» التى تعد من أهم الظواهر الاجتماعية التي يعرفها معظم سكان جنوب وغرب السودان، هذه العادة كانت سببا فى استمرار تفشى ظاهرة الرق والعبودية كظاهرة اجتماعية مازالت منتشرة فى أماكن كثيرة من السودان.

سمعت فى أماكن كثيرة همسا وغمزا بين كثير ممن تقابلت معهم فى دار فور، حيث يتردد بين شباب القبائل الأفريقية أن بلادهم كانت مصدرا للأيدى العاملة الرخيصة، حيث كان يأتى قطار خاص لاستقطاب العمال بطرق مخادعة، وسرعان ما يكتشفون هذا الخداع، عندما يصلون إلى المشاريع الزراعية، حيث يعملون تحت ظروف سيئة وبأجور زهيدة، مما أدى لوفاة الكثيرين، نتيجة لمرض البلهارسيا فى الإقليم الأوسط (الجزيرة)، بينما أجبر معظمهم على البقاء فى قراهم من دون القدرة على تحسين أوضاعهم.

وهم بذلك أصبحوا الأرقاء الجدد خصوصا أنهم ظلوا مستبعدين من بعض المؤسسات الحيوية فى مقدمتها الجيش الذى ظل كمؤسسة مماليك حربية، يتوارث فيها الأبناء عن الآباء مهنة الحرب، فضلا عن حرمانهم من دخول الكليات العسكرية، كما حرموا من الالتحاق بكلية الشرطة.

والحقيقة أن هذا الادعاء ليس دقيقا لأنى قابلت بعض القيادات القبلية تنتمى لجذور أفريقية، سبق أن شغلت مناصب أمنية فى جهاز الشرطة والجيش السودانى من أمثال اللواء عيسى جالس زعيم قبائل البرقد الأفريقية الشهيرة. وروى لى فى منزله بمدينة نيالا مشواره فى جهاز الأمن السودانى حيث أرسلته السلطات المركزية للحصول على بعثات علمية فى كل من مصر وألمانيا، ونفى لى تماما شعوره بالتفرقة بسبب انتمائه القبلى مشيرا إلى أن هذا الإحساس وهذه النبرة جديدة على المجتمع السودانى ككل، والتي تصاعدت حدتها على أيدى المتمردين لتحقيق أهداف سياسية.

مع ذلك هناك آثار لظاهرة العبودية رغم وجود منظمات أهلية فى الجنوب يعيش

القائمون عليها عبر المتاجرة بقضية «الرق» التى يهتم بها الغرب عموما والكثير من المنظمات الإنسانية فى بريطانيا وألمانيا على وجه التحديد. كما اهتمت السلطات المركزية بهذا الملف فأنشأت فى السنوات الأخيرة اللجنة الوطنية لوقف اختطاف النساء والأطفال (سيواك) ١٩٩٠م يرأسها جيمس أقوير أحد نشطاء قبيلة الدنكا الشهيرة الذى تخصص فى مجال مكافحة هذه الظاهرة ،على اعتبار أن الدنكا أكثر القبائل تضررا من استمرار الرق.

***

الغريب أن هناك اتهاما جاهزا ومسبقا يلصق دائما بأتباع قبيلة «المسيرية» العربية المستقرة فى غرب وجنوب السودان بأنها تقف وراء قنص وخطف أبناء القبائل الوثنية فى الجنوب بشكل عام وأبناء قبيلة الدنكا بشكل خاص، كما توجه إلى المسيرية أيضا تهم عديدة بشأن اختطاف الأفارقة بهدف استخدامهم فى تجارة الرق، إما بهدف دفعهم إلى اعتناق الإسلام عنوة أو لاستغلالهم فى أعمال الرعى والسخرة من دون أجر.

هناك من يعترض على الإجراءات التى تقوم بها منظمة «سيواك» بعضها أو معظمها كان من طرف واحد - باعتبار أن أطفال الجنوب ليسوا هم الوحيدون المختطفون لدى القبائل العربية فى مناطق التماس فى دار فور وكردفان فى الوقت الذى يتجاهل فيه الجميع المختطفين من أبناء القبائل العربية لدى القبائل الجنوبية.

يختلف فى ذلك كثير من أبناء السودان حيث يعتقد البعض أن مشكلة الاختطاف المتبادل عادة اجتماعية قديمة وموروثة فى أرجاء السودان الواسعة شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، بينما يفرق البعض بين اختطاف الدنكا لبنات القبائل العربية لأنهم يتزوجون بالمختطفة ويتم إدماجها مباشرة فى المجتمع فتتكلم لغة الدنكا وتعيش حياتهم، أما المُختطف الدنكاوى لدى القبائل العربية ربما يكون مصيره البيع والشراء فى سوق الرقيق أو يستخدم راعيا مجانيا للأبقار والأغنام، فى أفضل الأحوال، ولن يستطيع الزواج والاندماج بصورة طبيعية وسط القبائل العربية التى اختطفته.

ومع ذلك هناك مدن فى الجنوب استطاع فيها العرب والأفارقة التعايش بسلام بدون أثر لظاهرة الاختطاف منها مدينة «المجلد» التي يقطنها الآلاف من الدنكا والمسيرية التابعة لمنطقة الميرم ذات الأغلبية الدنكاوية.

فى الجنوب تنشط جهود المنظمات العالمية التى تعمل فى مكافحة ظاهرة الرق، هذه المنظمات أنشأت مراكز لتجميع المختطفين من أشهرها مركز تجميع الأطفال التابع لمنظمة رعاية الطفولة البريطانية بمدينة «الفولة» الجنوبية الذي يضم أطفالا من الدنكا تتراوح أعمارهم بين الحادية عشرة والسابعة عشرة تقريبا.

رغم الجهود الحكومية لمكافحة هذه الظاهرة إلا أن منظمات دولية غير حكومية كبيرة على رأسها منظمة التضامن المسيحى، والحملة العالمية ضد الرق، والمنظمة الحقوقية الأفريقية، وعدد آخر من تجمعات الجنوبيين أنفسهم تبنوا حملات إدانة مكثفة ضد السلطات المركزية فى الخرطوم.

عام ٢٠٠٤ انتقلت أزمة الرق من أحراش السودان إلى العاصمة البريطانية لندن وبالتحديد داخل أروقة جامعة أكسفورد العريقة، حيث عقد مؤتمر يناقش الظاهرة عرض خلاله أحد أبناء قبيلة الدنكا وثائق تخص ثمانية آلاف مختطف من أطفال ونساء القبيلة، بجانب صور للمختطفين تظهر كيف أن أطفال الدنكا يجرى استغلالهم كرعاة يجوبون هجير الوديان حفاة عراة، لا يجدون من الطعام ما يسدون به رمقهم أو من الماء ما يروى ظمأهم. وناشد منظمات المجتمع الدولى بدعم العمل على إنقاذ هؤلاء وإعادتهم لحياتهم الطبيعية وسط أسرهم وذويهم.

يذكر أن تقريرا لمعهد «ريفت فالى»، الذى يتخذ من شرق أفريقيا وبريطانيا مقرا له كشف فى مايو ٢٠٠١ أن أكثر من ١١ ألف شخص تعرضوا للاختطاف على مدار ٢٠ عاما من الغارات التى تستهدف جلب الرقيق فى السودان.

فى مارس ٢٠٠٢ بعثت الأمم المتحدة فريقا دوليا بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية تجول فى مناطق عديدة من السودان ضمن إطار لجان لتقصى الحقائق حول مكافحة استمرار الرق وحالات الاختطاف فى البلاد.

كما تم نشر تقرير المجموعة الدولية للأشخاص البارزين حول «العبودية والاختطاف

والعمل القسرى فى السودان» فى ٢٢ مايو ٢٠٠٢ بعد إرسال بعثة لتقصى الحقائق فى السودان؛ يتضمن التقرير، فى صفحة ٤٢ تقديرات بالعدد الكلى للأفراد الذين تم اختطافهم. وتفيد كل من لجنة القضاء على اختطاف النساء والأطفال (CEAWC) ولجنة زعماء الدنكا بأن العدد يقدر بـ ١٤ ألفًا فى حين تقول منظمة اليونيسيف UNICEF ومنظمة حماية الطفولة (المملكة المتحدة) Save the Children (UK) بأن عدد النساء والأطفال المختطفين يتراوح بين ١٠ آلاف و١٧ ألفًا.

الدكتور أحمد المفتى رئيس لجنة القضاء على اختطاف النساء والأطفال CEAWC نشر تقريراً تضمن وجود حوالى ٢٠٠٠ حالة اختطاف تم توثيقها منذ عام ١٩٩٩، ومن بين هذه الحالات تمت إعادة ٩٠٠ شخص إلى عائلاتهم، ولهذا فإن التعرف على المختطفين من النساء والأطفال يعد بطيئًا للغاية، كما أنه لم يتم تحرير سوى نسبة قليلة من العدد الكلى الذى ينتظر الإفراج عنه.

رئيس اللجنة البريطانية لديه سلطة تقديم أى شخص، متورط فى اختطاف النساء والأطفال، للمحاكمة، ولكن اللجنة تفضل حتى الآن اللجوء إلى الحلول التقليدية لمواجهة الظاهرة.

ففى عام ٢٠٠٣ قال أعضاء فى اللجنة أنهم سوف يسعون إلى حل مشكلات الاختطاف من خلال اللجان القبلية المشتركة، ولكن من المفهوم أن هذا الحل الودى سوف يكون لفترة محدودة من الوقت وبعد ذلك سيتم اللجوء إلى الإجراءات القانونية بعد أن تكون معظم الحالات قد حُسمت.

المنظمة الدولية لمناهضة العبودية طلبت من حكومة السودان عددا من الخطوات المحددة لمكافحة هذه الظاهرة أهمها التصريح العلنى بأن عمليات الاختطاف وجميع الممارسات المتعلقة بها غير قانونية، وإصدار التعديلات المناسبة على القوانين، وتطبيق القانون بفعالية. وإعطاء أولوية لمحاكمة المسئولين عن عمليات الاختطاف الجديدة كما دعت إلى إنشاء مجموعة مراقبة تعمل تحت إشراف منظمة دولية مثل مكتب الأمم المتحدة للمفوض السامى لحقوق الإنسان لمراقبة أى حوادث اختطاف وعبودية جديدة وإتاحة زيارة المجموعة بلا قيود إلى المناطق الهامة.

***

من بين القصص التى يتبادلها أهالى دارفور رواية ذكرها أحد الرحالة يقول فيها: «كان فى منزلى عدة أولاد من الذين استخلصناهم من أيدى النخاسين، ولما لم يكن للدكتور (فلنكن) خادم يخدمه، فقد اقترحت عليه أن يأخذ معه أحد هؤلاء الأولاد، فقبل ذلك مسرورًا، وأعطيته صبيًا من الفرتيت (قبائل أفريقية) يدعى (كبسون)، وكان ذكيًا؛ فعزم الدكتور على أن يربيه فى أوروبا، وبعد سنتين ونصف السنة، وأنا بالفاشر جاءنى خطاب مكتوب بالإنجليزية من كبسون هذا، يشكرنى فيه لأنى أذنت له بالسفر مع الدكتور «فلنكن» إلى (بلاد كل من فيها طيب القلب رءوف)، ويقول إنه تنصّر، وإنه أسعد الأولاد، وأرسل مع الخطاب صورته فى ملابس إفرنجية».



اللون الأحمر يسيطر على الجبل

الأفكار الشيوعية التى تملأ رأس المحامى الشاب عبد الواحد محمد نور مؤسس وزعيم حركة تحرير السودان، كانت دائما عائقا فى علاقاته مع معظم الحكومات العربية، لذلك كان يقدم زميله وأمين عام الحركة منى أركو مناوى فى نقل رؤية الحركة للعواصم العربية، بينما فضل أن يكثف علاقاته بالقادة الأفارقة خصوصا، إريتريا، وكينيا التى اختارها مقرا شبه دائم لزوجته وأطفاله.

نشأ عبد الواحد فى أسرة بسيطة، فى مدينة زالنجى القريبة من نيالا فى جنوب دارفور ، فهو ينتمى إلى قبيلة الفور، من مواليد ١٩٦٩م، تلقى كل مراحل تعليمه الأساسى والثانوى فى زالنجى، ثم اتجه إلى الخرطوم بعد التحاقه بكلية الحقوق بجامعة الخرطوم، وتخرج فى عام ١٩٩٣م.

عمل محاميًا فى مدينة زالنجى لعدة سنوات، إلى أن تزعم حركة تحرير السودان قدم طرحًا سياسيًا فى غاية الوضوح، أساسه بناء سودان جديد يقوم على المواطنة وفصل الدين عن الدولة. مع بداية عام ٢٠٠٢، منذ إنشائها نشطت ميليشياته المسلحة فى جبل «مُرة» ثم التحق بجنوب السودان ووصل كينيا ثم إريتريا.

فى يونيو ٢٠٠٤ أعلن بعض أعضاء حركة تحرير السودان عزله هو ورفيقه «منى» من منصبيهما وفق قرار صادر عن مؤتمر ضم ٥٦٠ من كوادر الحركة السياسية والعسكرية.. المؤتمر عُقد فى وادى هوار شمال دارفور، لكن هما لم يعترفا بهذا

القرار ونجحا فى بقائهما زعيمين للحركة، عبد الواحد يحرص دائما على ترديد أنه فى الأصل مقاتل، يحمل روحه على كفه، ينتظر الموت أو الاغتيال فى أى لحظة، فإنه زعيم هذه الحركة، ومؤسسها، تأثر كثيرا بإعدام ابن قبيلته المهندس يحيى بولاد على الرغم من اختلاف مرجعيتهما السياسية، فبولاد ذو مرجعية إسلامية بينما عبد الواحد، مرجعيته ماركسية.

الحركة عرفت فى البداية باسم «جبهة تحرير دارفور» وكانت عضويتها مقصورة على بعض أبناء قبيلة الفور ثم أطلقت على نفسها الاسم الحالى فى ١٤ مارس ٢٠٠٣، بعد تفجر الصراع المسلح فى الإقليم، وفتح باب الانضمام للحركة أمام أبناء باقى القبائل الأفريقية خاصة الزغاوة والمساليت.

***

الحضور العسكرى للحركة برز فى انتزاع بلدة «قولو» غرب دارفور من أيدى القوات الحكومية نهاية فبراير ٢٠٠٣، كما احتلت بلدة «الطينة» على الحدود التشادية نهاية الشهر التالى.

يقلل عبد الواحد من أهمية انشقاق الحركة، ويعتبر أن عروض الحكومة فى المفاوضات معهم لا تلبى الحد الأدنى من مطالبهم، ويرى أنه لا سلام فى الإقليم دون أن يحصل أبناء دارفور علي حق العيش فى إقليم واحد غير مجزأ وإزالة التهميش. وحصولهم على منصب نائب رئيس الجمهورية وتمثيل شعبى فى كل مستويات الحكم وفى أجهزة الدولة التنفيذية والتشريعية وفق نسبة السكان، وهذه مطالب موحدة لكافة الفصائل، لكن يزيد عبدالواحد عليها بإدخال اللغات واللهجات المحلية فى مناهج التعليم فى المنطقة أسوة باتفاقات الجنوب، وجبال النوبة، فضلا عن منح ميليشياته دورا أمنيا فى الإقليم.

فى إحدى المحطات الهامة للمفاوضات رفض التوقيع على اتفاق السلام مع الحكومة بينما وقع أمين عام الحركة، وانقسمت حركة تحرير السودان فاتهمته الصحف السودانية الرسمية، بأنه تلقى رشاوى من اريتريا مقابل موقفه، لكنه يدافع عن الرفض بأن التوقيع بالصيغة التى قدمها وفد الحكومة لن يحقق السلام للإقليم.

وربما يحقق المنفعة الشخصية له.. فى تلك الأثناء تعرض عبد الواحد لضغوط لا حصر لها، وتلقى مكالمات هاتفية من ١٨ زعيما عالميا ووزراء خارجية ومسئولين كبار من بينهم تونى بلير وكوندوليزا رايس وخافيير سولانا وتسلم رسالة شخصية من الرئيس الأمريكى بوش.

رفض كل هذه الضغوط قائلا: «لا أريد سلاما ناقصا لشعبى، وقلت لهم: أنا مقاتل من أجل الحرية ومن أجل حقوق أبناء دارفور، ولا يمكننى أن أوقع على أى وثيقة ما لم تتضمن هذه الحقوق، أنا أتمتع بقاعدة عريضة ولدى القدرة على أن أكون رئيسا للجمهورية وأحارب من أجل هذا.. ليس هذا لأنانية فى نفسى، لكن لخلق سودان جديد يكون لدى أى مواطن فيه الحق فى أن يكون رئيسًا للجمهورية من خلال المنافسة الحرة الشريفة».

***

ربما كان منى أركو مناوى أكثر قادة التمرد وضوحا فى الرؤية، رغم أن انتماءه لقبيلة الزغاوة التى تتمتع بنفوذ قوى داخل تشاد جعل من السهل اتهامه بالتنسيق مع الحكومة التشادية لاستمرار أعمال التمرد ضد الحكومة المركزية فى الخرطوم لكنه يدافع عن ذلك دائما بأن لدى تشاد أكثر من ربع مليون لاجئ من أبناء قبيلته فكان عليه واجب رعايتهم وتسهيل وصول المعونات إليهم بشكل دائم.

عموما مناوى يتمتع بشعبية كبيرة يستمدها من نفوذ عائلته القبلى.. مناوى لم يتردد فى إعلان أن اتفاقية السلام مع الجنوب وتحديدها الواضح لتقسيم الثروة والسلطة بين الشمال والجنوب كانت دافعا رئيسيا فى تحرك أبناء دارفور للمطالبة بحقوقهم أيضا.

وكان له موقف واضح من مسألة الجنجويد، فلم يندفع وراء ترديد الاتهامات للقبائل العربية بأنهم جنجويد يرتكبون كل الأعمال الإجرامية كما جرى من بعض قادة التمرد الآخرين بل حرص مناوى على أن يحدد موقفه بأن القبائل العربية جزء أساسى من أبناء دارفور، وأن الجنجويد هم الميليشيات المسلحة التابعة للحكومة بمن فيها من العرب ومن يطلقون عليهم «الكسابة» أو استخبارات الحدود.

كما كان مناوى متحفظا على مسألة الوجود الدولى فى دارفور وأبرز الرافضين لنشر ١٠٠ ألف جندى تابعين للأمم المتحدة لحفظ السلام فى جنوب السودان، ربما مواقف منى أركو المرنة ساهمت كثيرا فى انتقاله من صفوف المتمردين إلى العمل السياسى الشرعى، ومع ذلك ظل يتمسك بموقفه فى الدفاع عن حقوق أبناء دارفور فى اقتسام عادل فى الثروة والسلطة.

10

القرآن.. دارفور

تحت ظل الأشجار، فى أكواخ بسيطة، وعلى ألواح خشبية، يرسم أطفال صغار نحاف الجسد، صورة بديعة، لبقاء القرآن وتغلغله فى نفوس أهالى إقليم دار فور، ففى خلاوى اشتهر بها الإقليم، تحولت مدنه إلى قبلة للقادمين من أعماق القارة السمراء، بحثًا عن وسيلة لحفظ القرآن، وسعيًا وراء تجويده وتعلم أصول تلاوته.

رغم أن الصراع المسلح بين المتمردين والحكومة، طغى على باقى أوجه الحياة الثقافية والاجتماعية فى إقليم دارفور أحد أهم أقاليم السودان، الذى عرف فى الماضى بموطن الفقهاء والطعام، نظرًا لكثرة عدد حفظة القرآن الكريم، وخصوبة الأرض التى تنتج مختلف المحاصيل الزراعية، فى مقدمتها الذرة والقمح، بجانب الثروة الحيوانية الضخمة.

دارفور يعتبر البوابة الحقيقية لدخول الإسلام، وانتشاره فى أفريقيا.. الحقيقة التى غابت فى زحمة الصراع الجارى، بين سكان الإقليم أن جميعهم من المسلمين السنة.

مواطنو الإقليم اعتادوا علي نمط حياة ألفوه منذ دخولهم الإسلام طوعًا فى القرن الثالث الهجرى؛ فقد وجهوا جهودهم لحفظ القرآن وتلاوته، واشتهروا بكثرة الحفاظ، ودأب سلاطينهم المتعاقبون على إقامة الخلاوى دليلاً على صلاحهم، والاحتفال من وقت إلى آخر بألف حافظ وحافظة للقرآن.

الخلاوى تقام عادة بالجهود الذاتية، أو أن يتولى أحد الأثرياء مهمة الإنفاق

عليها، أو تعتمد على مساعدة رمزية من الجيران والقادرين، والنموذج على ذلك خلوة الشيخ موسى التى تعد أشهر وأكبر خلاوى نيالا، فهى تنقسم إلى قسمين:

الأول: خلوة خارجية مخصصة لاستقبال أبناء المدينة والأحياء المجاورة.

والثانى: خلوة داخلية مخصصة لاستقبال الطلاب المغتربين القادمين من البادية والقرى النائية، حيث يقيمون بشكل دائم داخل عنابر مخصصة لهذا الغرض، ويتولى الشيخ مسئولية تحمل جميع نفقات طلاب القسمين حيث يعد التعليم فى الخلوة مجانيًا تمامًا مما يشجع الآباء على إرسال أبنائهم لحفظ وتجويد القرآن.

***

لا توجد مدد محددة للدراسة بالخلوة، وإن كانت تتراوح فى الغالب بين ست وثمانى سنوات، منذ التحاق الطفل بها، من سن الخامسة، ويحق لمن تجاوز هذه السن الالتحاق بها أيضًا، فقد يدخلها من تجاوز الخمسين -مثلاً- إذا كان راغبًا فى حفظ كتاب الله.

وعادة ما تسلم الأم ابنها للشيخ قائلة: «أدبه واضربه إن كذب.. يا مولانا»، وبعد قبول الشيخ له يسلمه لـ«العريف»، وهو مساعده الذى يُعلم الابن القراءة والكتابة، وبمجرد اعتماده على نفسه يعيد تسليمه للشيخ.

يبدأ طلاب الخلاوى- عادة- بحفظ القرآن، فإذا أتقنوه درسوا العربية، وتبحروا فى علومها وآدابها، قبل أن يتفرغوا للعلوم الشرعية، وبعد أن يبلغ الطفل مرحلة «الشرافة» فى القرآن، أى حفظ ربع القرآن وما فوق، يلبس ثيابًا جديدة، ويزين لوحه، ويخرج فى زفة مع أقرانه ليطوف على أهله وجيرانه فرحًا بما أنجز، فيعطون لشيخه كل بحسب سعته من المال.

نظام التحفيظ فى الخلاوى يقوم على القراءات السبع المتواترة، برواياتها المختلفة، خصوصًا روايتى حفص عن عاصم وورش عن نافع، والأخيرة يعتقد عدد غير قليل من شيوخ الخلاوى أنها رواية أهل الجنة؛ لأن أهل المدينة المنورة يقرءون بها.

يوم الطلاب- بخلوة الشيخ موسى الداخلية- يبدأ قبل صلاة الفجر، حيث

يبدءون القراءة بعد صلاة الفجر، ثم يتناولون إفطار الصباح حتى العاشرة، وبعد الظهر يتم تصحيح الألواح ومراجعتها «العرضة»، ثم يعاود الطلاب بعد صلاة العصر والمغرب القراءة حتى وقت النوم، ويستمر الكبار فى القراءة ليلاً.

بينما تعكس الأذكار الجماعية التى عادة ما يختتم بها الطلاب صلواتهم بلغة ولهجة واحدة قدرة الخلوة على صهر الألسنة المتباينة فى السودان فى لسان واحد؛ باعتبار أن الخلوة هى البوتقة التى اجتمعت فيها المجتمعات المحلية المتباينة فى ثقافاتها ولغاتها وعاداتها وتقاليدها وعقائدها وقيمها.

طلاب الخلوة العادية يأتون من الثامنة صباحًا حتى صلاة الظهر، ثم يعودون للحفظ والقراءة حتى صلاة العصر، بعدها يعودون إلى بيوتهم استعدادًا ليوم جديد، ولا يقتصر التعليم فى الخلاوى على الذكور بل للإناث، حيث خصص الشيخ موسى مقرًا أطلق عليه «دار اليافعات» لتحفيظ القرآن، ولا تشترط أية شروط للالتحاق بها، وتتولى فاطمة (ابنة الشيخ) الإشراف على الدار التى يصل عدد طالباتها إلى ١٠٠ طفلة، بجانب ٣٠ سيدة وأم، حيث يمكن أن تذهب الأم وطفلتها إلى خلوة تحفيظ القرآن فى الوقت نفسه.

الطلاب الذين يدرسون فى الخلاوى يطلق عليهم اسم «الحيران» تأثرًا بالبيئة السودانية؛ إذ إن «الحوار» هو ابن الناقة الذى يتعلق بها من مولده إلى فطامه، وهكذا يريد الآباء لأبنائهم فى علاقتهم بمشايخهم، فهم يقرءون كل يوم القرآن، ويلتفون فى دائرة شبه كاملة تقطعها حصيرة الشيخ الذى يرد مصححًا أو مكملاً لتساؤل كل طفل فى حضور ذهنى فريد.

عندما ينتهى «الحيران» من عرض ألواحهم، يقومون بمسحها فى مكان لا تدوسه الأقدام، والبعض يغسلها فى حوض خاص، ويتناول مياهها بغرض العلاج اعتقادًا منه بأن القرآن شفاء من كل الأمراض، خاصة أن الأحبار التى يكتبون بها مصنوعة من الصمغ وأعشاب محلية غير ضارة.

وتوضع الألواح فى مكان مرتفع تكريمًا لمكانتها، وهى من جملة الآداب التى يتعلمها طلاب الخلاوى، وتشمل احترامًا وتقديرًا خاصًا للشيخ وللكبير وتعاونًا رائعًا بين الطلاب فى العمل، فمنهم من يحضر ماء الشراب، ومنهم من يتكفل

بمياه الوضوء، ومنهم من يتولى تنظيف الخلوة من التراب.

يرتدي طلاب الخلاوى الأبيض من الثياب، اقتداءً بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، الذى لم يكن يحب أن يرى قارئ القرآن إلا فى ثوبه الأبيض، ومن حق الشيخ على الطالب إذا أتى مجلسه أن يسلم على القوم ويخصه بالتحية دونهم، وأن يجلس أمامه، ولا يشير عنده برأى، ولا يغمز بعينيه، ولا يقول له قال فلان خلافًا لقوله، ولا يغتاب عنده أحدًا، ولا يعرض عن صحبته، فإنما شيخه كالنخلة، وعليه أن ينتظر أن يسقط له منها شىء.

يساعد الطلاب شيخهم فى مزرعته التى هى وقف للخلوة، وربما تمتد مساعدتهم إلى أهالى القرى المحيطة فى روح من التعاون النادر، كما يتعاون الأهالى فى التبرع للخلاوى سواءً بالحليب أو بالقمح والذرة وغيرها، ما يعتبرونه صدقة جارية، وهم سعداء فرحون بعملهم، وقد أوقف الشيخ موسى بعض الأملاك للإنفاق من ريعها على مجمع الخلاوى مدى الحياة.

شيخ الخلوة يكتسب هالة وقدسية خاصة أسبغها عليه تفرغه وانقطاعه للقرآن وهجرانه الدنيا لتعليمه وتحفيظه، فإذا طلب الإبريق جاءه مملوءًا بالماء، وإذا طلب السراج جاءه مُضاءً، وهو ذو حيثية كبيرة بين أهل القرى المحيطة الذين يتوسمون فيه الصلاح والخير والعدل.

وقد كان الشيخ فى الماضى يقوم بدور القاضى الذى يقضى بين المتنازعين، والمجير الذى يستجير به المظلوم والخائف، وتتناقل الناس روايات كثيرة عن مشايخ الخلاوى وكراماتهم التى تصاحبهم فى الدنيا وحتى عند الوفاة.

ويقول «كويس آدم» ذو التسعة والثلاثين عامًا، والمعلم الأول فى خلوة الشيخ موسى: «إن المحفظ يكون طالبًا، ثم بعد أن يتم حفظ القرآن الكريم وتفاسيره يكون أمام أمرين: إما أن يحصل على منحة من مصر أو السعودية لاستكمال دراسته فى الأزهر أو جامعة أم القرى، وإذا لم تتح له هذه الفرصة فليس أمامه سوى العمل فى الخلوة نفسها أو فى خلوة أخرى، وهناك من ينشئ خلوة لنفسه، خاصة لو كان من سكان القرى البعيدة».

ويضيف: «تصاعدت أهمية الخلاوى واشتعلت جذوتها فى السنوات الأخيرة، بعد قرار الرئيس السودانى عمر حسن البشير بمساواة خريجيها بحملة المؤهلات العليا لرد الاعتبار لحفظة القرآن الكريم، وقد كانت شهادتها من قبل لا تحظى بالاعتراف الرسمى، كما أنشأ جامعة خاصة بالقرآن وعلومه تشترط بشكل أساسى أن يحفظ المتقدم لها القرآن كاملاً أو نصفه أو ثلثه».

على سبيل المثال: ففى خلوة الشيخ موسى تم تطوير نظام التعليم بها، فعند إنشائها بداية عام ١٩٧٠م كان الهدف تحفيظ القرآن وعلومه، ثم تطور الأمر إلى تعليم الفقه بفروعه المختلفة، واللغة العربية وآدابها، بجانب بعض العلوم الدنيوية، وفى عام ١٩٨٠م قرر الشيخ إنشاء مجمع معاهد أزهرية لتدريس المناهج التربوية بجانب علوم القرآن بهدف تأهيل طلاب الخلاوى لاستكمال الدراسة فى مختلف الجامعات والمدارس، وتم تخريج ٩ دفعات تضم حوالى ٢٠٠ طالب، حتى الآن، والمجمع فى توسيع وتطوير مستمر.

كويس آدم كشف عن وجود مصاحف داخل مكتبة الخلوة كتبتها سيدات من أهالى نيالا، بعضها يزيد عمرها على ١٥٠ عامًا، فضلاً عن مخطوطات أخرى نادرة فى علوم مختلفة، مازالت موجودة يطلع عليها طلاب الخلوة ويستفيدون من محتواها العلمي فى دراساتهم المختلفة.

المشهد اللافت أن الكثير من تلاميذ الخلوة المبتدئين يفترشون الأرض، ويرددون خلف معلمهم قصار السور، بينما يتعلمون الكتابة بالحفر على التراب بأصابعهم، ويظلون على هذا الحال في العام الأول، بعدها ينتقلون إلى التعليم بالكتابة على الألواح الخشبية، وبالرغم من الفقر والظروف القاسية التى يواجهها طلاب الخلاوى فإنه يبرز من بينهم نوابغ يستطيعون حفظ وتجويد القرآن وتلاوته بصوت عذب مؤثر فى سن مبكرة.

طلاب خلاوى الشيخ موسى أكثر حظًا من غيرهم المقيمين فى البادية والقرى النائية، حيث لا يجدون خلوة تؤويهم، فيفترشون الرمال تحت ظل شجرة فى البادية، لتكون مقرًا لخلوتهم القرآنية، فمعظم الخلاوى المنتشرة فى أنحاء دارفور تُبنى من القش وجذوع الأشجار، وسعف النخيل، فلا هى تقى الحيران من برد

الشتاء، ولا تمنع عنهم حرارة الصيف.

انتشار الخلاوى مشهد متكرر فى طول دارفور وعرضها، مع اختلافات بسيطة فى الشكل والإمكانات؛ ففى المدن تكون الحال أفضل عن القرى والبوادى، رغم حرص أبناء معظم القرى المحيطة على تزويد الخلاوى بالغلال والحبوب ومنتجات الألبان التى تصل إلى الخلوة كهدايا.

***

الظروف الاستثنائية التى يعيشها أبناء دارفور حاليًا لم تعوق نشاط الخلاوى.. فقد كان لافتًا أن الخلاوى مطلب أساسى للمواطنين فى معسكرات اللاجئين ليتمكن أبناؤهم من مواصلة حفظهم للقرآن، بل وجدنا فى معسكر «أبو شوق» فى مدينة الفاشر بشمال دارفور مسابقات لحفظ القرآن تُجرى بين طلاب أكثر من ٥٠ خلوة صغيرة داخل المعسكر، تشرف عليها بعض الجمعيات الخيرية المحلية.

لقد اعتاد أبناء اللاجئين أن تظل خلاوى تحفيظ القرآن مرافقة لهم حتى فى ظل الأوضاع الصعبة التى فَرَضَت على ربع السكان أن يعيشوا بصفة مؤقتة فى معسكرات اللاجئين!

يعود الفضل للخلاوى فى الحفاظ على العروبة والإسلام، وسط مجتمع تتقاذفه أنواء الزنجية والمسيحية والوثنية، يعانى التمزق بين لهجات قبلية واثنية عديدة، الحجرات الضيقة ذات الدور الواحد والمشيد أغلبها من الطوب اللبن قامت بصد جميع محاولات التبشير التى استهدفت أهالى دارفور عبر عشرات السنين.

الإقليم ظل معزولا عن العالم لمدة ١٧ عامًا، من حكم السلطان على دينار، الذى رفض وقاوم الخضوع للاحتلال البريطانى، تلك الفترة كانت السلطنة تعيش فى عزلة تامة، ولم يتمتع أغلب أبناء الإقليم بالحق فى التعليم، كما لم تعرف المدارس النظامية طريقها إلى دارفور فى هذه الفترة، مما ضاعف من أهمية الخلاوى، التى كانت الوسيلة المتاحة لأبناء البسطاء والمعدمين، هذه الفترة تركت آثارها السلبية على مصير أبناء دارفور، الذين مازالوا يعانون منها حتى الآن.

ظهور الخلاوى فى السودان عمومًا يرجع إلى فترة حكم الشيخ «عجيب

المانجلك» (١٥٧٠ - ١٦١١م)، كحل وسط لسيطرة تيارين دينيين على السودان فى تلك الحقبة، فقد كانا من علماء المذهب المالكى الذين يرفضون تعليم أو صلاة الصبية فى المساجد، وشيوخ الصوفية الذين يميلون إلى الاختلاء بالنفس مع الله بعيدًا عن الناس.. الخلاوى بُنيَت كبيوت ملحقة بالمساجد ومنعزلة عنها فى بداية ظهورها، ثم انتشرت فى الأطراف، وعلى حواف القرى بامتداد نهر النيل أو فى بطون الجبال، فتنتشر فى مدينة نيالا الخلاوى بكثافة لتصل أعدادها إلى المئات، بعضها قديم والآخر، نشأ ضمن مجمعات تعليمية دينية متكاملة.

١١

البترول الملعون

فى منتصف يوليو عام ١٩٧٩، وقف الرئيس السودانى الأسبق جعفر نميرى، فى مؤتمر جماهيرى نقله التليفزيون الوطنى، وغمس قلمه فى زجاجة مليئة بالنفط، فانطلقت الزغاريد، كأنها تبشر بعوائد نفطية تجلب الخير وتخفف الفقر عن السودانيين الذين انتظروا هذه اللحظة طويلاً، على أيدى خبراء أمريكان.

لكن الفرحة ولدت منقوصة، فالسنوات التى تلت هذا المشهد كانت دامية، ففى ١٩٨٣، فجر الضابط الجنوبى «جون جارنج» الحرب الأهلية فى الجنوب.. كأنه مارد خرج من باطن الأرض مع زيت البترول، حول مناطق كثيرة إلى مستنقع من الدم، المؤكد أن ما يجرى فى دار فور الآن أحد أغلى فواتير الحرب الأهلية.

الحقيقة، أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تراقب انفجار البترول فى أرض السودان، وهى ليست بعيدة تماما عن رسم ملامح تلك الحرب، واشنطن باعت أسلحة متطورة لحكومة السودان بينها طائرات «إف ٥» عبر وساطة شركة شيفرون المعنية بالتنقيب عن البترول.

التمرد فى دارفور ربما تغذيه قوى خارجية تسعى للبحث عن حصة فى الثروة النفطية بهذه المنطقة الممتدة من غرب السودان إلى شاطئ الأطلنطى عبر صحراء تشاد ونيجيريا.

الدكتور عوض الجاز وزير النفط السودانى، نفى أن تكون منطقة دار فور غنية

بالنفط، وأن المعادن الأخرى مازالت قيد التنقيب، وأن وجود الثروات المعدنية لا يمكن أن يكون سببا فى اشتعال التمرد.

نفط السودان كانت بدايته على أيدى خبراء «شركة التنقيب الأمريكية الشهيرة «شيفرون» وثيقة الصلة بالإدارة والمخابرات الأمريكية. ففى عام ١٩٧٩م استحوذت «شيفرون» على امتياز للبحث عن النفط فى مساحة بلغت مليون كيلو متر، تبدأ من سواحل البحر الأحمر شرقا إلى حدود تشاد غربًا حتى حدود أوغندا جنوبًا..الشركة حفرت خلال تلك الفترة قرابة مائة بئر فى مختلف أنحاء السودان.

فى هذا الوقت كان السودان حليفًا جديدًا لأمريكا بعد تخلى الرئيس جعفر نميرى عن المعسكر الاشتراكى، نميرى كان يسير فى أقصر الطرق إلى الازدهار السريع، بينما كانت واشنطن تسعى لوضع يدها على مخزون النفط، أما بالنسبة للسودانيين فقد كان استخراج النفط بمثابة ملحمة وطنية لإخراج البلد من البؤس والديون.

***

شيفرون حاولت أن تدخره كمخزون استراتيجى فى باطن الأرض السودانية حتى تهدأ منطقة الخليج التى كانت تغلى فى ذلك الوقت، مما دفع السودانيين إلى الاتجاه شرقا نحو التنين الصينى الذى كان يخطط لاختراق القارة السمراء، فالتقط الخيط وجعل من السودان بوابته الحقيقية إلى أفريقيا.

فى عام ١٩٨٩ ومع وصول الجبهة الإسلامية للإنقاذ إلى السلطة، وقبولها استضافة أسامة بن لادن على أرض السودان، قررت شيفرون تجميد نشاطها فى نفس العام وفرضت الإدارة الأمريكية على السودان عقوبات عسكرية بتهمة رعاية الإرهاب.

تركت شيفرون وراءها مقبرة هائلة من المعلومات الجيولوجية والنفطية، وعددا كبيرا من الآبار المختومة بالخرسانة، على أمل العودة للسودان مرة أخرى، بينما وفى عام ١٩٩٦ انقلب اليأس إلى أمل بعد توقيع اتفاق منح امتيازات التنقيب مع الشركة الوطنية الصينية للبترول، مع وصول الصينيين أصبح الحلم حقيقة، ودقت ساعة الفرح الكبير، لقد استخرجت الصين النفط لأول مرة بكميات تجارية من حقول «هجلج».

فى عام ١٩٩٩ اكتمل الإنجاز، فقد مد الصينيون خط الأنابيب الأول لإيصال البترول إلى موانئ البحر الأحمر ذلك الخط الذى وعد به الأمريكيون ولم يفوا به ..جبهة الإنقاذ كانت فى أوج تماسكها قبيل انقسامها المفاجئ.. كانت فرحة الترابى عارمة فهو مهندس فكرة التوجه شرقا باسم صيانة الثروة الإسلامية فى وجه الحصار الأمريكى.

فى السنة التالية دمرت الصواريخ الأمريكية مصنع الشفاء للأدوية فى الخرطوم بتهمة تصنيع أسلحة كيماوية، فى تلك الأثناء كان الرئيس الأمريكى بيل كلينتون يجوب وسط أفريقيا، وشرقها يدعو لتشكيل حلف من قادة دول الجوار السودانى ضم أوغندا وكينيا وأثيوبيا والكونغو ودولا أخرى.

كان على رأس الأجندة الأمريكية دعم تمرد الجنوب والإطاحة بالنظام فى الخرطوم، لكن الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن بادر إلى تعيين السيناتور «جون دامفورس» مبعوثًا للسلام فى السودان، وألقت الإدارة الأمريكية بثقلها الدبلوماسى وراء الجنوبيين بعد أن كانت قد سلّحت الحكومة السودانية ضدهم فى السابق.

إستراتيجية الديمقراطيين طيلة التسعينيات كانت تقوم على تغيير النظام فى السودان، لكن كل المحاولات لم تنجح.. فجاء الجمهوريون بخطة جديدة تقوم على أساس الحوار مع الحكومة السودانية بغرض تذويبها ذاتيًا، من خلال توقيع اتفاقية «نيفاشا» فى يناير من عام ٢٠٠٥م.

كان أهم بنود الاتفاقية اقتسام عائدات النفط مع الجنوبيين، وإشراكهم فى السلطة المركزية، إضافة إلى حق سكان الجنوب فى تقرير مصيرهم بعد ست سنوات، وأخيرًا التقى الشمال والجنوب على السلام للمرة الأولى منذ أربعة وثلاثين عامًا، وهذه المرّة كان النفط أهم عوامل توحيد السودان.

بعض السودانيين يرون أن «نيفاشا» تعد انقلابًا حقيقيًا فى أوضاع البلد بوضعها الأسس لعودة أمريكية هادئة عبر البوابة الجنوبية، مؤشر على قرب إخراج الصينيين من جنوب السودان، لكن البعض الآخر يظن أن الانقلاب الأكبر هو أن اتفاقية السلام ربما تكون بداية لتجريد شمال السودان من معظم حقول النفط المعروفة حتى الآن، ذلك أن غالبية الاحتياطيات النفطية الضخمة التى تأكد

اكتشافها تقع فى الجنوب وإذا صوّت الجنوبيون للانفصال عام ٢٠١١ سيأخذون معهم معظم الثروة النفطية.

التداخلات العرقية والقبلية على طول الحدود مع جيران السودان التسعة، ساهمت فى إضعاف الحكومة المركزية، كما أغرى اتساع مساحة السودان بعض جيرانه بمحاولة اقتطاع أجزاء كبيرة من أراضيه.

***

كينيا استولت على مثلث «المى» وهى منطقة ضخمة، وغنية بالموارد، المزارعون الأثيوبيون وضعوا أيديهم على سهول «الفشقة» الخصبة، وهكذا... فإن حدود السودان التى تزيد على ستة آلاف كيلو متر غير مخططة ومتداخلة بصورة عشوائية، كانت سببًا فى توزيع القبائل السودانية على الكثير من دول الجوار، فضاعفت من الأعباء على حكومة الخرطوم.

أما الأصابع الليبية التى عبثت كثيرًا فى تلك المنطقة، فيمكن إرجاع سبب حرصها على التواجد بالسودان إلى تحقيق أهداف مختلفة، أهمها الخلاف بين العقيد القذافى والرئيس أنور السادات، الذى نتج عن زيارة الأخير إلى تل أبيب عام ١٩٧٧م، وتوقيع مصر على معاهدة السلام مع إسرائيل ١٩٧٩م، فقد حاول القذافى إثارة المشاكل مع مصر، بوسائل عديدة، الأمر الذى وصل إلى حد الاشتباكات المسلحة على الحدود.

وعندما يئس القذافى اضطر إلى البحث عن جلب المتاعب للسادات عبر وسيط استراتيجى وحيوى تمثل فى السودان، لكن تحطمت خطط العقيد على صخرة التحالف السياسى الذى وقعه السادات مع الرئيس السودانى الأسبق جعفر نميرى، فلم يكن أمام العقيد الليبى إلا ورقة المعارضة.

الخطة الليبية قامت على أساس استمالة زعيم حزب الأمة الصادق المهدى، الذى كان يقود معارضة قوية ضد نظام نميرى.. ليبيا قررت تمويل خطة لقلب نظام الحكم بالتحالف بين المعارضة وقادة بالجيش، تسللوا عبر دارفور فى نهاية حكم نميرى.

الخطة الليبية فشلت وأدى انكشافها إلى ذروة التوتر فى العلاقات السودانية الليبية، فالتفت القذافى إلى جون جارنج قائد التمرد فى الجنوب، استضافه فى طرابلس، وزوده بكميات ضخمة من السلاح والمؤن، كما فتح الأراضى الليبية لتدريب قوات الجيش الشعبى لتحرير السودان الذى تزعمه جارنج.

ثم تحول الموقف الليبى من دعم جارنج بعد سقوط نميرى، ووصول ثنائى «البشير- الترابى» إلى سدة الحكم فى الخرطوم، فدخل معهما فى تحالف وصل إلى فتح الحدود وإلغاء تأشيرات الدخول لمواطنى البلدين ثم بدأت ليبيا مرحلة جديدة لدعم الإنقاذ فى حربها للجنوب.

فى هذه الأثناء كانت العلاقات المصرية السودانية فى توتر مستمر، وصل إلى حد الصدام المسلح فى أعقاب محاولة اغتيال الرئيس حسنى مبارك فى أديس أبابا صيف ١٩٩٥م، على أيدى عناصر متطرفة تلقت تدريبها فى معسكرات داخل الأراضى السودانية.

وهكذا فإن منطقة الحدود عند دارفور ظلت على مدى نصف القرن الأخير مسرحًا لأحداث سياسية ساخنة، وشاهدًا على مدى التحولات فى سياسات العلاقات بين حكام السودان وليبيا وتشاد، وكأن قدر السودان أن يكون مسرحًا فريدًا لصراع القوى، فهناك نقاط صِدام كثيرة فى مصالح الدول الغربية وأيضا العربية، تجلت مظاهره بوضوح فى مسألة دارفور.

12

الحادثة

هكذا يبدو منظر البادية من نافذة مروحية روسية.. بقع مستديرة من مياه الأمطار تلتف حولها مئات من قطعان الماشية، تجاورها واحات خضراء، تغلفها جميعًا مساحاتٌ واسعة من الرمال الصفراء والجبال الحمراء، تضاريسها الصعبة لا يعرفها سوى الرعاة، يتنقلون ويتعايشون بينها فى سهولة، بلا معاناةٍ ولا خوف.

من بعيد يبدو منظر جبل مَرة الشاهق الارتفاع جميلا، تكسوه الخضرةُ، وتغطى كلَ جوانبهِ، حتى يظهر من بعيد كأنه كتلةٌ خضراء، طلبت من قائد المروحية الاقتراب من الجبل، فاعتذر فى أدب، ثم عرفت أنه يلتزم بالتحرك فى مساحات معينة ليظل بعيدًا عن مرمى مدافع وصواريخ المتمردين المتمركزة فى أماكن متفرقة من الجبل، استعدادًا لإسقاط أى طائرةٍ من هذا النوع، حتى لو كانت مدنية، بهدف إحراج الحكومة، وإظهارها بالعجز أمام الرأى العام.

بعد الطيران على مستوى منخفض لمدة ٤٠ دقيقة، من مدينة نيالا، هبطت الطائرة، وسط ساحة رملية، وسط عدد من الأشجار الضخمة، بجوار بعض القرى التى اشتعل بين أهلها حريق الفتنة.. إنها قرية أبو عجورة، عبارة عن سور من الطوب اللين، يحيط بعشرات من «الحواكير» أو الأكواخ المصنوعة من البوص، يسكنها أهالى القرية، البالغ عددُهم حوالى٣ آلاف نسمة، يعمل معظمهم فى الزراعة بجانب الرعى، وأغلبهم ينتمى إلى قبائل أفريقية (البرقد، الداجو، الفور)

وأيضا تعيش بينهم أقليةٌ من قبيلة الدنكا.

هذه القرية شهدت حادثًا مدويًا، عندما تعرضت لهجوم من ملثمين يركبون الخيل والجمال، هجموا على أهلها، وطردوهم منها ونهبوا كلَ ما وقعت عليه أيديهم، من حبوب وحيوانات، وعندما حاول بعض الرجال مقاومتهم كان مصيرهم القتل.. السلطات المحلية قررت فتح تحقيق، وبدأت فى عملية إعادة بناء أكواخهم.

***

الطائرة تحركت مرة أخرى، وعلى بعد ١٥ دقيقة هبطنا إلى موقع آخر مماثل، إنها قرية «سانى دنيبه»، إحدى القرى التى تعرضت أيضًا لهجمات «الهمباتية» أو اللصوص، أو الجنجويد، يوجد فى القرية قسمٌ للشرطة، بقيادة نقيب يعاونه ٩ جنود مسلحين تسليحًا خفيفًا، ولديهم سيارة نصف نقل لاندروفر، تستطيعُ التحركَ عبرَ الرمال بسهولة، نظرًا لعدم وجود طرق، بل هى «مدقات» معروفة لأبناء تلك المناطق، لو انحرف عنها يصعب إنقاذه.

قسم الشرطة عبارة عن مبنى من الطين، شديدِ التواضع، ملحق به سجن، يسهل مشاهدة المسجونين بداخله، الحراس يلجئون إلى تقييد المسجونين فى الليل خشية هروبهم، أما فى النهار فيطلقون سراحهم داخل السجن.

القرية كانت تعتصر ألمًا لحظة وصولِنا، التى تزامنت مع مأساة العم إبراهيم، الذى استيقظ على صراخ أبنائِه وأطفالهم، وهم يقاومون اللصوص الملثمين، خلال هجومهم على القرية والذى انتهى بذبح أربعة من أبنائه، بعد أن قاوموا الجناة، الجميع فى القرية تضامنوا مع الشيخ المسن، الذى قُدِرَ لهُ أن يتحملَ أعباءَ أربعِ أسر، وهو فى السبعين من عمره.

تحت شجرة، أمام قسم شرطة القرية، تربع إبراهيم الذى ينتمى إلى قبيلة «التاما» الأفريقية، وشرع يروى وقائع تلك الليلة، عندما استيقظ فجأة فى الصباح الباكر على صراخ أحفاده الصغار، المقيمين فى «قطية» مجاورة، فشاهد نحو١٠ أشخاص يهربون على ظهور خيول مسرعين، بينما وجد أبناءه الأربعة قتلى،

غارقين فى دمائهم، يلفظون أنفاسَهم الأخيرة، ونظرًا لعدم وجود أى وسائل إنقاذ فى القرية استسلم الشيخ المسن لقضاء الله وأخذ فى إعداد الأكفان تمهيدًا لتشييعهم إلى مثواهم الأخير.

وسط تعاطف جميع أهالى القرية مع الشيخ المسن، بدأوا فى مساعدته هو وأسرته، وتبرع أحد الأغنياء بعشرة رؤوس أبقار، لأبناء الضحايا، ثم توالت التبرعات، لكنها لن تغنى عن غياب أبنائه، ولن تطفئ النار المشتعلة فى صدره.

الشرطة لا تمتلك القدرة الكافية للسيطرة على الأوضاع المنفلتة، والضابط الشاب يعتبر الحادث المأساوى واحدًا من عمليات الترويع والتخويف، التى يمارسها المتمردون للضغط على سكان القرى للانتقال إلى معسكرات اللاجئين، لتضخيم الأزمة، بينما الأهالى مصممون على أن الجنجويد هم الذين يرتكبون هذه الجرائم، للانتقام منهم فى محاولة لطردهم من دارفور، لتصبح جميعًا ملكًا للعرب الجنجويد.

***

بالطبع هذا تفسير سطحىٌ للأزمة، خاصة أن الحكومة المركزية نفسها تتعرض لعمليات مشابهة من جانب المتمردين، وأن معظم قطع السلاح والسيارات الموجودة بحوزة المتمردين كانت ملكًا لأقسام شرطة صغيرة مثل قسم سانى دنيبه، قبل أن يتعرض لهجوم ليلى مباغت فيقتلون كل من فى قسم الشرطة، ويستولون على الأسلحة والسيارات، وغيرها من المعدات، ولذلك يظهر المتمردون دائمًا وهم يقودون سيارات «لاندروفر» مكشوفة فى مقدمتها مدفع تم الاستيلاء عليه من غارة ليلية.

أجواء القرية مشحونة بالغضب، والاتهامات متبادلة بين أبناء العرب والأفارقة، والانتقام مستمر من جانب كل طرف، بينما إستراتيجية السلطات تقوم على أساس إضعاف المتمردين وكل من يتعاطف معهم، مستخدمين كافة الأوراق المتاحة أمامهم أبرزها الاستعانة ببعض أبناء القبائل العربية المعروفة بـ«الجنجويد».

فى المقابل يسعى المتمردون من جانبهم إلى مضاعفة فاتورة خسائر الحكومة،

والنيل منها بكافة الوسائل، حتى لو وصل الأمر إلى حرق قرى بأكملها، لنشر الذعر والخوف فى نفوس سكانها، إضافة إلى شن الغارات والحملات المسلحة على قوافل الإغاثة، لتوفير المؤن لقواتها، التى تواجه ظروفا قاسية، تضطر بعضهم إلى إلقاء السلاح، والاستسلام للقوات الحكومية أو إلى القبائل العربية.

13

قطيع متوحش

مطاردة مثيرة لقطيع من الذئاب المتوحشة، غيرت مسار حياته من صبى يرعى الجمال إلى زعيم أكبر القبائل العربية فى السودان.. ثأر مع متمردين حوّله من زعيم واحدة من أكبر القبائل العربية فى السودان إلى «مطلوب دوليًا» تتحدث عنه وسائل الإعلام فى نصف الكرة الأرضية.

«موسى هلال» زعيم «الجنجويد» شاب، يشبه الفراعنة، طويل القامة هادئ الطباع، تبدو عليه ملامح الذكاء والفروسية، حصل على قدر بسيط من التعليم يمكنه من القراءة والكتابة، وهذه عادة أهل البادية، فلا مدارس، ولا جامعات، لا قانون، فأعراف القبائل والعادات والتقاليد الموروثة تحكم سلوك الجميع.. يتحرك فى موكب مشابه لمواكب الزعماء، سيارات مصفحة. مسلحون أشداء، يسبقونه إلى أى مكان ينوى الذهاب إليه، لتأمين حراسته.. هؤلاء لم تعينهم وزارة الداخلية السودانية، هم أتباعه، وأقاربه وأبناء عشيرته.

تعرض «موسى» لأكثر من محاولة اغتيال على أيدى مجهولين. أشهرها فى قلب «الخرطوم»، عندما كان يهم بالخروج من مطعم شهير فى سوق أم درمان، وأخطرها عندما فتح عليه المتمردون نيران مدافعهم أثناء مرور موكبه من منطقة تخضع لنفوذهم. ودارت معركة مسلحة قتل فيها عدد من حراسه الشخصيين، ونجا بأعجوبة بعد أن حمل رشاشًا سريع الطلقات ووجهه نحو المهاجمين.

رجال الأمن يقولون عنه أنه مثل القطط «بسبعة أرواح» لديه قدرة مدهشة على الهروب، يتمتع بحس أمنى فطرى.

حياته سلسلة من المغامرات، فهو ابن الشيخ «هلال عبد الله» زعيم قبيلة «المحاميد»، واحدة من فروع» الرزيقات، أكبر قبائل العرب فى غرب السودان، شقيق لأكثر من عشرين أخًا وأختًا.. وأثبت طوال حياته، شجاعة مبهرة.

وعندما تعرضت قافلتهم لهجوم قطيع من الذئاب، خلال رحلة رعى بالغرب من مستنقعات بحر الغزال جنوب غربى السودان، كان «موسى» لا يزال صبيًا فى الخامسة عشرة، ولأن أبناء الرعاة الرحل جميعهم يتدربون على مواجهة مثل هذه المخاطر يوميًا. فقد امتطى فرسه، وقتل ثلاثة من أشرس الذئاب.

توالت المناسبات التى كانت فرصة للشاب أن يثبت لوالده الشيخ «هلال» أنه جدير بالمسئولية..قاد أكثر من معركة بين قبيلته المنتشرة فى «المراحيل» التى تقطع غرب السودان شمالاً حتى درب الأربعين مع مصر وجنوبًا بمحاذاة الحدود مع جمهورية أفريقيا الوسطى.

***

فجر ليلة مطيرة ولد «موسى هلال» فى خيمة والده شيخ قبيلة «المحاميد» فى وادى «كتم» بالقرب من جبل «مُرة» شاهق الارتفاع المغطى «بالخضرة والسحر» لكن الوادى كان فى ذلك الوقت من عام ١٩٦٠ تغمره مياه الأمطار التى يعيش عليها الرعاة والمزارعون فى الصحراء الممتدة من نهر النيل حتى قلب أفريقيا على الحدود مع تشاد وليبيا.

ظل «موسى» الطفل المدلل لدى والده المسن الذى تحول إلى حكيم وزعيم ذى شخصية مؤثرة تعرض عليه كافة المنازعات، بخبرته يفصل فى القضايا التى تخص أبناء قبيلته، بدءا من زواج الأبناء، وتقسيم الثروات، وتحديد مناطق الرعى، وصولاً إلى اختيار أبناء القبيلة لاستكمال دراستهم وتعليمهم فى الخارج.

من يرغب فى التأثير العاطفى على شيخ المشايخ كان يتخذ من ابنه «موسى» مدخلاً لقضيته[٧] كان نقطة ضعفه، دائمًا يردد على مسامع ضيوفه أنه يرى فى

هذا الطفل أحلامه وينتظر منه أن يكمل مشوار حياته. ظل «موسى» عند حسن ظن أبيه، أثبت نجاحًا فى كل المهام التى أسندها إليه، أصبح مشهورًا ليس فقط بين شباب قبيلته بل وصلت أنباء بطولاته وشجاعته إلى أبناء القبائل الأخرى.

كان الشيخ هلال فخورًا بأسلوب حياته البدوى.. يصر على أن يمتلك الجميع فى قبيلته الإبل. عائلة هلال اشتهرت بامتلاك آلاف من الإبل، وإن كان الشيخ قد طعن فى السن بحيث لا يمكنه امتطاء أى منها. كما كانت قطعانه على بعد ثلاثمائة ميل فى الشمال ترعى أعشاب الصحراء الحلوة بعد المطر.

فى إحدى المرات باع ابن أخيه ١٢٠ جملاً لتوفير الطعام لأبناء جلدته الجوعى، وأقرض هلال الكثير من ذلك القطيع، الذى كان يتناقص بشكل أسرع مما يعرف هو، لأقاربه الفقراء، وكان يردد دائما أمام أبناء القبيلة «نحن نساعد بعضنا، ولن يضطر أبناء «الجلول» للعمل فى المزرعة».

على مسيرة ساعة من هناك، يقع مخيم «الجلول» حيث فقدوا إبلهم وماعزهم أثناء الجفاف واستقروا فى محاولة للزراعة، ولم يكن القرويون المحليون من جماعة التنجور (وهم أقارب الفور، التى هى أكبر جماعة عرقية فى المنطقة) قد أعطوهم سوى الأراضى الرملية الجافة، بينما احتفظوا لأنفسهم بالأرض الطينية المجاورة للوادى.

ولأن وادى كُتم مشهور بتمره الحلو، فهو من بين أكثر الأراضى الزراعية قيمة فى شمال دارفور، التنجر كانوا حريصين على تسجيلها قبل وقت طويل من إدراك المزارعين الآخرين لأهمية سند الملكية القانونية للأرض.

وشعر فلاحو الجلول بالضيق، فراحوا يروضون المرتفعات القاحلة فى محاولة لزراعة القليل من محصول «الدُخن»، وبذل الشيخ ما فى وسعه للمحافظة على المظاهر، ففى المساء كان يقدم وجبة سخية من لحم الماعز والأرز، ويعلم من حوله الاتجاهات التى يمكن أن ينتشر فيها أبناؤه وإبله.

بعد وفاة شيخ القبيلة - أى قبيلة- جرت العادة أن يجتمع رجالها لتحديد الزعيم الجديد وبالرغم من حب «الشيخ» لابنه موسى فقد نصح أبناءه أن يختاروه خليفة

له، لكنه ترك لهم حرية الاختيار وفقًا لتقاليد وعادات القبائل العربية.

فى نهاية عام ١٩٨٥. أجمع كبار رجال قبيلة «المحاميد» على اختيار «موسى» زعيمًا للقبيلة خلفا لوالده الراحل بالرغم من وجود أشقاء أكبر منه، لكن التصويت انتهى باختياره، وبالطبع هناك مواصفات يجب أن تتوافر فيمن يقع عليه الاختيار، أبرزها أن يكون شجاعًا وقويًا فى الحق، قادرًا على الدفاع عن مصالح القبيلة وحماية أبنائها غيورًا على شرفها، فضلاً عن تمتعه بسيرة ذاتية حميدة.

فى العام التالى على اختياره زعيما تعرضت المنطقة لجفاف ضرب غرب السودان وتكبدت قبيلته خسائر فادحة، فخصص جزءًا من ثروته وثروة والده، لدعم أبناء القبيلة الذين فقدوا الكثير من إبلهم، وتوالت الأزمات المترتبة على استمرار الجفاف، وديان المياه تحولت إلى أرض بور.

وانفجرت النزاعات بسبب اقتراب الرعاة من زراعات أبناء القرى والفلاحين، الذين ينتمى معظمهم إلى قبائل «الفور» ذات الأصول الأفريقية.. هذه الاحتكاكات كانت الشرارة الأولى التى انطلقت منها الحرب التى يشهدها إقليم «دارفور» حاليًا.

فقد تكررت الاشتباكات بين الرعاة والمزارعين إلى أن بدأ المتمردون يستغلون عمليات الانتقام التى يقوم بها الرعاة ضد بعض القرى، وتوظيف هذه الأحداث سياسيًا.. أعلنوا تمردهم بحرق عدد من الطائرات بمطار مدينة الفاشر «شمال دارفور» فى فبراير ٢٠٠٣ م، وتطورت الأحداث بسرعة، حيث شكلوا ميليشيات مسلحة اتخذت من جبل «مُرة» مركزًا لها وأقامت معسكرات للتدريب على قمة الجبل، شنت هجمات عنيفة على الأهالى والمنشآت الحكومية.

بداية ٢٠٠٤ كان «موسى هلال» على موعد مع حادث خطير تمثل فى احتجاز المتمردين لرعاة من قبيلته استولوا على جميع ما بحوزتهم من رؤوس وعندما قاوم الرعاة كان مصيرهم القتل.

هذا الحادث كان بداية دخول «موسى» أو الجنجويد ساحة المعارك المسلحة الدائرة بين القوات الحكومية وميليشيا المتمردين، زعيم القبيلة قرر الانتقام من مرتكبى الحادث، ولقن المتمردين والقرى التى عاونتهم درسًا قاسيًا، حيث حرق كثيرا من

قرى أهالى المتمردين.

السلطات السودانية وجدت فى الرعاة العرب ورقة ضغط قوية ضد المتمردين، فبدأت فى تحريكها تجاه البؤر التى ينطلق منها التمرد، بعد أن تزايد عدد ضحايا القوات النظامية واستيلاء المتمردين على سيارات وآليات كثيرة بدأوا فى إعادة استخدامها مرة أخرى من مواقع متباعدة، فاستعانت القوات النظامية بميليشيا من القبائل من بينها «المحاميد» و «الرزيقات» فى شكل قوات دفاع شعبى ونفذت هجمات عقابية ضد المناطق التى يشن منها المتمردون غاراتهم.

بينما خطط المتمردون للإيقاع برأس «موسى هلال» زعيم «الجنجويد» فى أكثر من محاولة، لكنه كان دائمًا على حذر بالرغم من أنه يرفض استخدام الطائرات المروحية مع قدرته المالية على ذلك تجنبًا لمحاولات إسقاطها، ويتحرك برًا عبر الصحراء فى موكب من السيارات المصفحة وسط جيش من أتباعه المسلحين، حيث يقضى عدة أيام فى الخرطوم وأغلب الوقت فى البادية بمسقط رأسه «كتم».

***

بعد أن حقق «الجنجويد» انتصارات عسكرية على المتمردين، تحول «موسى هلال» إلى زعيم محبوب من الحكومة، وبالتالى أصبح هدفًا للإعلام الغربى المتابع بدقة لما يحدث فى «دارفور» ثم استغله أحد مندوبى منظمة «هيومان رايتس ووتش» الأمريكية لحقوق الإنسان وانتزع منه اعترافًا صوتيًا بأنه قام بالكثير من الهجمات على المتمردين وقراهم، دعمًا للدولة، وبطلب منها ورغم إنكار «هلال» هذه الأقوال فإنها كانت ذريعة لوضعه على رأس قائمة تضم «٥١» مسئولاً سودانيًا أعدتها لجنة تابعة للأمم المتحدة فى أبريل عام ٢٠٠٤م، وطالبت اللجنة بضرورة محاكمتهم أمام محاكم دولية بتهم جرائم الحرب التى ارتكبوها بحق المدنيين فى «دارفور» لكن زعيم «الجنجويد» يسخر من رأى اللجنة ويقبل بأية محاكمة وطنية، ويكرر مقولة «مت عزيزًا مكرمًا، ولا تعش ذليلاً مهانًا».

فى منزل بسيط بقلب الخرطوم التقيت زعيم الجنجويد، عند وصوله حضر فريق من أتباعه، وحراسه الشخصيين للتأكد من شخصيتنا، وفحص المنزل ثم هاتفوه، وفقًا لنظام وشفرات معينة بأن يتحرك.. خلال نصف ساعة كان موسى

هلال يجلس فى غرفة الاستقبال مرحبًا باللقاء ومستعدًا للرد على كل الأسئلة.

سرد الرجل سيرة حياته باعتباره إنسانًا عاديًا، طوال الوقت كان مندهشًا للصورة التى رسمها له الإعلام العالمى «هرقل» أو الفك المفترس، وبكلمات لا تنقصها الثقة واللباقة، استعرض الأزمة التى يعيشها إقليم دارفور منذ بداية ظهور جماعات النهب المسلح عام ١٩٧٩م، الذين أطلق عليهم لقب «الهمباتية» - الحرامية أو قطاع الطرق- إلى تصاعد التوتر بين جميع القبائل فى أعقاب موجة الجفاف التى تعرضت لها المنطقة فى بداية عام ١٩٨٤، وصولاً إلى أعمال التحرش التى دأب عليها المتمردون لاستفزاز الرعاة العرب الذين تصدوا بدورهم إلى سلوك المتمردين وتعاونوا مع أجهزة الدولة فى ملاحقتهم، فأطلقوا عليهم «الجنجويد» وهو مسمى محلى فى لغة الفور يعنى «الفارس ذا الملابس البيضاء الذى يمتطى حصانًا وفى يده مدفع رشاش» وبالطبع، التصق هذا المصطلح بالكثير من أبناء القبائل العربية لأنهم أكثر مهارة فى ركوب الخيل ومدربون على حمل الأسلحة لحماية قطعانهم ضد أى هجوم «همباتى» أو حتى للتصدى لغارات الحيوانات المفترسة أثناء رحلات الرعى الدائمة.

تناول موسى بإسهاب قضية التعاون مع الحكومة المركزية، ضد المتمردين، باعتباره أمرًا طبيعيًا ومذكرًا بأن زعيمى التمرد الدكتور على الحاج، والدكتور خليل إبراهيم هما اللذان قادا حملة شعبية لمواجهة حملة المهندس المنشق داود يحيى بولاد، ولم تتوقف حالة الاستنفار إلا بعد القبض عليه وإعدامه، ونحن اليوم مستنفرون ومتعاونون مع حكومة الخرطوم وأى حكومة مركزية لأننا ضد الفوضى ونسعى لأن يكون السودان وطنا آمنًا مستقرًا بعيدًا عن التدخلات الأجنبية، عكس هؤلاء الذين يدعون إلى نشر قوات أجنبية على أرض دارفور.

ابتسم هلال ساخرًا عندما عرضت على مسامعه ما يتردد من قصص تتداولها وسائل الإعلام عن الجنجويد، وقال إن قطاع الطرق منتشرون فى كل مكان، وليس لهم هوية محددة، أو انتماء قبلى معين، وضحاياهم غالبا من كل القبائل فمثلاً تعرض قسم من قبيلته «المحاميد» إلى سرقة حيواناتهم، وعندما ظهرت فى الأسواق الليبية وتعرف عليها أصحابها، حاولوا تحرير محاضر بهذه الواقعة لكن

السلطات هناك رفضت الاستجابة.

اللصوص تابعون لقبيلة «المساليت» كما نجح قادة التمرد فى شن هجمات على الكثير من القرى وإن وجدوا سكانها عربًا أعملوا فيها النهب والقتل، بينما يتركون قرى «الفور» بدون أذى، ولدينا محاضر محررة بهذه الوقائع فى محلية «الواحد» التى نتبعها إداريًا، ومع ذلك تلتصق الكثير من هذه الأفعال «بالجنجويد» التى تحولت إلى شماعة تعلق عليها كل المشاكل التى تجرى فى دارفور، ونسى الجميع أن قادة التمرد هم الذين أدوا بهذا الإقليم إلى هذا الوضع الخطير بسبب تطلعاتهم وخلافاتهم وصراعاتهم السياسية التى لا ناقة ولا جمل لكثير من المواطنين الآمنين فيها.

الرعاة يؤمنون بأن لكل مشكلة حلا أو أكثر من حل لأن أهل البادية يواجهون أعقد المشكلات، ويصل الأمر أحيانًا إلى تطبيق نظام «الضامن» عندما يتعلق الأمر بمشكلة مع مواطنى دولة مجاورة، وهو يكون مثل السفير بالنسبة للقبائل يتم من خلاله دفع الديات، أو التدخل نيابة عن شيخ القبيلة.

وبما أن الرزيقات والمحاميد من أكبر القبائل الرعوية فإنها تحرص أن يكون لها «ضامن» أو سفراء فى الكثير من الدول المحيطة منها مصر، حيث يتم بيع الإبل للتجار المصريين عبر درب الأربعين، وأيضا فى ليبيا، ثم تشاد وأفريقيا الوسطى.

عادة تلجأ القبائل إلى الحلول الدبلوماسية التى يأتى فى مقدمتها الاعتذار ودفع التعويض، وغيرها كما تكون المصاهرة والنسب أحد الحلول مع القبائل الأخرى التى تدخل معها فى منازعات حول الرعى، أو المياه، وإن بقيت مشكلة دار فور عصية على الحل فالوضع شديد التعقيد لأن مطالب أطرافه، تتعلق بأمور عميقة الجذور، لها بعد خارجى، وفتن سياسية، يدرك من أشعلوها فقط كيفية وقفها.

الخطير فى الأمر أنهم استخدموا مصير ومستقبل أبنائهم وأقاربهم، ورقة سياسية يتلاعبون بها ويحققون بها أغراضهم، غير عابئين بما يدفعه البسطاء والمعدمين من ثمن فادح لمغامراتهم، بعد أكثر من أربع ساعات تنقل خلالها زعيم الجنجويد من قضية إلى أخرى.. بعدها غادر المنزل الآمن الذى يملكه إعلامى سودانى هو الذى قام بترتيب اللقاء.

بصرف النظر عن هوية الجنجويد فإن حجم الجرائم التى ارتكبها المجرمون وقطاع الطرق فى دارفور يستوجب المحاسبة والتحقيق، لقد استغل اللصوص حالة الفوضى وغياب الأمن وعاثوا فى الأرض فسادا بحرق القرى والاستيلاء على الممتلكات، ولم يسلم شرف النساء أيضا من العبث بعد أن استباحوا كل شىء.

القرويون اضطروا إلى مغادرة منازلهم بحثًا عن الأمن فى المناطق الحضرية الكبيرة داخل دارفور، وعبر آخرون خوفًا من الهجمات عندما تلقوا معلومات حول الأعمال الوحشية إلى المناطق المجاورة.. سكان القرى الواقعة بين كلبس والطينة فى غرب الإقليم هجروها إلى تشاد وإلى المناطق الأخرى داخل البلاد، ورأيت قرى كثيرة كأنها بقايا أطلال مهجورة.

***

استرجعت واقعة تعرضت لها شخصيًا فى سوق الإبل بمدينة «نيالا» أثناء التقاطى الصور لبعض الباعة والتجار، استوقفنى شخص يرتدى الزى السودانى التقليدى ويضع على عينيه نظارة سوداء، وطلب التعرف علىّ، سألته عن الجهة التى يعمل معها أجاب بأنه تابع لجهة سيادية، مهمته مراقبة الغرباء فى السوق، بعد مداولات تدخلت فيها الشرطة النظامية تبين أنه يحمل بطاقة تابعة لما أطلقوا عليه «قوات الدفاع الشعبى».

هذه الواقعة أقلقتنى لعدم اقتناعى بالتفسير إلى أن شرحها أحد مرافقى من أبناء «الفور» ضاحكًا بأنه من الجنجويد، فقد لجأت السلطات إلى منحهم بطاقات من هذا النوع لتبرير استخدامهم والاستعانة بهم فى مواجهة المتمردين.

المدهش أن البسطاء من أبناء القبائل الأفريقية ينظرون إلى أى شخص يحمل ملامح عربية على أنه جنجويد، مما انعكس على ثقافة الأطفال الصغار، فقد نادى علىّ طفل فى سوق «الألبان» بمدينة نيالا.. بـ يا جنجويدى، بعد أن سمعنى أتحدث مع الناس فى السوق.

14

العراة.. يرقصون تانجو

رجال ونساء يرقصون عراة فى الشارع، هذا واحد من أغرب المناظر التى وقعت عليها عيناى، فى صيف عام ١٩٨٩ أثناء زيارة إلى تشاد، بمجرد هبوط الطائرة فى مطار العاصمة التشادية «انجمينا» توالت المفاجآت، أولها أن نبقى داخل الطائرة ساعتين بعد رحلة طيران طويلة استغرقت نحو ٥ ساعات متواصلة، لأن المطار ليس به سوى سلم واحد لنزول الركاب، كنا فى رحلة صحفية خاصة، تضم عشرات من الصحفيين جاءوا من بلاد مختلفة.

السلم الوحيد بالمطار كان بعيدا ينتظر وصول طائرة الرئيس التشادى «إدريس دبى» الذى كان عائدا من جولة خارجية.. لا خيارات أمامنا سوى الاستسلام حسب تعليمات طاقم الطائرة الذى أوقف أجهزة التكييف حتى كدنا نختنق، مر الوقت بطيئا، ثم بدأت الاتصالات بين برج المراقبة والطائرة، بعدها وصل السلم المتحرك يتهادى ببطء أمام العربة التى تدفعه، هرولنا جميعا إلى الخارج، فإذا بتيار من الهواء الساخن يلفح وجوهنا.

تحملناه وقادنا بعض الموظفين مبتسمين إلى مبنى من طابق واحد على جانب المطار، مكتوب عليه بالعربية والفرنسية عبارة «صالة كبار الزوار»، دقائق معدودة وظهرت المفاجأة الثانية حيث جلست بالقرب من شباك زجاجى يطل على أرض المطار، فاخترق أذنى صراخ صحفية تركية كانت تجلس بجوارى، أخذت تشير إلى

النافذة وتبين أن على الزجاج من الخارج ينام حيوان زاحف ضخم يشبه الثعبان، حاولنا قتله إلا أن الموظف المسئول منعنا من ذلك وتحدث عنه بنوع من الرقة تظهر أن هذا النوع من الزواحف صديقة للإنسان، بل وجوده يطمئن أبناء تشاد ويعنى أن المكان نظيف من نوع معين من الذباب الاستوائى القاتل.

هدأنا قليلاً ثم توالت الاكتشافات منها أن هذه أول عاصمة فى الدنيا أرى فيها الفقر وهو يتحدى الإنسان بطريقة سافرة باستثناء أربعة مبان هى منازل سفراء كل من الولايات المتحدة، فرنسا، مصر،باقي منازل العاصمة في غاية التواضع.

***

فى شوارع انجامينا وجدت صورا غريبة، فجميع القبائل دفعت بوفود من أبنائها للتعبير عن حفاوتها بالضيوف أملا فى غد جديد أكثر إشراقا بعد أن أنهكتهم الحرب مع ليبيا.. شاهدت وفودا لقبائل جاءت من عمق صحراء تشاد البعيدة يغنون بلهجتهم المحلية ويقرعون طبولا أفريقية. بعض هذه الوفود كان الرجال فيها عرايا فيما عدا ورقة توت تخفى العورة بينما النساء كن شبه عاريات، وعرفت بعد ذلك أن كل قبيلة لها زيها وعاداتها الخاصة حتى فى الغناء والرقص.

فى نهاية اليوم التقيت بأحد الوزراء التشاديين، فاجأنى مبتسما بأن تشاد خلال أربعة أو خمسة أعوام قادمة سوف يتصارع المصريون للبحث عن فرصة عمل بها.. كان جادا فى حديثه كأنه يستند على نتائج الدراسات الجيولوجية حول مخزون النفط التى مازالت تتوالى من العواصم الغربية، تشير إلى أنها ستنافس الكويت ونيجيريا فى تصدير النفط، وأن الدول المجاورة ستتطلع بعيون الحسد والحقد إلى ثراء الشعب التشادى.

جزء من حديث الوزير كان صحيحا لكن بالطبع انتظرت مرور السنوات لتتحقق أمنيات الوزير التشادى أو جزء منها، لكنها لم تتحقق وإن ظهر النفط وتدفق جزء منه عبر خط أنابيب ممتد من قلب صحراء تشاد إلى المحيط الأطلنطى.

فى أحياء العاصمة تجولت على قدمى بصحبة شاب من أصول عربية تلقى تعليمه الدينى فى الأزهر الشريف.. شرح لى ملخصا للتركيب العرقى

لتشاد...حيث تتكون من مجموعة قبائل ذات جذور عربية تصل نسبتها إلى ٣٣٪ من السكان باقي القبائل جذورها أفريقية، لكن هناك دائما صراعا خفيا بين كل ما هو عربى وأفريقى، حيث احتكر العرب المناصب الكبرى، مهما كانت هوية الحاكم.. كل الحكام يحرصون على عمل توازن دائم فى توزيع المناصب والثروات بين مختلف القبائل لضمان الاستقرار والمحافظة على بقائهم أطول فترة ممكنة فى السلطة.

النتيجة المؤكدة أن تشاد لا تختلف كثيرا عن دار فور من حيث التركيب العرقى والتداخل الإثنى. وفقا للمعلومات المتداولة تبين أن هناك ٢٧ قبيلة كبيرة لها امتدادات ما بين دار فور وتشاد بعضها من جذور عربية، وأغلبها من أصول أفريقية فى مقدمتها قبيلة الزغاوة التى يقود أبناؤها التمرد فى دارفور وتلقى دعما معنويا غير مباشر من تشاد.

كما أن نحو ١٨ قبيلة تتمتع بوجود قوى لأتباعها ما بين تشاد والسودان وليبيا فى الشمال، فضلا عن أن أكثر من ١٠ قبائل عربية وأفريقية ممتدة على الحدود بين أفريقيا الوسطى، وتشاد ودار فور فى الجنوب، مما فرض وضعا معقدا يصعب فيه السيطرة على الحدود التى لا يمكن إغلاقها أمام تحركات القبائل التى يتمتع معظمها بنفوذ حيث يوجد لدى الكثير منها السلاح والعتاد الذى يمنع أى محاولة للهيمنة عليها.

هذا الوضع ضاعف من صعوبة موقف تشاد فى الحياد خلال الصراع القائم بين المتمردين فى دار فور والحكومة السودانية ،فظل عرضة للصدام فى أى لحظة، رغم محاولات الرئيس «دبى» للظهور بمظهر الوسيط المحايد،لكن الموقف الذى دفع السودان إلى محاولة تنبيه «دبى» كان فى شهر مارس من العام ٢٠٠٦ . عندما استولى أحد قادة التمرد على مقر السفارة السودانية فى العاصمة التشادية «إنجامينا» وأنزل العلم السودانى ورفع علم حركة العدل والمساواة المتمردة بدلا منه دون أن تتدخل أجهزة الحكومة التشادية أو تتصدى لتلك المحاولة ،فاعتبرت الخرطوم هذا الموقف نقطة سوداء فى العلاقات المتوترة مع نظام إدريس دبى.

تمتد قبيلة الزغاوة التى ينتمى إليها الرئيس التشادي ، فى داخل الحدود السودانية التشادية المشتركة حيث كان والده «تيمان دبًى» ملكًا لقبيلته فى مقره

ببلدة «باهاى» على الجانب التشادى، وقد تعلم إدريس فى مدرسة «كرنوى» الابتدائية قبل أن ينتقل لتشاد ويواصل تعليمه هناك. وتدرج فى الجيش التشادى وانحاز لجانب حسين حبرى فى صراعه على السلطة ضد جوكونى عويدى.

قبيلة الزغاوة لعبت دورًا حاسمًا فى الصراع مكّن إدريس دبّى من أن يترقى لمنصب القائد الأعلى فى الجيش التشادى بعد انتصار حليفه حسين حبرى وتسلمه إدارة البلاد.. لكن يبدو أن حبرى، - ابن قبيلة القرعان- قد أصابته الشكوك فى ولاء إدريس وبقية كبار قادة الزغاوة فى الجيش التشادى لنظامه وخطط بالتالى للإيقاع بهم، لكنَّ إدريس دبّى وحلفاءه تمكنوا من الفرار من «إنجامينا» ووصلوا إلى دارفور فى حالة يرثى لها، عددهم كان لا يجاوز المائة، حفاة وجرحى فى انتظار إحسان الأهالى عليهم ..كان أول مكان نزلوا فيه منطقة «بامشى» ارتحلوا منها إلى منطقة «عين سيرو» ثمَّ إلى منطقة «الجنيك». كان ذلك نهاية ١٩٨٨م وبداية عام ١٩٨٩م.

منذ تلك الفترة استجمع إدريس قواه بدعم الأهالى لكنَّه تعرض لهجمات متكررة من قوات حسين حبرى التى كانت تراقبه جيدا.. وتمكنوا من الإغارة عليه ومطاردته، حتى مدينة «كتم» بالقرب من الفاشر شمال دارفور حيث دخلوا المستشفى واختطفوا الجرحى من قوات «دبّى» وأعدموهم فى الحال، لكنَّ أهالى المنطقة أخفوه ودعموه بعد تلك الكارثة.

***

فى نوفمبر ١٩٩٠، تمكنَّ دبّى من استجماع قواه مرة أخرى وبذل أهله وأهالى شمال دارفور عامة، الغالى والرخيص، المال والرجال.. وتمكن من إلحاق هزيمة مدوية بقوات القيادة الشمالية لجيش حسين حبرى انهار جيشه على أثرها، وفرَّ حبرى إلى دولة النيجر ليدخل إدريس دبّى العاصمة «إنجامينا» منتصرا فى الثانى من ديسمبر ,١٩٩١. بعد أربعة أيام من تلك المعركة.. تسلم رئاسة تشاد.

الحقيقة.. أن هناك تشابها واضحا بين النظامين فى كل من تشاد والسودان.. كلاهما وصل إلى الحكم عن طريق البندقية، النظام التشادى لا يجد حرجًا فى ذلك كونه قد صعد للسلطة عن طريق الحرب بخلاف نظام الجبهة الإسلامية

الذى اعتمد على نظام ديمقراطى.

غير أنَّ ذلك لا يعنى أنَّ النظام التشادى ليس له أعداء، فذلك مفهوم تبعًا للظروف التى قادته للصعود إلى السلطة... فطبيعة الصراع السياسى فى الدول الأفريقية أنَّ القبليية والجهوية تمثلان مرتكزا أساسيا للسلطة الحاكمة فى الدولة.

وعلى هذه الخلفية تتشابه الأمور فى تشاد.. فإدريس دبّى القادم من أحد بطون قبيلة الزغاوة انتزع الحكم من حسين حبرى الذى ينتمى إلى قبيلة القرعان، الذين أصبحوا خارج دائرة السلطة، ولا بد أنَّهم يفكرون فى إعادة مجدهم الزائل، فضلا عن خلافات متباينة مستترة مع فئات أخرى من بطون الزغاوة، بجانب احتكاكات سابقة مع قبيلة البرقو فى منطقة أبَّشى.

ورغم أنَّه لم يصدر شىء من قبيلة «السارا» المتواجدة حول بحيرة تشاد إلاَّ أنَّ ما يحصلون عليه من نصيب عائدات النفط كفتهم عن أى مطالب مقلقة بالنسبة للنظام الحاكم ،مع أنَّهم من أكثر الفئات تعليمًا وثقافة فى الدولة.

إضافة إلى ذلك تمثل تحركات الجماعات الإسلامية المتطرفة على الحدود الشمالية الغربية لتشاد قلق دائم، خاصة بعد أن دخلت القوات الأمريكية فى حرب مع هذه الجماعات بدعم من الجيش التشادى، بدعوى القضاء على الإرهاب، كما أنَّ توتر العلاقات بين تشاد وجارتها، جمهورية أفريقيا الوسطى، والمعارك العسكرية التى دارت بين الجانبين فى منطقة الحدود بينهما، وانتهت بهزيمة قوات الرئيس «فيليب أنج باتاسى» وفراره إلى الكاميرون لمضاعفة فى قوة تشاد العسكرية.. كانت الحكومتان السودانية والليبية قد دعمتا «باتاسيه» بينما دعمت تشاد المتمردين الأفريقيين.

تبقى المجموعات العربية المتذبذبة فى ولائها بين مناطقها فى التشاد وامتداد أهاليهم فى السودان، وهم على أية حال يمثلون قنابل موقوتة تعمل ضد الرئيس التشادى فى أى لحظة، خاصة أنَّهم بنوا علاقات تحالفية حميمة مع نظام الإنقاذ حول الوعود التى بذلها لهم بالحصول على الأرض والمشاركة فى السلطة.

كل هذا يوضح حقيقة البناء السياسى التشادى الهش وإمكانية استمالة بعض القبائل بها للعمل ضد نظامها الحاكم من أى جهات خارجية بقصد الابتزاز والضغط لتنفيذ أهداف محددة لمصلحتها، وتبعًا لذلك يمكننا أيضًا تفسير الهجمات المتكررة للميليشيات المدعومة من الخرطوم عبر الحدود، فقد لا يكون الهدف منها هو ملاحقة اللاجئين الفارين الذين تركوا قراهم وأراضيهم نهبًا لتلك الميليشيات، بل رسالة مبطنة للقيادة التشادية بمصير مجهول إن لم ترضخ طائعة مختارة لما يطلب منها.

لقد أدرك النظام السودانى أنَّ سياساته الخاطئة في معالجة الأوضاع بدارفور أدت إلى نشوب ثورة فى الإقليم تورطت فيها أكبر قبيلتين، بجانب العديد من القبائل الأخرى ذات الأصول الأفريقية مساندة للثورة ومقاتلة بجانبها مثل المساليت، التاما، الداجو، الميدوب، البرقد، وبعض العناصر العربية لاحقًا، وغيرها من قبائل صغيرة، لكن تظل قبيلتا الفور والزغاوة ببطونهما المتعددة هما القوة الحقيقية فى الصراع.

***

ويبدو أنَّ الحقيقة التى لم تفطن إليها الحكومة السودانية هى أنَّ العديد من قيادات الثوار قد سبق لهم أن شاركوا بقوة فى حروب المنطقة المتداخلة ما بين السودان وتشاد وليبيا، بل كانوا السبب المباشر فى إلحاق تلك الهزائم بالقوات الليبية وإجلائها من هضبة التبستى وقطاع أوزو الغنى بعنصر اليورانيوم.

هذه العناصر تدربت جيدا على حروب العصابات المرعبة والخاطفة التى تثير الهلع فى الجانب المناوئ وتخلف موتًا ودمارًا هائلاً بين صفوفها فى فترة وجيزة من الهجوم، وتعتمد على الحركة السريعة فى عربات «اللاند كروزر»، ذات الدفع الرباعى، وتجيد استخدام المكامن والمنحنيات والمناطق المكشوفة على حد سواء، وهى طريقة فى الحروب لم يعتد عليها الجيش النظامى السودانى.

تبعًا لذلك لم تجد الحكومة بدًا من الاعتماد على الرئيس التشادى فى تطويق الثوار مستفيدة من روابطه الاثنية معهم ونفوذه المشروع كرئيس لدولة قد لا تسقط كلمته على الأرض بين تلك القبائل التى خرج منها، كما اتبعت سياسات

متنوعة لاستقطاب الرئيس التشادى لجانبها وجرِّه للاشتراك فى الحرب معها ضد الثوار إن أمكن.

فى سبيل ذلك فقد اتبعت الخرطوم سياسات ودودة بقصد الحصول على ولاء «دبى» بجانب اتفاقيات بينية ووعود بمساعدات اقتصادية فى استثمار ثروة بلاده النفطية.. كما انتهجت الخرطوم أسلوبا هادئا ينشط بالتصاعد تحت دعاوى تقوية العلاقات بين الحزبين الحاكمين فى كلا البلدين وهما المؤتمر الوطنى فى السودان والحركة الوطنية للإنقاذ التشادية الحاكمة والموافقة علي عقد اجتماع دورى كل ستة أشهر، وتعاون عسكرى أمنى، وهذا هو بيت القصيد.

الجانب السودانى نشط فى عقد الاتفاقات الأمنية والعسكرية حتى الاتفاق على تكوين قوة مشتركة من ألفى جندى من كل جانب لمراقبة الشريط الحدودى ومكافحة التهريب والنهب المسلَّح، وإن كان فى ذهن الحكومة السودانية تطوير تلك القوة المقترحة واستخدامها لسحق الثوار بمساعدة الميليشيات والمرتزقة، الذين تمَّ جلب بعضهم من مالى والنيجر والجزائر بحسب مزاعم قادة التمرد.

الأمر وصل بالجانب السودانى إلى حد إظهار العين الحمراء، والتلويح باستخدام القوة إذا حاول الرئيس التشادى التراجع عمًا هو مطلوب منه أو الاستمرار فى خطة دعم الثوار، ولعلَّ إنشاء معسكرات للميليشيات الوافدة بالقرب من حدود تشاد، واحتمال التلويح بدعم قبائل القرعان والجماعات الإسلامية المتطرفة، تمثل رسائل ضمنية من السودان إلى تشاد، تؤكد على معنى العصا والجزرة..فإما أن تكون تشاد معنا أو أنها عدوتنا.

15

يوم أن قُتل دينار

فى صيف ١٩١٦م، استيقظ أهالى دار فور على مشهد عجيب، حيث شاهدوا فى السماء أشباحًا، تتحرك بسرعة، تهبط وترتفع، وتُصدِرُ أصواتًا مخيفة، ثم اقتربت هذه الأشباح الطائرة من الأرض محدثة أزيزًا مزعجًا، وأسقطت قنابل ضخمة، أحرقت الزرع، وروعت البشر والحيوان، فهرع الناس إلى المساجد اعتقادًا منهم بأن نهاية العالم قد حانت.

لم يُخرج الأهالى من هذا الفزع إلا قوات ضخمة من جيش الاحتلال الإنجليزى تزحف على الفاشر، أحاطت بالمدينة ثم حاصرتها تمامًا، وأرسلت إلى السلطان على دينار (١٨٨٩- ١٩١٦)، تخيره بين أمرين: إما الاستسلام أو الحرب، فشعر السلطان بالإهانة والخيانة بعد تحالف عدد من أعوانه مع الاحتلال.

ورد على الحصار بالقتال حيث تحرك بقواته للوراء حتى وصل إلى جبل «مُرة» الحصين وكبد الإنجليز الكثير من الخسائر، وهزمهم فى أكثر من معركة، لكن الاحتلال لجأ إلى سلاح الاختراق التقليدى، فاشترى الجواسيس والعملاء الذين وشوا بمكان اختفاء السلطان، ثم تسلل ضابط إنجليزى يدعى «هدلستون» من مدينة «الأبيّض» وسط جيش ضخم، مدججين بالمدافع الرشاشة للمواجهة مع السلطان الذى كان تسليح جيشه السيوف والجمال.

دارت المعركة وهُزِمَ جيشُ السلطان وانسحب هو بدوره مع بقية جيشه الذين

تخلوا عنه فيما بعد، فعاود القائد هدلستون الهجوم عليه ومن بقى معه، وقُتِلَ السلطان خلال هذا الهجوم فى منتصف مايو ١٩١٦.

إحدى الروايات تقول إن الجيش البريطانى حاصر مقر إقامة السلطان، وترصد خروجه لصلاة الفجر، وبينما كان السلطان يؤم رجاله فى الصلاة، فإذا برصاصات انجليزية تستقر فى رأسه، ويسقط شهيدًا، قبل أن يختم الصلاة، وباستشهاده أُسدِلَ الستارُ على آخر فصول أهم سلطنة إسلامية مستقلة ليس فى السودان وحدها بل فى ربوع القارة السمراء كلها.

***

فى الفاشر عاصمة الشمال، وفوق قمة من التلال العالية المطلة على بحيرة ضخمة تحيط بالمدينة.. هناك يطل قصر أبيض اللون عتيق مكونٌ من طابقين تحيطه حديقة واسعة، السكان يطلقون عليه «قصر السلطان»، وهو المقر الذى أمر بتشييده السلطان على دينار فى عام ١٩١٢.

تقول الروايات أن أحد المهندسين الأتراك يدعى الحاج عبد الرازق قَدِمَ من بغداد خصيصًا للإشراف على بناء القصر، ساعده فى هذه المهمة اثنان من المهندسين المصريين أحدهما يُدعى أحمد موسى، والثانى عطية محمد، إضافة إلى نجارين يونانيين هما ديمترى شنا وتوماس راخوس.

قواعد القصر.. صلبة.. الزلط مكون أساسى فيها، بينما الجدران بُنِيَت من الطوب الحرارى المتماسك، أما سقفه فقد استُخدِمَ فيه نوعٌ من أشجار «السافانا»، الأبواب والنوافذ صُنِعَت من خشب القمبيل الذى استخدم للمرة الأولى فى المنطقة عملا بنصيحة الإغريقى توماس، وعلى بعد أمتار يقع مقر حاكم الفاشر، لا يفصله عن المقر سوى شارع عرضى وعدد من المواقع العسكرية التى أسسها الاحتلال البريطانى، وانتقلت تبعيتها للجيش السودانى.

المؤرخون اختلفوا حول أصل إطلاق الاسم على المدينة، لكن تبقى كلمة «فاشر» تعنى مجلس السلطان، هناك أكثر من رواية (أسطورة) ترتبط بنشأة المدينة، منها أن أول القاطنين ظلوا يركضون خلف «ثور متوحش»، ولحقوا به عند منطقة رهد

تندلتى ووجدوه ميتًا، فأطلقوا على المنطقة اسم (الفيها شر) وتحورت بعد ذلك لتصبح الفاشر.

رواية أخرى تذكر أن اسم الثور كان فاشر.. لكن المرجح أن اسم المدينة جاء من دلالة وصفية لموقع مجلس السلطان (فاشر) نظرا لورود الاسم على هذا النحو دون أداة التعريف فى كثير من المراجع والروايات الشعبية، حيث يُطلق على المدينة اسم (فاشر السلطان) أو (فاشر أبو زكريا)، وفى الأخيرة إشارة إلى السلطان على دينار، حيث زكريا اسم أحد أبنائه.

نشأة المدينة حسبما هو متاح من وثائق ترجع إلى القرن السابع عشر، ويبدو أن سليمان صولنج أو أحد أبنائه قد قام بتغيير عاصمته إليها، ومن الثابت أنها ومنذ النصف الثانى من القرن السابع عشر أصبحت مركزا سياسيًا وحضريًا لدارفور.

فى المدينة الكثير من آثار القصور والمبانى التاريخية التى تم استغلال جزء منها دون مراعاة لقيمتها التاريخية، المعروف أن قصر السلطان كان بالضفة الشمالية لرهد تندلتى (فولة الفاشر) وحول القصر منازل لموظفى الديوان الكبار والخدم والعبيد وبالضفة الجنوبية «تمباسى» أقرباء السلطان وجزء كبير من الحاشية.

وعندما لا يبقى من أثر واضح غير قصر السلطان وقبة الشيخ إسحق، فإن المسألة تعنى وأد معالم تاريخية لا يُفتَرَضُ فيه حسنُ النية بأى حالٍ من الأحوال.

والفاشر تعتبر ثانى أكبر مدن الإقليم، أهلها خليط من العرب والزنوج والبربر، اختارها السلطان على دينار عاصمة لسلطنته التى استطاعت أن تقف فى وجه الاستعمار البريطانى أكثر من ١٨ عامًا مثلما اختارها أجداده.

بمرور الزمن تحول قصر السلطان إلى منتجع لسكان المدينة يترددون عليه فى المواسم والأعياد، وينصحون زوار مدينتهم بالتجوال فى غرفه.. القصر بدأت تهب عليه رياح الإهمال بعد أن غابت عنه زحمة الزائرين ولم تعد العناية به كما كانت فى السابق.

بعد الانتهاء من بنائه، تحول إلى معرض للهدايا والغنائم التى كانت ترد إلى السلطنة، لمجاورته لمقر سكن السلطان، لكنه تحول بعد اندثار دولة السلطان إلى

مقر رسمى للكولونيل «كيلى» قائد القوات البريطانية فى دارفور.

فى ظل الحكم الوطنى، تقلب القصر فى كل الاتجاهات، فتارة هو المقر الرسمى لمديرية دارفور، وأخرى يصير ناديا للضباط إلى أن أصدر الرئيس الأسبق جعفر نميرى قرارًا فى عام ١٩٧٧، بتحويل القصر إلى متحف تابع لإدارة الآثار، بعدها شرعت السلطات فى تهيئة المكان ليكون متحفا لائقا باسم السلطان الذى حكم ودافع عن دارفور إلى آخر لحظة فى حياته.

عند مدخل القصر الرئيسى توجد «طبلة» ضخمة معلقة على حامل خشبى تزن حوالى ٢٠٠ كجم، محيطها يتراوح بين مترين وثلاثة أمتار، هذه الطبلة الضخمة كانت تستخدم لإعلان الأوامر السلطانية على الشعب كما كانت تستخدم فى التنبيه فى حالات الحرب والمناسبات الهامة، وفى الداخل، تتمدد عشرات الحجرات التى كان السلطان ونساؤه وخدمه وحشمه يهيمون فيها، والتى حولتها إدارة المتاحف إلى المعرض.

موظف القصر الذى يحفظ تاريخه عن ظهر قلب تجول معنا، وهو يشرح لنا كل ركن من أركانه الفسيحة، فالمتحف ينقسم إلى ثلاثة أجنحة رئيسية، الأول اسمه «الجناح الحربى» ويضم أدوات الحرب المختلفة، خاصة السيوف التى حارب بها السلطان وجنوده، والأسلحة الأخرى البيضاء التى استعملها أو أُهديَت إليه، والدروع والطبول السلطانية الضخمة.

علم السلطنة وهو من القماش، مكتوب عليه بعض أسماء الله وأسماء الرسل والخلفاء الراشدين، بجانب أسماء أجداد السلطان، وبعض الأذكار والآيات القرآنية وهناك أيضًا الأبواق الضخمة وعدد من الأدوات الحربية والسكاكين جيدة الصنع والفؤوس وبنادق بدائية الصنع.

الجناح الثانى خُصِصَ لمتعلقات السلطان التى تشمل ملابسه الرسمية، الجُبة الحمراء التى اشتهر بارتدائها فى ساعة الشدة وأزمنة الدمار والإعدامات، وجُبَة السلام التى كان يرتديها لتوزيع الهدايا والمكرمات فى المناسبات السعيدة وأثناء استقبال الوفود الرسمية، وهى بيضاء تنتهى بألوان مزركشة مصنوعة من القطيفة.

كما يضم أدوات زينة السلطان، منها «ساعة جيب» مهداة إليه من أحد ملوك الحجاز وخاتم السلطان وعمامته الرسمية، وبعض النقود السلطانية، وتسمى فى تلك الفترة بـ«رضينا» وبعض الوحدات الصغيرة وتسمى «المليم» والبريزة والعشرية وكانت تصك فى مدينة الفاشر.

وقد شرح الموظف لنا وظيفة كل قطعة من مقتنيات القصر، أبرزها راتب الإمام المهدى ومصحف مكتوب بخط اليد، ومسبحة، ووثيقة واحدة مكتوبة بخط يد السلطان على دينار، بها أوامر لأمراء البلدات.

عند مدخل الجناح المخصص لمتعلقات السلطان يوجد كرسى العرش الذى طاله الإهمال وهو ضخم، مطلى بماء الذهب، مفروش بقماش من القطيفة، تقوم على جانبيه حربتان ضخمتان للحرس السلطانى، فضلا عن أوان حجرية وأخرى خزفية بأحجام مختلفة وألوان زاهية يغلب عليها اللون الأحمر والرمادى، وهى تسجل فترات السلم.

من بين محتويات هذا القسم بعض أدوات صيد السمك ومجموعة شراك مصنوعة من لحاء الأشجار، بعضها من عصب الحيوانات تستخدم للإمساك بالطيور.

***

أما الجناح الثالث فقد خصص لأدوات زينة نساء السلطان الـ٢٥، هذه الأدوات تمثل تحفًا فنيةً، حيث تشير المواد التى صُنِعَت منها إلى مدى الترف الذى كانت تتمتع به نساء السلطان، منها أدوات زينة عاجية ونحاسية وذهبية وأخرى خزفية مزركشة وبعض الأوانى المنزلية كأباريق القهوة وقدور الطهى.

ينتهى جناح السلطان بباب من خشب الأبنوس ملصقٌ عليه صورة فوتوغرافية مكبرة لوزير تجارته محمد الشيخ السماوى، وهو فى طريقه إلى مصر «الريف» كما يطلق عليها أهل دارفور، وقد التقطت هذه الصورة سنة ١٩٠٨ بجوار قبة الإمام المهدى فى أم درمان.

أهم جزء فى القصر، وهو المكان المخصص للسلطان، صالون متسع يضم بعض

الأوانى الفخارية والجلدية وبعض المصنوعات اليدوية من السعف «جريد النخل» التى تنفرد بها ولايات دارفور الحالية.

ومتحف السلطان على دينار لا يقتصر على عرض متعلقات وآثار آخر سلاطين دارفور، فهو فى الواقع يتسع ليقدم عرضًا هادئًا لتاريخ السودان بأكمله، ومن يغلق باب المتحف وراءه يمر بعدد من المراحل التاريخية فى تاريخ السودان، بدءًا بحضارة ما قبل التاريخ، والمرحلة التى تلتها وهى «حضارة كرمة السودانية» التى ازدهرت فى الفترة ما بين ٢٠٠٠ إلى ١٨٥٠ قبل الميلاد، وهى أول حضارة سودانية عرفت صناعة النحاس وكان أهلها يعملون بالزراعة كحرفة رئيسية.

ويضم المتحف السلطانى من مخلفات تلك الحقبة عددًا هائلاً من الأوانى الفخارية المختلفة فى أحجامها وأشكالها من الحقبة التى سبقتها من حيث الحجم والشكل والزخارف.

من مقتنيات تلك المرحلة يضم المُتحف مجسمات للمرأة على هيئة تماثيل بأحجام مختلفة وكثيفة العدد، وتحوى غرف عصر «كرمة» عددًا من أرجل «العناقريب».. وأعدادًا كبيرةً بأحجام مختلفةٍ من أمواس الحلاقة المصنوعة من البرونز، أهالى الفاشر يتميزون بذاكرة قوية سواء بالنسبة لكبار السن أو حتى الأجيال الجديدة، خصوصا فيما يتعلق بأمور تاريخهم السياسى.

من بين الروايات التى يتبادلونها عن السلطان على دينار أن أهل دارفور اختاروه ليتولى قيادة السلطنة، دارفور، ورئاسة حكومة الظل، لتحرير دارفور من المهدية فى أعقاب اغتيال أبو الخيرات، السلطان الذى خاض معارك عنيفة مع المهديين أشهرها معركة «كررى» التى استمرت ستة أيام.

فى هذه الأثناء تمكن السلطان حسين محمد عجيب أبو كودة من الإطاحة بسلطة المهديين فى دارفور فى أبريل ١٨٩٨م، وأعلن استقلال سلطنة دارفور الإسلامية، وقال أمام الجموع الحاشدة من أهل دارفور: «يا أهلنا ربنا خلصنا من التركية والمهدية، وكل زول (أى شخص) يعيش حرًا بدون عبودية، ربنا يا أهلنا أكرمنا وعتقنا».

كانت العلاقة بين أبو كودة وعلى دينار شائكة لذا استشار أبو كودة رجاله محل ثقته،

فأشاروا عليه أن يحارب الأمير على دينار.

ولما طلب على دينار من أبو كودة أن يتنازل عن زعامة سلطنة دارفور ويتعاون معه فى إدارتها، اشتعلت نار الحرب بين الرجلين، فجمع على دينار جيشًا كبيرًا للزحف إلى دارفور، وتيقن أبو كودة أنه ليس فى وسعه المقاومة، فأرسل إلى على دينار معتذرًا ومعترفًا له بالسلطة فى دارفور.

أدرك السلطان على دينار أن هناك رغبة من حكومة السودان (التى كانت تخضع لسيطرة الإنجليز وقتها) فى ضم دارفور إليها، وتقويض استقلالها، فأرسل إلى حاكم السودان «كتشنر» يعلن قبوله التبعية الاسمية لحكومة السودان، شريطة الاعتراف به سلطانا على دارفور، وشاءت الأقدار أن تكون سياسة حكومة السودان فى تلك الفترة هى عدم التدخل فى شئون دارفور، حيث قرر الإنجليز أن يرضوا بسيادة اسمية عليها، وتركوا أمرها لواحد من أبنائها، فكان الاعتراف بعلى دينار سلطانًا على دارفور فى مايو ١٩٠١م، شريطة أن يرفع العلمين المصرى والإنجليزى فى عاصمته الفاشر، وأن يدفع جزية سنوية مقدارها ٥٠٠ جنيه.

***

على دينار طبق نظامًا إداريًا متطورًا لتسيير دفة الحكم فى دار فور، فَكَوَّنَ مجلسًا للشورى، وعين مفتيًا لسلطنته، ومجلسًا للوزراء، وأسس جيشًا، وأوكل تدريبه لضابط مصرى، خاض عددا من النزاعات الداخلية لتثبيت سلطته، منها عصيان بعض القبائل، واحتلال الفرنسيين لسلطنة «دار وداى» تشاد المجاورة ١٩٠٩م، واستسلام سلطنة «دار سلا» للفرنسيين.

سمعت من شخصيات سودانية معجبة بالسلطان أنه كان محبا للنساء، وأن قصره كان يضم عشرات من الجوارى، وأنه كان ينجب من الزيجات والجوارى، حتى أن عدد أحفاده زاد على مائة حفيد، الكثير منهم مازال يعيش في أوروبا والولايات المتحد بينما فضل بعضهم البقاء فى الإقليم، ويحظون باهتمام ورعاية الدولة، حتى أن مدير منزل والى الفاشر هو أحد أحفاد على دينار كما عرفنا من كبار المسئولين.

المفارقة أن مقر الوالى لا يبعد كثيرا عن قصر السلطان، وكان للإقليم عملته

الخاصة، وتدير شئونه حكومة فيدرالية يشارك فيها زعماء القبائل، هذه الفيدراليات كانت مستقلة تمامًا حتى دخول دارفور الحقبة التركية.

ارتبط السلطان بعلاقات متميزة مع مصر، ففى عهده انتعشت البعثات التعليمية، وأرسل الكثير من أبناء الإقليم لتحصيل العلم والمعرفة الدينية من مدارس وجامعات مصر التى كان الأزهر أهمها، حتى أن هناك فى صحن الأزهر حاليًا رواقًا باسم دارفور، مازال قائما حتى الآن، وكان السلطان على دينار يرسل القوافل الضخمة التى تضم آلاف الجمال محملة بالمواد الخام من الصمغ والجلود والعسل تسلك درب الأربعين الشهير، مخترقة الصحراء بطول أكثر من ألفى كيلو متر حتى تصل إلى مدينة أسيوط بصعيد مصر، ثم تعود مرة أخرى بالملابس والبضائع والكتب أيضا.

***

فى مدينة الفاشر تحديدا توجد طائفة يطلقون عليها «أبناء الريف» هم عبارة عن بقايا المزارعين والمعلمين والصناع المصريين، الذين دعاهم السلطان على دينار، ومن سبقه من السلاطين للإقامة بدار فور، ونقل ما لديهم من خبرات ومعارف إلى أهالى الإقليم.

أحفاد أبناء الريف مازالوا يشغلون العديد من المناصب ويسيطرون على الكثير من الحرف الفنية هناك حتى الآن، ومعروفون بين باقى السكان بلون بشرتهم الفاتح، هؤلاء ذابت هويتهم وأصبحوا يجمعون بين شكل ولكنة المصريين والسودانيين، ويعتبرهم الأهالى رمزًا عمليا على وحدة الدم والمصير التى تربط بين شمال النيل وجنوبه.

خلال الحكم التركى الذى استمر نحو ١٠ سنوات، اتجه أهل دارفور لأسلوب المقاومة، الأمراء والأعيان شكلوا حكومات ظل كانت مسئولة عن قيادة جيش دارفور الموحد الذى كان يشن عملياته ضد الجيش التركى.. الإقليم شهد عدة ثورات، أشهرها ثورة السلطان هارون التى دحرها غوردون باشا عام ١٨٧٧م، وثورة مادبو بمدينة الضعين، وثورة البقارة، وعند اندلاع الثورة المهدية سارع الأمراء والزعماء لمبايعة المهدى ومناصرته حتى نالت استقلالها مجددًا.

فى أغلب فترات تاريخها، ظلت دارفور سلطنة مستقلة عن السودان، لكن عند اندلاع

الحرب العالمية الأولى أيد سلطان دارفور تركيا التى كانت تمثل مركز الخلافة الإسلامية؛ الأمر الذى أغضب حاكم عام السودان، وأشعل العداء بين السلطنة والسلطة المركزية، فكانت نتيجته الإطاحة بسلطنة دارفور وضمها للسودان عام ١٩١٧م، وعندها أرسل محمد على جيشًا آخر بقيادة صهره محمد بك الدفتردار لضم غرب السودان إلى أملاك مصر.

كما ساعدت «الكبابيش» وهى القبيلة التى تقطن بين مصر والمناطق الغربية للسودان التى كانت تحمل البضائع من وإلى مصر من تلك المناطق، جيش الدفتردار بما احتاج إليه من جمال لنقل العتاد إلى غرب السودان وكانوا خير دليل لتحديد أماكن الآبار ومناطق المعسكرات.

سار جيش الدفتردار عقب انطلاق الجيش الأول وقبل أن يصل إلى «الأبيّض»أرسل إلى سلطانها محمد الفضل ينصحه بالتسليم فرد الفضل: «أما علمت أن عندنا العباد والزهاد، والأقطاب والأولياء الصالحين من ظهرت لهم الكرامات فى وقتنا هذا وهم بيننا يدفعون شر ناركم، فتصير رمادًا، ويرجع إلى أهله والله يكفى شر الظالمين».

لكن الدفتردار تقدم إلى كردفان دون أن يعترضه أى معترض فلما علم الوالى خرج بجنوده متجهًا شمالاً إلى منطقة «بارة» ليواجه الجيش الغازى. التقى الغزاة مع جيش «المقدوم» مسلم والى كردفان الذى عينه السلطان محمد الفضل، فاندفع جيش الأخير لا يظن سوى النصر، لكنهم فوجئوا بسقوط الجنود بالرصاص فعلموا أنه لا قبل لهم بالمواجهة وهم يحملون السيوف والرماح.

هكذا انتهت واقعة بارة بهزيمة الوطنيين وانتصار الغزاة، وسقطت كردفان فى يد الدفتردار قبل سقوط سنار فى يد إسماعيل.

لم يحاول السلطان المقاومة بل نزح إلى الفاشر ينتظر تطورات الموقف، ولم يوسع الدفتردار مداه لما هو أبعد من مدينة «الأبيّض» لندرة المياه فى تلك المناطق فأعلن محمد على باشا عدم رغبته فى فتح دارفور، بل فكر فى إخلاء كردفان والتنازل عنها لأحد الملوك ليدفع الجزية إلا أن الدفتردار أقنعه بالعدول فعدل عن ذلك فى ١٨٢٢م.

16

ليل.. بليل

خناقة بين شابين فى سوق تجارية مزدحمة، انتهت بوصول سيارة جيب تحمل فريقا من المسلحين اختطفوا معهم الشاب «جاك» الذى ينتمى إلى قبيلة الدنكا، اعتاد أن يتردد على أسواق دار فور للبيع والشراء، لكن المتمردين شكوا فى هوية الشاب، بعد وشاية حول عمله جاسوسا لحساب الحكومة السودانية، فى داخل معسكر تابع للمتمردين وسط الرمال فى منطقة تخضع لسيطرتهم جرت عملية استجوابه، ثم انتهت بقتله، بعد رفضه عرضا للعمل معهم، والقيام بعمليات ضد قوات الشرطة المركزية.

عملية اختطاف وانضمام الشاب المسيحى سانتيانو دوك وشقيقه للمتمردين، أصبحت قصة يتداولها معظم أهالى دار فور حيث كانا من بين الجنوبيين الذين فروا من أتون الحرب الأهلية فى الجنوب، واختارا دار فور للعمل والإقامة، واتخذا من تجارة الأسماك مصدرًا للرزق بين كردفان وبلدة مهاجرية قرب مدينة نيالا.

لكن المتمردين بالمنطقة لم يتركوا جاك وأخاه يعيشان حياتهما كما خططا لها، فقد فوجئ سانتيانو-٢٥ عاما- بعدة أفراد تابعين لإحدى جماعات التمرد يقتادون شقيقه جاك -٢٦ عاما- بتهمة التعاون مع الشرطة المحلية، وبعد اختطافه من سوق مدينة «مهاجرية» مطلع سبتمبر ٢٠٠٤ أمام أعين المواطنين وسط السوق أثناء النهار، دون أن يعترضهم أحد.

ولأن سانتيانو من قبيلة الدنكا أشهر قبائل الجنوب والتى يعد الثأر أحد موروثاتها فقد تتبع الخاطفين ليعرف مكان احتجاز أخيه، فى محاولة لإنقاذه من أيدى المتمردين، وخلال رحلة البحث عن جاك تعرف سانتيانو على جوزيف الذى ينتمى لقبيلة الدنكا أيضا ونزح إلى دارفور، حيث يعمل فى قسم الاستخبارات الخاص بإحدى جماعات التمرد.

سانتيانو علم من جوزيف أن المتمردين قتلوا أحد أبناء الدنكا لشكهم فى انتمائه للحكومة، دون أن يعلم جوزيف أن جاك القتيل هو الأخ الأكبر لسانتيانو الذى قال «اتخذت قرارى بضرورة الانتقام لمقتل شقيقى، فعرضت على المتمردين العمل معهم عن طريق جوزيف الذى رشحنى، باعتبارنا أبناء قبيلة واحدة»، و«رحبوا بى بشدة، لا سيما أنهم يثقون كثيرًا بالجنوبيين باعتبارهم خاضوا حربا طويلة مع الخرطوم، فبادروا إلى تسليمى سلاحا آليًا بعدما أديت أمامهم القسم. وعندما عرفوا أننى ماهر فى قيادة السيارات خرجت مع بعض قادتهم بمهمات فى عدد من معسكرات التدريب لتفقد أوضاعها».

وأضاف «ذات ليلة خرجت إلى الجبل بمنطقة فى مدينة مهاجرية فى مهمة استطلاع بهدف التأمين، وفى وقت الغروب غافلت من معى وقبضت على سلاح أحدهم، قتلت اثنين بينما تمكن الثالث من الفرار بعد إصابته، وهربت، ثم سلمت نفسى للشرطة بعد أن أخذت بثأر أخى».

سانتيانو يردد: «لم أكن أنوى حمل السلاح ضد أحد. لكن المتمردين دفعونى للثأر لشقيقى من القتلة، وندمى الوحيد هو عدم تمكنى من قتل جوزيف» لأنه يقف وراء قتل شقيقي جاك»، وإذا كان دافع سانتيانو للانضمام للمتمردين لمدة ٦ أيام فقط هو الثأر والانتقام لأخيه؛ فإن محمد كان باعثه على الخطوة نفسها هو البحث عن المال.

محمد-١٩ عاما- من قبيلة الزغاوة، سلم نفسه هو الآخر للشرطة بعد فترة عمل قصيرة مع المتمردين استمرت عدة أسابيع، فالكثير من أجهزة الأمن السودانية كانت حريصة على أن يلتقى محمد بأجهزة الإعلام المحلية والعالمية ليروى فظائع المتمردين، وخلال لقائى معه اعترف أنه فى شهر أغسطس ٢٠٠٤ قرر التوجه إلى

مهاجرية للانضمام لإحدى جماعات المتمردين بعدما أقنعه بعض أصدقائه أن بوسعهم توفير المال الذى يحتاج إليه بشدة.

لكن بمجرد وصوله إلى مهاجرية معقل المتمردين فى جنوب دارفور استقبلته مجموعة يقودها شخص يدعى عبد الكريم صالح من أصل تشادى، اصطحبه مباشرة إلى معسكر التدريب مكث فيه عدة أيام، بعدها تسلم سلاحا آليا وكلفوه بحراسة أحد مخازن الحبوب التى يستولون عليها من شحنات الإغاثة الدولية المتجهة لمعسكرات اللاجئين، انتظر شهرا كاملاً أن يمنحوه الراتب كما وعدوه من قبل، فلم يحدث، ففى أحد الأيام انتهز فرصة نوم زميله فى الحراسة، وترك السلاح بجانبه، وقرر العودة، وسلم نفسه للشرطة طواعية.

***

«مهاجرية» تعد أحد معاقل المتمردين وأقرب المدن من نيالا العاصمة الاقتصادية لجنوب دارفور.. فيها أكبر سوق لإنتاج عسل النحل الجبلى «الأحمر» المنتشر فيمختلف ولايات الإقليم، كما تنطلق منها عمليات قتل وخطف عسكريين ومسئولين حكوميين.

يصعب التمييز بين المتمردين وباقى المواطنين خاصة بعد أن أصبح التواجد الحكومى فيها محدودا للغاية، وأدى استمرار أعمال التمرد إلى تحول مهاجرية من تجارة العسل إلى سوق للمتاجرة بالبشر وباب خلفى لتجنيد وجذب شباب القبائل للانضمام إلى صفوف التمرد وإعلان الحرب على الحكومة المركزية.

الناس فى «نيالا» يتبادلون قصصا مثيرة تدور حول المبالغ التى يتقاضاها كل من ينضم إلى صفوف التمرد، وفى الليل كثيرًا ما تسمع الشباب الجالس على المقاهى وهم يتحدثون عن تفاصيل اختفاء بعض أصدقائهم ثم يكتشفون بالصدفة أنهم انضموا إلى صفوف المتمردين بمعسكرات مهاجرية القريبة ليس بدافع سياسى بل بحثا عن فرصة للكسب وهربا من البطالة القاتلة وخطر الفقر الذى يهدد الجميع.

بعض المتمردين نجح فى الاتجار بظروف الشباب القاسية والتلاعب برغبتهم فى

البحث عن حياة كريمة، كثير ممن انضموا إلى معسكرات التمرد تحت ضغط الظروف الاقتصادية أغلبهم من أبناء القبائل العربية، التقيت ببعض من سلموا أنفسهم لأجهزة الأمن بعد أن أصيبوا بخيبة أمل ووجدوا أن معسكرات التدريب ليست أفضل حالا عن باقى ظروف الإقليم.

أحدهم أبلغنى أن قادة التدريب يحصلون على المزايا والأموال بينما يدفعون الشباب الباقين إلى المواجهة مع القوات الحكومية فيكون مصيرهم القتل بلا ثمن، لهذه الأسباب أصبحت مهاجرية هدفا لمراسلى الصحف. الاتصال بين الصحفيين والمتمردين يتم عبر أجهزة «السريا» التى يعتمدون عليها فى اتصالاتهم وفى التخطيط لشن هجماتهم ضد الأهداف الحكومية.

***

الرحلة إلى مدينة مهاجرية تكشف جانبا من المعاناة الإنسانية التى يعيشها أبناء هذه المناطق فى الانتقال من مكان إلى آخر فى ظل غياب الطرق المهدة وانتشار اللصوص وقطاع الطرق مما يحول عملية السفر إلى نوع من المغامرة غير مضمونة العواقب.

للوصول إلى مهاجرية على بعد نحو ١٠٠كم شرق «نيالا» هناك طريقتان لا ثالث لهما- الأولى: استئجار سيارة خاصة ومعها حارس مسلح، وهذا أمر لا يقدر على تحمل تكاليفه سوى الأجانب والميسورين.

أما الطريقة العادية التى يعتمد عليها الأهالى، من خلال شاحنات ضخمة يطلقون عليها «البيدفورد»، أصبحت مع مرور الزمن هى الوسيلة المتاحة أمامهم، حيث يتجمع المسافرون كل مساء بوسط نيالا فى انتظار العربة التى ستقلهم إلى محطة «بليل» على بعد ساعة شمال نيالا وهى النقطة التى تنطلق منها كل الرحلات المتجهة إلى شرق ولاية جنوب دارفور.

يتزاحم الركاب بمجرد ظهور الشاحنة فى الأفق، الرجال والنساء، الجميع يسعى لحجز مكان بداخلها.. فى الخامسة تتحرك الشاحنة المتجهة نحو «بليل». تصلها وقت الأصيل، القرية بدت كبيرة ترقد المحطة فى جانبها الجنوبى الغربى.. فى

المحطة بعض أكشاك من الحديد تستخدم كمحلات للبقالة الصغيرة ومطاعم لخدمة المسافرين. وعلى امتداد السوق تنتشر بائعات الشاى يتحلق حولهن الزبائن جلوسا على جذوع شجر وعلى الأرض، السكان يقولون إن فى هذه القرية يوجد أطول ليل على وجه الكرة الأرضية، على المسافرين أن يمضوا وقتا طويلا انتظارا لوصول الشاحنة، بعضهم يضع حذاءه تحت رأسه ويستلقى على الأرض سابحا فى عالم آخر، البعض الآخر يفترش الأرض بين عربتى لورى محملتين بالبضائع.

هنا يمكن أن تسمع لهجات متعددة، كل الناس يستطيعون بسهولة التعرف على أصولهم القبلية فمثلا «رطانة» الزغاوة، معروفة لدى جميع أبناء هذه القبيلة.

***

منظر السماء وهى مضاءة بالنجوم يستحق السهر، يفخر الأهالى بروعة النجوم فى بليل فهى أجمل من نجوم السماء فى أى مكان آخر، وكذلك «زرقة» السماء واقترابها من الأرض، حتى يظن المرء أنه قادر على لمسها بيده.

مع أذان الفجر، الحياة تدب من جديد فى «بليل».. ففى الوقت الذى يشق نور الصباح ظلمة الليل تبدأ اللوارى فى إطلاق صافراتها لإيقاظ المسافرين، منطلقة إلى «مهاجرية» دقائق ثم تتوقف الشاحنة أمام نقطة تفتيش «بليل»، وفيها تتم مراجعة أوراق العربات وتسوية بعض النزاعات الصغيرة بين أصحاب السيارات والركاب الذين يماطلون فى دفع أجرة السفر.

المقعد الأمامى باللورى يسمح برؤية المنطقة والتعرف على القرى على جانبى الطريق، للوصول إلى «مهاجرية» طريقان، الأول طريق «لبدو» لا يفضله السائقون لغياب الأمن ولا تتوقف فيه حوادث النهب، الثانى طريق السكة الحديد وهو أقل خطورة بشرط أن تعبر الشاحنات مفارق «بكملتى» صباحًا والشمس مشرقة، فلا صعوبة عند عبور هذه المنطقة فى رؤية خيول اللصوص وهى مقيدة تحت الأشجار.

قطاع الطريق يمكن أن يظهروا فجأة، .. يستوقفون الشاحنة، يسرقون كل الأمتعة والبضائع وكل ما تقع أيديهم عليه، لذلك تجد المسافرين يسافرون بأقل متاع ويتفنن كل مسافر فى إخفاء أمواله، الجميع معرض للتفتيش، والضرب من جانب اللصوص للاعتراف

بما يخفى فى ملابسه، سائق الشاحنة لديه خبرة كبيرة، فى مواجهة غارات اللصوص المفاجئة.

أحيانا يحصل على نسبة مقابل إخفاء أموال الركاب، بينما يتسابق كل مسافر فى البحث عن جزء من اللورى لا يخطر على بال اللصوص يخفى فيه أمواله.

اللورى يسير شرقًا بمحاذاة السكة الحديد ،يمر بقرى صغيرة كثيرة هجرها أهلها هروبا من جحيم الحرب بين الحكومة والمتمردين، القرى أصبحت غير آمنة بعد تكرار الهجمات، وأن سكانها إما اتجهوا لمعسكرات النازحين أو استأجروا منازل بمدينة نيالا إن كانوا من الميسورين.

***

فجأة يتوقف السائق، السبب أن الركاب اعتادوا على أن يؤدوا صلاة الصبح شكرا لله على إنقاذهم من منطقة اللصوص الأكثر خطرا على طول الطريق، صوت محركات السيارة هو الشىء المعتاد سماعه طوال الطريق بعض الركاب ينامون ويستيقظون حسب انتظام صوت المحرك.

أخيرا أوشكت الرحلة على الانتهاء، ملامح المدينة بدأت تظهر من بعيد، لافتة صغيرة مكتوب عليها مدينة «مهاجرية» وبجانبها علمان، أحدهما يحمل ثلاثة ألوان الأخضر والأصفر والأزرق وهو علم حركة تحرير السودان والآخر العلم الرسمي للسودان بجانبهما علم حركة العدل والمساواة.

عند مدخل المدينة الرئيسى يوجد منزل متواضع مكون من غرفتين مطليتين بطلاء أزرق فاقع وسور من الطوب الأحمر، بجوار كل غرفة «قطية» من القش، عبارة عن مركز تابع لحركة «العدل والمساواة»، على بعد عشر دقائق منه مبنى المحلية الحكومى مكون من ٤ غرف مطلية بجير أصفر قديم، لكن فى منتصف فناء المبنى علم حركة تحرير السودان.

«أم عجاجة» معسكر النازحين الذى يتصدر مدخل المدينة هو أحد معسكرين، الآخر يقع بالجزء الشمالى ويطلق عليه «المعسكر» تم افتتاحهما منتصف عام ٢٠٠٤ وتديرهما منظمتان، «سولدرتز» الفرنسية وتهتم بالجوانب الصحية والغذائية وزرع مضخات المياه، كما تعتنى منظمة «أطباء بلا حدود» بالجوانب العلاجية.

اللورى يتوقف فى منتصف سوق مهاجرية.. السوق ممتلئة بالبضائع من كل الأصناف، فهنالك سوق الجملة، فيها الدكاكين مكدسة بالبضائع، سوق الملابس الأكثر ازدحامًا، بالإضافة إلى سوق للخضار تجاورها سوق لحوم الإبل، وعلى طرف السوق البعيد ينتشر تجار السمن، وعسل النحل وهى السلع التى تشتهر بها مهاجرية، وتجد الكافيتريات منتشرة بداخل السوق، وتنطلق من أجهزة التسجيل بها أصوات مطربين يصدحون بأغانى روطان لا يفهمها سوى أهل دارفور . وتعد سوق مهاجرية إحدى أكبر أسواق دارفور. ففى يومى الأحد والأربعاء «يومى السوق» يتدفق عليها التجار من مختلف مناطق جنوب دارفور.

مهاجرية قرية ريفية كبيرة ترقد على تبة من الرملة البيضاء الجميلة، تسكنها قبائل البرقد والبرتى والبرقو والتاما والمساليت والعرب والداجو والزغاوة وتكاد تخلو من الفور، أحياء المدينة مقسمة على أساس قبلى، فهناك حى العرب وأحياء البرقد والبرتى وهناك حى يسمى حى «جعل» تقطنه أسر لا تتزاوج مع بقية قبائل المنطقة.

مبانى المدينة عبارة عن «قطاطى» من القش والقصب مسورة بالأشواك إلا القليل من غرف الطين الأخضر وقليل جدًا من الطوب الأحمر، أما السوق فالدكاكين من الطوب بجانبها بعض الأكشاك من الحديد.

محلات الاتصالات معظمها من الطوب الأحمر مطلية بعناية عليها لافتات لجذب الزبائن.. فى أوقات القيلولة يتسلى بعض السكان بسماع أصوات المتحدثين عبر الهواتف اللاسلكية،عن طريق أجهزة الترانزستور التى مازالت تجد سوقا رائجة فى معظم أسواق مدن دار فور.

17

المسيح المنتظر فى دارفور

فى خلوة الشيخ إبراهيم، عُرف بقوة الذاكرة وسرعة الحفظ، والبلاغة فى الحديث، لفتت فصاحته ومواهبه أنظار الشيخ فقربه منه واهتم به وأولاه رعايته.

أثناء سنوات الدراسة، كان عليه أن يساعد والده فى ورشة صغيرة لتصنيع الأخشاب، وسط ظروف قاسية مثل باقى زملائه، مع ذلك كان نهما فى القراءة ومطالعة كل ما تقع عليه عينه من كتب فى شتى المجالات، وكانت تشده الصحف وما تحتويه من أخبار وحكايات.. ميوله السياسية المبكرة دفعته للسفر إلى الخرطوم، متطلعا إلى أن يحقق حلمه فى أن يكون شريكا فى صنع الأحداث التى يقرؤها فى الصحف ويستمع إليها عبر الإذاعات.

أكمل دراسته الثانوية فى مدارس مدينة نيالا جنوب دارفور، أثبت خلالها تفوقه فى المجالات العلمية والرياضية، فقرر أن يلتحق بكلية الهندسة فى جامعة الخرطوم، وكانت هذه هى البداية الحقيقية للشاب المتمرد داود يحيى بولاد الذى أصبح فيما بعد يعرف بمسيح دار فور.

سنوات معدودة تفصل بين تزعمه للحركة الطلابية فى كلية الهندسة، وبين الليلة الكئيبة التى نفذت فيها حكومة الإنقاذ حكم الإعدام بحق الشاب الدارفورى الممتلئ طاقة ووطنية، وبالرغم من قصر تلك الفترة الزمنية الفاصلة بين الحدثين، إلا أنها كانت مليئة بالأحداث الساخنة التى طغت سخونتها على ما كانت

تشهده السودان من تحول سريع قاده خصمان توافرت لهما الفرصة للتحالف المؤقت فجعلا من أقاليم السودان المترامية الأطراف مسرحًا لمغامرتهما الفريدة من نوعها حيث جرى لأول مرة تحالف بين العسكر بقيادة الفريق حسن البشير والإسلاميين بزعامة الشيخ حسن الترابى.

فى هذه الأثناء كان المهندس بولاد عائدا من الخرطوم يبحث عن فرصة للعمل أو دور فى مسقط رأسه مدينة نيالا فى دار فور، ضاق به الحال بحثا عن فرصة عمل مناسبة، اضطر إلى العودة للعمل مرة أخرى فى ورشة النجارة التى ورثها عن والده، خلال تلك الأيام التقى بالدكتور خليل إبراهيم رفيقه فى الجامعة حيث كان الأول فى الهندسة بينما الثانى فى الطب، وكانت سنوات الدراسة بالجامعة فرصة لتحالف أبناء دارفور.

وعندما وصلت الإنقاذ للسلطة فى٣٠ يونيو ١٩٨٩م، وكانت دارفور تعيش أوضاعا أمنية متدهورة وحالة من الاستقطاب الاثنى بين المجموعات العربية والأفريقية، فى الأسبوع الأول لوصولها الحكم، نجح المؤتمر الذى كان منعقدا فى الفاشر فى الوصول إلى اتفاق بين القبائل العربية الرعوية والفور المزارعين، ونصت قرارات المؤتمر على قيام الدولة بواجبها نحو بسط الأمن ونشر قوات الشرطة فى الإقليم وتوفير المياه اللازمة للرعاة لتجنيب السكان النزاعات التى تقع بين الرعاة والمزارعين من وقت لآخر، وبالفعل عاشت دارفور هدوءا نسبيا باستثناء حركة النهب المسلح فى طريق ليبيا مليط الكفرة.

كانت المرة الأولى فى تاريخ دارفور السياسى أن يضم مجلس قيادات الثورة اثنين من أبناء دارفور، بينما خلت تشكيلات مجالس قيادات الثورة فى الحكومات العسكرية «مايو وعبود» من وجود لأبناء دارفور فى مجالس قياداتها، وهو أعلى سلطة فى البلاد حيث ضم تكوين مجلس قيادة الثورة العميد التيجانى آدم الطاهر وهو من أبناء «الزغاوة» وينحدر من بيت عشائرى كبير يتولى مقاليد الإدارة الأهلية فيه آدم طاهر.

وكذلك ضم تكوين مجلس قيادة الثورة محمد الأمين خليفة من «البرتى» وكان رئيسا للجنة السلام التابعة لمجلس قيادة الثورة، كما تم تعيين الدكتور على الحاج

محمد وزيرا للاستثمار، والمهندس آدم الطاهر وزيرا بالإقليم الأوسط، بجانب ترقية اللواء إبراهيم سليمان من مدير لفرع الإمداد بالقوات المسلحة لرتبة الفريق وأسند إليه منصب نائب رئيس هيئة الأركان.. هيئة الأركان في القوات المسلحة السودانية هي السلطة التنفيذية الأولى التي تدير عصبها. كذلك تم تعيين اللواء أبو القاسم إبراهيم محمد حاكما على إقليم دارفور.

وبدأت الأطماع السياسية والتنافس بين قيادات الإسلام السياسي د. علي الحاج محمد، وداود يحيى حيث اعتبر الأخير أن وجوده خارج منظومة الوزراء بمثابة عدم اعتراف بدوره، وأن من تسلموا القيادة السياسية من أبناء دارفور لا يمثلون ثقلا قبليا مثله، ورأى أن الدكتور على الحاج آثر لنفسه موقعا فى الدولة ولم يبد حماسا لتعيين المهندس داود بولاد فى منصب سياسى أو تنفيذى فى الحكومة.

داود تقدم بطلب للحكومة للحصول على مبلغ (٩) ملايين جنيه، صرفها من أمواله الخاصة على النشاط السياسى العام، لكن طلبه تم رفضه لعدم وجود مبررات، وحدثت مناوشات ومواجهات بينه والدكتور على الحاج خرج على أثرها بولاد من البلاد معلنا تمرده وانضمامه للحركة الشعبية لتحرير السودان بقيادة جون جارنج.

***

ما أقسى على النفس أن ينقلب الرفاق إلى أعداء والأقارب إلى فرقاء ويسعى الشقيق إلى النيل من شقيقه، لكن هكذا فعل الصراع السياسى فى دار فور، رغم أن بولاد بدأ إسلاميا من أتباع الترابى، إلا أن خلافاته مع زملائه ورجال الإنقاذ، قذفت به فى أمواج الصراع السياسى العاتية ودفعته إلى اختيار اتجاه معاكس تماما.

قرر بولاد الانقلاب على الإنقاذ نتيجة خلاف مالى محدود دار بينه وبين رجل الترابى الأول فى مدينة نيالا الدكتور على الحاج، هذا الخلاف قلب حياته رأسا على عقب وتحولت مسيرة الشاب إلى مأساة إنسانية، بدأت عندما تعرف على العقيد جون جارنج قائد الجيش الشعبى لتحرير السودان وأرسل يعرض عليه الانضمام لصفوف الجيش الشعبى الذى كان العدو الأول لحكومة الترابى- البشير.

نجح بولاد فى الهرب من الخرطوم إلى أثيوبيا ومنها اخترق الحدود البرية حتى وصل إلى مقر قيادة جارنج وانخرط فى العمل وسط قواته، بل قاد فرقة خاصة من أبناء دارفور كانت ضمن جيش جارنج فى ذلك الوقت.

بولاد قام بإجراء اتصالات بأبناء دارفور فى الداخل والخارج بعد انضمامه للحركة الشعبية ،يحثهم على انتهاج خطاه وشملت الاتصالات أبناء دارفور فى المملكة العربية السعودية وكان التركيز على أبناء الفور بصفة خاصة منهم د. كرم الدين عبد المولى وأبو القاسم سيف الدين وجعفر عبد الحكم.

وسعى لتأسيس علاقة بين قبائل الفور فى جبل «مُرة» والحركة الشعبية وتم تدريب عناصر من أبناء ولايات بحر الغزال «الفرتيت» من الشباب الصغار، وأعلنت الحركة الشعبية لتحرير السودان دعمها لخلية دارفور المسلحة التى انضم إليها عبد العزيز آدم الحلو الذى ينحدر من أصول «المساليت» من ناحية والده بينما والدته من قبائل جبال النوبة، وانضم لخلية دارفور ضابط الاتصال قمر حسن الطاهر، وهو من أبناء المساليت من «القضارف» كان قد انضم للحركة الشعبية فى أخريات عام ١٩٨٧م بالنيل الأزرق.

***

ذات مساء عرض بولاد على جارنج خطة لتطويق الحكومة المركزية عن طريق الحدود الغربية وبالتحديد من جبل «مُرة»، وكانت الخطة تقوم على أساس أن يقود بولاد حملة عسكرية، تكون بمثابة قوة استطلاع تتمكن من الوصول إلى الجبل وتهيئ الظروف لإقامة مهبط للطائرات المروحية أعلى قمته ثم تقوم المروحيات بنقل المؤن والذخائر من إريتريا إلى دار فور.

لكن جاءت الريح بما لا تشتهى سفن بولاد، وعلمت الخرطوم بالخطة فاستعدت لها بقوات شعبية قوية وخطب الدكتور على الحاج وسط الجماهير لحثهم على التصدى لمن سماهم «الخونة» والعملاء.

وبدأت الحملة العسكرية من إقليم بحر الغزال باتجاه جبل «مُرة» ،واصطدمت بنقاط القوات المسلحة فى طريق «راجا حفرة النحاس»، وبعد دخول قوات داود بولاد

لإقليم دارفور بدأت حملة واسعة لقيادات دارفور لاستنفار الأهالى ..وقاد حملة الاستنفار الدكتور خليل إبراهيم من الفاشر والمهندس على شمر عبد الله وكان الأول من قيادات الدفاع الشعبى فى دارفور والثانى مسئول سياسي فى الإقليم. ونشط الدكتور على الحاج محمد فى دعم القوات المسلحة ومتابعة تنفيذ خطة القضاء على داود يحيى بولاد بنفسه.

ووسط ظروف مناخية وجغرافية قاسية تعرضت قوات بولاد للهلاك بين الأحراش الاستوائية فى المناطق المحيطة بمنطقة بحر الغزال ،فهرب جزء كبير منها عائدا للجنوب عبر حدود أفريقيا الوسطى بينما تمكن هو من الوصول بمفرده بدون أى سلاح إلى إحدى قرى نيالا، فى هذا الوقت كانت الحكومة تكثف من نقاط المراقبة للإيقاع به ورفاقه.

***

فى إحدى الليالى المظلمة، قابل بولاد أحد أبناء قبيلته «الفور» وتحدث معه بـ«الروطان» التى كان يجيدها، وأخبره بأن الحكومة تبحث عنه ويرغب فى مأوى مؤقت وبعض الطعام والمياه، بالفعل أحضر له هذا الريفى الطعام ودبر له المأوى، على أمل أن يلتقط بولاد أنفاسه ثم يكمل رحلته إلى جبل «مُرة» وسط الظلام.. بولاد طلب من القروى شفرة حلاقة، وبعض الملابس ليتنكر ويتخفى فيها من أعين الشرطة المنتشرة فى القرى والمدن.

وحدث ما لم يكن يتوقعه فقد قام القروى بإبلاغ ضابط شاب يدعى «خالد» بأنه يعرف مكان يحيى بولاد، ولم يصدق الضابط الصغير ما يسمعه، إلا بعد أن اصطحبه الريفى معه إلى الكوخ الذى يقبع فيه بولاد، وبالطبع بعد أن تم القبض عليه أجريت له محاكمة سريعة ونفذوا فيه الإعدام بطريقة بشعة.

وخاطب الدكتور على الحاج الجماهير فى منطقة «كاس» بعد اندحار الحملة قائلا: «إن العنصرية والجهوية لا سبيل للتعامل معها بغير الحسم العسكرى وإن التمرد العسكرى الذى قضى على الجنوب لن يسمح له بتدنيس أرض القرآن الطاهرة فى دارفور» .

اللافت أن الدكتور على الحاج الرجل الثانى بعد الترابى فى حزب المؤتمر الشعبى المقيم حاليا فى ألمانيا منذ انفجار التمرد عام ٢٠٠٣م، تعتبره السلطات أحد مخططى الفتنة فى الإقليم، فقد شاءت الظروف أن يقف وسط الجماهير أثناء مواجهة الإنقاذ لحملة بولاد ويصف رفيق دربه السابق بأنه قد تنكر للإسلام والعقيدة وتخلى عن مبادئه فى سبيل مغانم الدنيا وأن الأيدى الأجنبية التى دعمت بولاد بالمال والسلاح مصيرها البتر فى دارفور.

فقد كان على بولاد وقواته أن يعبروا مسافة شاسعة فى موسم الجفاف. وكانت المياه الوحيدة المتوفرة موجودة فى آبار عميقة تقع فى القرى وعليها حراسة مشددة، بل إن المنطقة كانت تحتلها جماعات عربية من رعاة الماشية على عداء شديد للجيش الشعبي. وسرعان ما تعقبت الحكومة وحدة بولاد وأوقعتها مستخدمة فى ذلك الجيش النظامى وميليشيا عرب بنى هلبة.

هربت حفنة من المقاتلين وسارت شهورًا عبر جمهورية أفريقيا الوسطى فى طريق العودة إلى جنوب السودان. وأُسر بولاد واستجوبه المحافظ العقيد الطيب إبراهيم، وهو طبيب عسكرى وإسلامى بارز يُعرف بـ «السيخ» بسبب مهارته فى استخدام أسياخ حديد التسليح أثناء المظاهرات الطلابية، حين كان حارسًا خاصًا لزعيم الإسلاميين بجامعة الخرطوم، داود بولاد، وليس هناك تسجيل للمقابلة بين الاثنين، ولم ير أحد بولاد بعد ذلك، والأسوأ من ذلك أن مفكرته صودرت، وكانت بها أسماء وتفاصيل عن كل عضو فى شبكته السرية.

القضاء على حملة بولاد، ساعد حكومة الإقليم بقيادة العقيد طبيب الطيب إبراهيم محمد خير على بسط الأمن في مدن وقرى الإقليم، وبدء حملة لجمع السلاح طوعا من الأهالي وخلال الشهر الأول من إعلان الحكومة العزم على جمع السلاح نجحت فى الحصول على ثلاثة آلاف قطعة بمحيط نيالا وحدها.

18

المبشرون.. قادمون

فى رحلة موحشة لا تخلو من المخاطر ،اختار الكاهن الإيطالى دانيال كوبونى أن يصطحب ٩ من رفاقه الكهنة ويتجه إلى السودان عبر نهر النيل.. كوبونى قرر أن تكون محطته الأولى هى مدينة جوبا فى أقصى جنوب السودان، هناك وضع دانيال ورفاقه أول لبنة لنشر المسيحية بين أهل جنوب السودان ،وسط شعب لم يعرف سوى الوثنية دينا وعقيدة متوارثة.

مع مرور الزمن تحولت رحلة كوبونى للجنوب إلى أسطورة، يدرسها طلاب اللاهوت فى الجامعات الأوروبية، بعد أن أصبح رمزا للغزو المسيحى ليس للسودان وحدها بل فى القارة السمراء كلها.

فى أفريقيا ارتبط التبشير، بالحروب والنزاعات، وارتدى المبشرون قناع العمل الإنسانى، لكن الأمر بالنسبة لدارفور كان دائما مختلفا وقد ظلت مهمة المبشرين فيها صعبة ومعقدة،فمعظم سكان الإقليم من المسلمين السنة، ولا يعرف أهل دارفور من دور العبادة سوى الزاوية والمسجد، لذلك ظلوا بمنأى عن مرمى الأنشطة التبشيرية، حتى تمت إثارة الأزمة الأخيرة.

بعض المنظمات الكنسية انتهزت الظروف الجديدة، وحاولت التواجد داخل معسكرات اللاجئين حتى اعتقد بعض السودانيين أن الحملات الكنسية لم تكن فى السابق تستهدف الجنوب وحده، والآن أصبح القطر كله هدفًا لعملياتهم المنظمة.

الحقيقة أن النزاعات والحروب الأهلية فى السودان، كانت المدخل الملكى للمنظمات الغربية المرتبطة بالمشروع الكنسى، هذا المشروع ترك رصيدا ضخما من عدم الثقة لدى الرأى العام، فضلا عن اتهامه، بإثارة واستغلال الاضطرابات والحروب الأهلية، منذ اندلاع أول تمرد عسكرى فى جنوب السودان عام ١٩٥٥م مرورًا بكل محطات الحروب الأهلية الدامية فى الجنوب وصولا إلى ما حدث فى جبال النوبة وانتهاء بما يجرى على أرض دارفور.

مهمة تحجيم معابر الثقافة العربية الإسلامية فى القارة الإفريقية على الدوام كان الهدف الأسمى لُلعديد من الكنائس العالمية فى أوروبا.

***

المدقق فى تحليل أسباب الصراعات المحلية فى دار فور يكتشف أن الإسلام لم يجد له مزاحمًا فى هذا الإقليم حتى الوقت القريب، فالمسيحية قد تمددت فى جنوب كردفان وجبال النوبة . واستطاعت أن تحوز بعض النفوذ فى الجنوب، كما أصبح لها مراكز للحركة فى عدد من مناطق السودان المختلفة، المؤكد أن دارفور لم تكن على خريطة تلك الكنائس، حتى وقت قريب، فقد توافدت الهجرات الأفريقية عبر حدود دارفور المفتوحة من جهة الغرب، لكن أغلب من وفد إليها فى هذه الهجرات كانوا من المسلمين – رغم التواجد المسيحى القوى فى الدول الملاصقة لها، فالمهاجرون كانوا فى الغالب من المسافرين فى طريقهم إلى الحج، أو من الرعاة الوافدين من شمال نيجيريا وغيرها.

هؤلاء وأولئك كانوا يغدون عابرين، فمنهم من يستقر بها ومنهم من يواصل سيره وربما استقر بعضهم فى منطقة أخرى من مناطق السودان، شمالاً أو شرقًا، ووسطًا، ثم يندمج ويتداخل مع قبائلها وينتسب إليها، أو يظل محتفظًا بكيانه القبلى.

الآن، اختلفت الأوضاع فى أعقاب اندلاع أعمال التمرد فى دارفور، فقد ترتب عليها تفاقم المعاناة الإنسانية، التى سرعان ما تحولت إلى كارثة، جرى استغلالها وتوظيفها ببراعة من قبل القوى العالمية، واصطلح على تسميتها فى الإعلام العالمى على أنها أكبر كارثة إنسانية فى العصر الحديث، فتدافعت المنظمات الغربية بكثافة

إلى دارفور تحت شعار الإغاثة والعمل الإنسانى ليمارس بعضها دورًا غامضا فى محاولة لتبديل الواقع الدينى الديموغرافى المتمثل فى سيادة واستقرار العقيدة الإسلامية فى نفوس مواطنى الإقليم.

وللإنصاف لم تنتقص تلك المحاولات المحدودة للتبشير من الدور الإنسانى الحيوى الذى تقوم به هذه المنظمات وتأثيره الإيجابى فى التخفيف من هول الكارثة، فقد لمست أن أجهزة الأمن السودانية تضع معظم أنشطة هذه المنظمات تحت المجهر الأمنى، وترصد بدقة تحرك أى عضو فيها يحاول الانحراف عن الهدف المعلن وهو تقديم العون الإنسانى.. السلطات قامت بطرد العديد من الموظفين الغربيين الذين حامت حولهم شبهات التورط فى أعمال غامضة، خاصة أن معظم العاملين المحليين مع هذه المنظمات لديهم حساسية ضد أى محاولة للانحراف بالعمل الإنسانى إلى العمل الكنسى.

معظم السودانيين لديهم إدراك عميق، للدور الذى تسعى إليه مراكز التبشير العالمية ،ويحفظون تاريخ «الكومبونى» كواحدة من أشهر وأقدم مراكز التبشير العلنية، فالكثير منهم إما تلقى تعليمه الأولى فى مدارسها أو تخرج فى أحد فروعها المنتشرة بجميع أنحاء السودان باستثناء إقليم دار فور، فهو الإقليم السودانى الوحيد تقريبا الذى يخلو من أى مظاهر كنسية.

وعلى الرغم من خضوع مدارس الكومبونى لإشراف الحكومة السودانية..فإن بعض السودانيين مازالوا مقتنعين، بأن لها دورا تبشيريا نشطا.. الكوبونى تشرف على حوالى١٢٠ مدرسة تخضع جميعها لإشراف الكنيسة الكاثوليكية فى روما، المفارقة أن من بين خريجيها فقهاء أو أصحاب طرق صوفية ورؤساء أحزاب سياسية كبيرة فى السودان.

ومن أشهر هؤلاء الدكتور حسن الترابى زعيم المؤتمر الشعبى، والصادق المهدى رئيس الوزراء الأسبق زعيم حزب الأمة السودانى وكثيرون غيرهم من رجال الدين والسياسة والمشاهير..قسم من المثقفين السودانيين يرى أن هذه المدارس تقدم خدمات مجانية وملابس، ووجبات غذائية فى مجتمع فقير بهدف لفت أنظارهم والتأثير فى عقيدتهم، وصفهم أحد المسئولين السودانيين «أنهم يضعون السم فى

العسل ويقدمون خدمات مبهرة للتلاميذ أبناء الطبقات الفقيرة الدارسين بها».

روى المسئول تجربته الشخصية حيث صمم والده على نقله منها بسبب إصرار المسئولين فيها وضع حصة الدين المسيحى فى منتصف اليوم الدراسى حيث اكتشفوا أن معظم التلاميذ يتجنبون حضورها عندما كانت فى آخر اليوم الدراسى، بعدها تأكدوا من سوء نية القائمين عليها، وغادرها إلى مدرسة حكومية أخرى.

***

بداية ظهور «الكومبونى» فى الحياة الثقافية السودانية ترجع إلى أواخر القرن التاسع عشر، عندما انطلقت الحملات الكنسية المبكرة جنوب السودان على يد الكاهن الإيطالى الشهير «دانيال كوبونى» الذى وصل إلى منطقة جوبا جنوب السودان عام ١٨٥٧م برفقة عدد قليل من رجال الدين الأوروبيين، واستمر كوبونى فى مواصلة رسالته حتى وفاته فى الخرطوم فى أكتوبر عام ١٨٨١م، بعدما أصبح المنسق الرئيسى لأوسع الحركات الكنسية الأوروبية التى رفعت شعار نحو «أفريقيا مسيحية».

دانيال كوبونى كان يهدف إلى نقل فكرة مدارس غير القادرين من أوروبا إلى أفريقيا عبر السودان، فقام برحلة جريئة إلى السودان استغرقت حوالى٦ أشهر حتى وصل ومن معه إلى مدينة جوبا جنوب السودان، وهناك تعرض الوفد إلى الإصابة بالأمراض والأوبئة مما أدى إلى وفاة رفاق كومبونى التسعة بينما ظل هو يصارع المرض حتى وصل الخرطوم ومنها إلى القاهرة حيث تلقى العلاج، إلى أن عاد إلى روما ليستكمل الشفاء.

رغم المخاطر التى أحاطت برحلته الأولى، وفقدان كل رفاقه خلالها، صمم دانيال كمبونى على العودة مرة أخرى لهذه البلاد، وبالفعل عاود الكرة بعد عامين حيث وصل إلى القاهرة التى أسس فيها مدرسة مسائية لتعليم الأفارقة المقيمين فى مصر، واشترى مقرا مازال قائما حتى الآن فى منطقة مصر القديمة.

خطة دانيال كانت تقوم على شراء العبيد الأفارقة وتحريرهم وتعليمهم اللغات الأجنبية «بجانب غرس أسس العقيدة المسيحية، فى نفوسهم، بعد أقل من عام أصبح

لديه كوادر محليون بدأ فى تجميعهم والسفر معهم من مصر إلى السودان وبالتحديد إلى الجنوب، ففى مدينة جوبا أسس النواة الأولى للكومبونى التى أخذت تنتقل من جوبا إلى مختلف الولايات السودانية حتى وصلت إلى العاصمة، التى شهدت تأسيس أول فرع للكومبونى بوسط الخرطوم عام ١٩٢٨، واستمرت الكنيسة تتوسع فى إنشاء المدارس التابعة لها فى مدينة الخرطوم ومحيطها من المدن الكبرى، حتى أصبحت تغطى أكبر المناطق كثافة بالسكان.

داخل مكتب متواضع فى مقر الكومبونى الرئيسى بالخرطوم حدثنى رجل الدين المسيحى من أصل مصرى «بولس أنيس» المشرف العام على فرع العاصمة، قائلا: الكومبونى لا تفرق بين السودانيين سواء من حيث العقيدة أو الانتماء القبلى.

تصل نسبة التلاميذ المسلمين ٧٠٪ من إجمالى الطلاب فى الأفرع المختلفة، فالهدف هو تقديم الخدمة للجميع، باعتبارها مؤسسة اجتماعية غير هادفة للربح، حيث تخضع جميع أنشطتها لإشراف وزارة التربية والتعليم السودانية، كما أن مناهجها الدراسية كانت تتبع مؤسسة أكسفورد البريطانية حتى عام ١٩٧٥م ، أما الآن فأصبحت تدرس المناهج السودانية مثل باقى المؤسسات التعليمية التقليدية.

المشرفون يحرصون على أن تكون مؤسسة تربوية بالدرجة الأولى،حسب كلام أنيس بولس.. أما الحصص الدينية فيتم الفصل فيها بين الطلاب المسيحيين والمسلمين، كما يتم تكليف رجل دين مسيحى بالقيام بمهمة تدريس المنهج المسيحى بينما يقوم بتدريس حصص الدين الإسلامى، متخصصون فى الفقه والشريعة الإسلامية، مناهج المدارس التابعة للكوبونى تتضمن حصصا مشتركة للأنشطة والأخلاق العامة، حضورها اختيارى للجانبين، حيث يقوم بالتدريس رجال الدين من الجانبين بالتناوب.

تهمة التبشير تلاحق هذه المؤسسة لكن بولس أنيس يفندها قائلا: لم يثبت طوال تاريخها الطويل فى السودان أن قامت بأى أنشطة خارج نطاق عملها التعليمى والتربوى، فهى فى النهاية عمل خيرى وإنسانى بالدرجة الأولى، فوجود هذه المؤسسة على الأراضى السودانية. ساهم فى تعليم الكثير من أبناء الطبقات غير القادرة حتى وصل بعضهم إلى أعلى المراكز داخل السودان وخارجها، ورغم وصول

حكومات إسلامية للحكم فى السودان فلم يفكر أحد فى إغلاقها نظرا للدور الحيوى الذى تلعبه فى توفير نوعية متميزة من التعليم شبه المجانى فى ظل ظروف اقتصادية صعبة يواجهها أبناء الطبقات المحدودة الدخل وغير القادرين.

بالنسبة لتمويل الكومبونى يتحدث المشرفون فيها عن أن أغلب موارد التمويل يتم تدبيرها بطرق ذاتية، بجانب تبرعات بعض الشخصيات السودانية الذين تلقوا تعليمهم فى الكومبونى، بجانب جهود القائمين عليها فى توفير الدعم المالى اللازم سواء من الداخل أو من الخارج عن طريق مؤسسات تمويل دولية- بعضها كنسى- بهدف تغطية التكاليف المطلوبة للعملية التعليمية.

بتفاؤل تحدث المصرى بولس أنيس: فى مطلع عام ٢٠٠٠ تم افتتاح أول كلية جامعية تابعة للكومبونى بعد أن كان دورها يتوقف عند مرحلة التعليم ما قبل الجامعى، وأمام إلحاح أولياء الأمور قررنا إنشاء أول كلية لعلوم الحاسب والتكنولوجيا يدرس فيها حاليا حوالى٤٠٠ طالب بمصاريف رمزية أيضا، مقارنة بأسعار التعليم الجامعى الخاص، وحتى الآن أثبتت التجربة نجاحا كبيرا وربما يتم افتتاح كليات جديدة تلبى الطلب المتزايد على التعليم الجامعى فى السودان.

***

بعيدا عن الكوبونى ودورها المؤثر فى مختلف أنحاء السودان، فقد كان للاحتلال البريطانى دور بارز فى فتح أبواب السودان أمام حملات الكنائس الأوروبية ،عندما أصدر الاحتلال قانون المناطق المغلقة عام ١٩٢٢م الذى تم بمقتضاه منع الشماليين المسلمين من دخول الجنوب ومنع مسلمى الجنوب من ممارسة عباداتهم، كما حرمهم أيضا من التعليم، فى المقابل فتح الكنائس أمام أبناء باقى الديانات الأخرى وشجعهم على مواصلة رحلة التعليم.

بعد الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢م، ثم للسودان عام ١٨٨٩م اتخذت الحملات الكنسية بعدًا آخر من خلال العمل على منح الحرية الكاملة لرجال الدين المسيحى للانتشار فى السودان ثم فى مرحلة لاحقة جرى التركيز على جنوب السودان تمهيدا لفصله مستقبلاً عن الشمال (مساحة الجنوب ٧٠٠ ألف كم مربع) حيث إن أغلبية سكان الجنوب وثنيون.

فى عام ١٩١٧م استبدلت قوات الاحتلال كل الجنود الشماليين بجنود جنوبيين.. فى تلك المناطق، تم اعتماد الإنجليزية لغة رسمية عام ١٩١٨م بدلاً من العربية، وشجعت على كتابة لغات قبائل تلك المناطق بالأحرف اللاتينية، ثم أصبح الأحد العطلة الأسبوعية، هذه الإجراءات الهدف منها انفراد الاحتلال بالجنوبيين كما قرروا ومنع المسلمين من ارتداء أزياء توحى بأنهم مسلمون.

مع نشوب حركة التمرد الجنوبى التى قادتها الحركة الشعبية بقيادة جون جارانج عام ١٩٨٣م بدأت الأنشطة الكنسية تدخل مرحلة جديدة،حيث انتقلت إلى الخرطوم مع النازحين والفارين من الحرب فى الجنوب ومع تطور الحرب وتزايد أعداد النازحين الذين وصل تعدادهم إلى نحو ٣ ملايين تقريبًا يسكنون الخرطوم وأطرافها.. طورت المؤسسات الكنسية عملها وأضحت الخرطوم أحد أهم مراكزهم فى أفريقيا كلها، وليس السودان فقط، من حيث كم الكنائس والمدارس والمراكز التابعة لتلك المؤسسات، حيث وصل عدد الكنائس فى ولاية الخرطوم وحدها إلى ١٥٦ كنيسة تمثل كافة ألوان الطيف الكنسى (بروتستانتى كاثوليكى أرثوذكسى وحتى شهود يهوه وغيرها) هذه الكنائس تشرف على حوالى١١٠ مدارس و٤٨ مركزًا طبيًا وثقافيًا واجتماعيًا، إضافة إلى ٤٧ منظمة دولية وإقليمية يعملون من خلالها.

وقد كانت الزيارة الرسمية لبابا الفاتيكان للخرطوم فى فبراير ١٩٩٣م، محطة هامة لإنعاش العمل الكنسى من وجهة نظر بعض المثقفين السودانيين.. لم يشفع الاستقبال الرسمى والترحيب الذى لاقاه يوحنا بولس الثانى فى أن يؤيد خلال لقائه بالرئيس الأمريكى السابق بيل كلينتون فى أغسطس ١٩٩٣ قرارًا بفرض العقوبات على السودان ووضعها على قائمة الدول الراعية للإرهاب شهر واحد من اجتماع البابا مع القيادات الكنسية لبحث تكثيف العمل فى السودان.

مع استمرار أزمة دار فور من دون حل.. هذا الوضع يغرى بعض المنظمات الدولية ذات البعد الكنسى لتكثيف نشاطها فى الإقليم، فقد أبلغنى مسئول سودانى أن منظمة «كاريتاس» العالمية الكاثوليكية أعلنت وفقًا لموقعها الرسمى على الانترنت عن حملة للعمل فى دارفور. كما أعلنت عن رغبتها فى إرسال «قوات متطوعين جدد للانضمام إلى مائتين من مندوبيها يعملون بالفعل هناك، وذكرت المنظمة فى نداء

لها أن هناك تحالفًا كنسيًا دوليًا سيعمل وفق خطة تحمل عنوان «التحالف الدولى الطارئ لدارفور «ACDER»

السودان ظل على مر التاريخ أرضا خصبة لجذب الراغبين فى نشر المسيحية، ووفقا للإحصائيات الحكومية، يصل عدد الكنائس بالسودان أكثر من ١٤٣٨ كنيسة حتى عام ١٩٩٧م، هذا العدد فى تزايد مستمر.

كما يوجد بالخرطوم وحدها ثلاث كليات للاهوت، تُخَرِّج أعدادًا كبيرة من القساوسة كل عام، وتستقبل هذه المعاهد الطلاب من السودان ودول أخرى، كما يوجد بها ما لا يقل عن ٦٦٠ مدرسة تابعة للكنائس والمنظمات الكنسية تتوزع فى جميع أنحاء السودان وأكثر هذه المدارس عشوائية، يدرس بها عشرات الآلاف من الطلاب والطالبات ويعمل بكنائس السودان أكثر من ٥٠٠ قسيس أجنبى من مختلف دول العالم إضافة لمعاونين لهم من مختلف مراتب العمل الكنسى .

من جانبى حرصت على الفرز الدقيق بين كل ما يقال حول هذه القضية خصوصا أن الخوف من النشاط الكنسى، يمكن استغلاله كشماعة لمنع وصول المساعدات الضرورية للآلاف من المضارين، وعندما ناقشت أحد زعماء القبائل الأفريقية فى هذه القضية، اعتبرها نوعا من الإهانة والتشكيك فى مدى تمسكهم وغيرتهم علي العقيدة الإسلامية ،هذا بالطبع غير صحيح، فالشواهد على التزامهم بالعقيدة الإسلامية كثيرة ويكفى أن الكثير من معسكرات اللاجئين المنسية التى لجأ إليها آلاف السكان تجد فيها أطفالا صغارا يلتفون حول شاب أو شابة من المتطوعين لتحفيظهم القرآن الكريم، فى «خلاوى» متواضعة وسط أجواء مناخية وغذائية وصحية غاية فى الصعوبة.

لقد أدت الحرب وحالة انعدام الأمن، إلى هجرة السكان من معظم القرى فى دارفور وتجمعهم فى معسكرات حول المدن الكبرى. ولهذا كان برنامج بعض هذه المنظمات الأوروبية يرتكز على توظيف هذه الظروف والاستفادة منها فى تحقيق أهداف مزدوجة. حيث يخشى بعض المسئولين من تكرار ما حدث فى الجنوب مرة أخرى فى دارفور .

19

سُلطة كعب داير

لعله أطول تقرير دولى تلقته الأمم المتحدة قدمته لجنة تقصى الحقائق الدولية التى شكلتها الأمم المتحدة، ففى ١٨ سبتمبر ٢٠٠٤ أصدر مجلس الأمن القرار رقم ١٥٦٤ عملا بالفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة طالب خلاله السكرتير العام بتشكيل لجنة دولية لتقصى الحقائق فى انتهاكات القانون الإنسانى الدولى حول ما قامت به كل الأطراف فى دارفور.

هذه اللجنة الدولية مهمتها التحقيق فيما أثير بشأن ارتكاب أطراف حكومية أعمال إبادة جماعية، وتحديد مرتكبيها.

اللجنة ضمت خمسة أعضاء (انطونيو كاسيى - إيطالى، محمد فايق - مصرى، هينا جيلانى - باكستانية، ودوميسا إنسبيزا - جنوب أفريقيا، وتيريزا استرنقر سكوت - غانا).

التقت اللجنة بعدد من كبار المسئولين من بينهم النائب الأول للرئيس، وزير العدل، وزير الشئون الخارجية، وزير الداخلية، وزير الدفاع، وزير الشئون الاتحادية، نائب رئيس القضاء، رئيس البرلمان، نائب رئيس مجلس الأمن القومى والمخابرات وأعضاء اللجان المحلية التى حققت فى وقائع الاغتصاب.

اللجنة عقدت لقاءات مع مندوبى المنظمات غير الحكومية والأحزاب السياسية وممثلى الحكومات الأجنبية المهتمين بما يجرى فى دارفور.

هذه اللجنة كانت الحلقة الأولى فى تدويل قضية دارفور، وبداية عملية فى مسلسل التدخل الدولى فى السودان التي ربما تنتهي بنشر قوات دولية في الإقليم حيث طلبت الاطلاع على وثائق الجهات الحكومية المرتبطة باستعمال القوات المسلحة ضد المتمردين والإجراءات التى اتخذتها حيال السكان المدنيين(٨) .

كان أعضاء اللجنة على اتصال مع الحركتين المتمردتين الرئيسيتين العدل والمساواة وجيش تحرير السودان، وفقا لنتائج تحقيق اللجنة فإن جهاز المخابرات والأمن الوطنى له دور مركزى وهو مسئول عن تصميم وتخطيط وتنفيذ السياسات المرتبطة بالصراع.

هذا الجهاز كثيرا ما يشار له بأنه يمثل السلطة الحقيقية للدولة وأن تأثيره يصل إلى المستويات الأعلى للسلطة.. من بين ما رصدته اللجنة الدولية أن القوة المسلحة السودانية تعد قوة تقليدية مهمتها حماية وإقرار الأمن الداخلى، من خلال جيش يشمل ميليشيات قوات الدفاع الشعبى ومخابرات الحدود، إضافة لقوة جوية وبحرية.

ووفقا لمعلومات تلقتها اللجنة فإن قوة الجيش الحالية تبلغ ٢٠٠ ألف جندى، القيادة المركزية والسيطرة على عمليات القوات المسلحة تعتبر أمرًا إلزاميًا.. رئيس الجمهورية هو قائد القوات المسلحة، رغم أنه يمارس هذه السلطة لأغراض العمليات عبر وزير الدفاع،الذى يقوم بتعيين القائد ورئيس هيئة الأركان الذى يشكل مع خمسة نواب هيئة أركان (يضمون العمليات، الإمداد ، الإدارة، التدريب ، والتوجيه المعنوى) لجنة رؤساء الأركان المشتركة أو المجموعة القيادية.

تناول تقرير اللجنة دور المخابرات العسكرية، فلها سلطة القبض والاعتقال والاستجواب.. يقوم فرع المخابرات العسكرية بتحريك المعلومات من خلال سلسلة مخابراتية أو نقلها مباشرة إلى رئاسة الجمهورية.

اللجنة ركزت على دور قوات الدفاع الشعبى التى ربطت تقارير عديدة بين دورها فى ارتكاب جرائم نهب وترويع للمدنيين، فيما أطلقوا عليه ظاهرة «الجنجويد» وتوصلت اللجنة إلى معلومات تثبت بأنها قوات شبه عسكرية تتبع القوات المسلحة السودانية لأغراض العمليات تقوم بتعبئة المدنيين والاحتياطيين،ينظم عملها

قانون صدر عام ١٩٨٩.

وفقًا للمعلومات التى تحصلت عليها اللجنة فإن قيادات الجيش تطلب من الضباط الحكوميين المحليين أن يقوموا بتعبئة وتجنيد قوات الدفاع الشعبى عبر المشايخ والزعامات القبلية، ويكون الوالى مسئولا عن التعبئة فى ولايته لأن المفترض أن يكون الوالى على معرفة بالزعامات القبلية المحلية.

***

قائد عسكرى كبير شرح لأعضاء اللجنة تفاصيل تجنيد وتدريب قوات الدفاع الشعبى.. التدريب يتم عبر الثكنات المركزية والمحلية فى كل ولاية، حيث يتقدم الشخص متطوعًا، يتحدد أولاً ما إذا كان الشخص لائقًا للتدريب أم لا، يجتاز اختبارًا أمنيًا وفحصًا طبيًا. ويتم إعداد قائمة تسلم للجيش، المجند يقضى فترة التدريب الأساسى- كاستعمال الأسلحة والضبط.

المتطوع يذهب ممتطيًا حصانًا أو جملاً، قد يذهب إلى العمليات العسكرية على حصانه أو جمله.. حسب شهادة القائد العسكرى للجنة، فإن معظم مجندى قوات الدفاع الشعبى يكونون «متمكنين من استخدام الأسلحة النارية ويتصفون بالصلابة واللياقة، لكن يحتاجون للتدريب على الضبط والربط». وأن الأسلحة والذخيرة يتم توزيعها أحيانًا للمجندين من خلال القيادات القبلية لضمان استردادها عند عملية التسريح.

تطرقت اللجنة إلى دور جهاز مخابرات الحدود «وحدة عملَيات تتبع القوات المسلحة» ودورها الرئيسى جمع المعلومات، حيث يتم تجنيد أفراد هذه الوحدة من المواطنين المحليين ويتم نشرهم فى مناطقهم الأصلية حسب خبرتهم فى المنطقة ومعرفتهم بالقبائل وقدرتهم على التمييز بين الناس من مختلف الأصول القبلية والقومية، كما يكون حرس المخابرات الحدودية تحت السيطرة المباشرة لضباط الاستخبارات العسكرية فى القسم المعنى حيث يتم نشرهم أو قد يكونون تحت قيادة القوات المسلحة، اللجنة تلقت شكاوى من المواطنين بأن هذه الوحدة كانت مسئولة عن تجنيد ميليشيا «الجنجويد» للقيام بعمليات الترويع فى القرى التى ينطلق منها المتمردون.

لجنة تقصى الحقائق الدولية لم تترك أى معلومة تتعلق بأسرار دقيقة لنظام الأمن السودانى إلا تناولها التحقيق فبالنسبة لقوات الأمن الوطنى .. وجدت اللجنة أن مهمتها الإشراف على الأمن الداخلى والخارجى للسودان ومراقبة الأحداث ذات الصلة وتحلل حجم ومخاطر هذه الأحداث وتوصى باتخاذ الإجراءات الوقائية.. هذا الجهاز يعتبر واحدًا من أقوى الأجهزة فى السودان، وقد نشأ بموجب قانون قوة الأمن الوطنى لعام ١٩٩٩، ينص قانون إنشائه على أن يكون جهاز أمن وطنى يناط به الأمن الداخلى وجهاز مخابرات سودانى يناط به الأمن الخارجى.

الجهاز يعمل تحت الإشراف العام لرئيس الجمهورية، المسئولية المباشرة للجهاز يكلف بها المدير العام الذى يعينه الرئيس. يكون المدير العام مسئولاً أمام الرئيس فى تنفيذ مهامه كما يتم تأسيس جهاز يسمى مجلس الأمن الوطنى يتولى الإشراف على تنفيذ الخطة الأمنية للدولة السودانية ويشرف على تقدم العمل الأمنى وينسق بين الأجهزة الأمنية ويتابع تنفيذ السياسات والبرامج الأمنية.

يضم المجلس الرئيس ومستشار الرئيس للشئون الأمنية ووزير الدفاع ووزير العلاقات الخارجية ووزير الشئون الداخلية ووزير العدل ومدير جهاز الأمن الداخلى ومدير جهاز المخابرات اللواء صلاح عبد الله المعروف باسم «صلاح قوش» اللجنة اطلعت على قرار صدر فى فبراير ٢٠٠٤ بإنشاء هيئة تسمى بـ «جهاز المخابرات والأمن الوطنى» للتعامل مع أزمة دار فور وأن الرئيس شكل لجنة تنسيق لمواجهة الأزمة برئاسة وزير الشئون الاتحادية وتضم فى عضويتها وزير الدفاع، وزير الداخلية، مدير المخابرات، وزير الشئون الخارجية، وزير الشئون الإنسانية، وللجهاز دائرة تتعاطى تحديدًا مع الوضع فى دارفور حيث تتلقى كل المعلومات المتعلقة بالمنطقة بما فيها المعلومات الخارجية العامة، وتكون هذه الوحدة مسئولة عن تقديم وتحليل المعلومات. وتقوم كل وحدة بإعداد تقرير ترفعه عبر تسلسل القيادة وفى النهاية يقدم تقرير عن أى عمل للمدير العام.

اللجنة لاحظت أن قانون قوة الأمن الوطنى يعطى القوات الأمنية صلاحيات واسعة تشمل الاعتقال بدون تقديم تهمة أو المثول أمام قاض لمدة تصل إلى تسعة

أشهر، حيث تقوم قوات الأمن بجمع المعلومات حول كل أوجه الحياة فى ولايات دارفور الثلاث، وتحال هذه المعلومات إلى الوزارات ذات الصلة لاتخاذ الإجراء المناسب.

هذه المعلومات ربما ترتبط بأمور مثل وجود المتمردين وما إذا كانت لديهم أسلحة أم لا، وأن الجيش ربما يستغل هذه المعلومات لاتخاذ قرارات عملية، وفى حين أن جهاز الأمن والمخابرات الوطنى لا يعطى تعليمات للجيش لكنه يمده بالمعلومات التى تستغل أساسا للتخطيط العملى.

فيما يتعلق بدعاوى الاغتصاب والاعتداء الجنسى، فقد سجلت اللجان الحكومية المختصة بالتحقيق فى الدعاوى وجود ٥٠ حالة عام ٢٠٠٤، ٢٩ حالة فى غرب دارفور و ١٠ حالات فى الشمال، و ١١ حالة فى الجنوب.

٣٥ من هذه الحالات كانت ضد مجهولين،حيث لم تتوافر معلومات عن عدد الذين تم التعرف عليهم أو مقاضاتهم أو إدانتهم من المتهمين فى الحالات التى حققت فيها. كما لم يُتح للجنة الاطلاع على تفاصيل الحالات، وجاء فى المعلومات التى قدمها المجلس الاستشارى بشأن الإجراءات المتخذة لإنهاء حالات الإفلات من العقاب. ذِكْر ٧ حالات اغتصاب قبض على مرتكبيها وحوكموا، بينما حالة واحدة حُوكم فيها ١٣ متهما وأدينوا بإنتاج شريط فيديو مزور استهدف توريط القوات المسلحة فى ارتكاب جريمة اغتصاب؛ وحالتان قام فيهما المدعى العام المحلى، بناء على تقارير من مراقبى الأمم المتحدة، بزيارة مخيمات المشردين داخليا وسجل أقوال الضحايا وشرع فى اتخاذ الإجراءات القانونية اللازمة، واحدة من حالات الاختطاف والاغتصاب قامت بها جماعات معارضة مسلحة مجهولة.

لجنة تقصى الحقائق الدولية اتهمت اللجنة الحكومية بعدم الجدية فى القيام بدورها فى ضبط مرتكبى جرائم اغتصاب وأنها حملت الضحايا عبئا لا داعى له عندما طلبت منهن تقديم بيانات تفصيلية عن مرتكبى هذه الجرائم، كما رأت أن إحجام الناس بشكل عام عن الاتصال باللجان لتقديم شكاواهم يشير إلى عدم ثقتهم فى أجهزة الحكومة.

استمعت اللجنة الدولية إلى شهادات من نساء وفتيات تعرضن للاغتصاب

بطريقة وحشية على أيدى مهاجمين ملثمين يظنون أنهم من القوات التابعة للحكومة.

من بين هذه الشهادات قالت قروية من قبيلة المساليت تسكن فى منطقة ملاصقة للحدود التشادية، كنا فى الأسبوع الأول من شهر رمضان ٢٠٠٣ خرجت مع النساء للبحث عن الماء، وفى الساعة السابعة صباحًا رأيت أناسًا يقتربون من القرية، وكانوا جنود حكومة وعربا يركبون الخيول والسيارات.

كان هناك حوالى ٢٠٠ شخص يحملون البنادق، يصيحون ويضربون الأطفال بالسياط، وجريت نحو بقرتى فأطلقتها من الحبل، ورآنى واحد من المهاجمين فأطلق علىَّ الرصاص من فوق التل الذى كان يقف عليه.

وقد جُرحت فى الفخذ.. جريت، وتواريت فى ظل البقرة، ولم أخرج إلا بعد أن غادروا بعد حوالى١٥-٢٠ دقيقة، وهرب الناس من القرية، وحملنى بعضهم إلى «مستيرى»، حيث تلقيت علاجًا لإصابتي.. بعد ذلك أخبروني أن والدى وشقيقى الأصغر قد قتلا وقتل معهم أربعة آخرون، كما أخبرونى أن الجنود والجنجويد نهبوا كل الماشية والثروة الحيوانية، وبعد ١٥ يومًا رجع بعض الناس إلى القرية، ولكن العرب كانوا لا يزالون حولها، لقد استقررنا بداية الأمر فى معسكر النازحين بمستيرى، وبعد ثلاثة أشهر عبرت الحدود إلى تشاد، كان هناك أناس من ٢٠ قرية فى المكان الذى استقررنا فيه قبل العودة إلى السودان.

سجلت اللجنة الدولية أن الجنجويد أغلبهم من قبائل تعارض تقليديًا القبائل الثلاث النازحة، ومستفيدون من هذا النزوح بحكم أنهم سيحوزون على الأرض، وقد وجدت اللجنة أدلة تشير إلى أن القبائل العربية بدأت تستقر فى المناطق التى كان يقطنها النازحون سابقًا، لذلك يعوقون العودة النهائية للنازحين.. اللجنة رأت أن مثل هذا العمل يرقى إلى جريمة ضد الإنسانية، كما رأت أن هذه الأعمال ترقى إلى جريمة الاضطهاد باعتبارها جريمة ضد الإنسانية.

تحدثت مصادر مختلفة عن الاغتصاب واسع النطاق وأشكال العنف الأخرى الخطيرة التى ارتكبت ضد النساء والفتيات فى كل ولايات دارفور الثلاث ورصد تقرير اللجنة النقاط الآتية:

أولا : وقعت اعتداءات متعمدة ضد النساء والفتيات، شملت الاغتصاب الجماعى وذلك أثناء الهجمات على القرى.

ثانيًا: اختطفت النساء والفتيات وأودعن الحبس لعدة أيام وتم اغتصابهن تكرارًا خلال تلك الفترة.

ثالثًا : استمر الاغتصاب وأشكال العنف الجنسى الأخرى خلال الهروب والنزوح، وعندما تغادر النساء المدن ومواقع النازحين لجمع الحطب أو الماء، وفى بعض المناطق وقعت حالات الاغتصاب داخل المدن، وقد حملت بعض النساء والفتيات نتيجة الاغتصاب.

فى معظم الحالات، تم توثيق تورط الجنجويد، وفى حالات كثيرة كان هناك زعم بتورط الجنود أيضًا، وهناك حالات أخرى تورط فيها المتمردون بارتكاب جريمة الاغتصاب والعنف الجنسي.

وأثبتت تحقيقات اللجنة الدولية واقعة اغتصاب جماعى لفتيات مدرسة داخلية فى جنوب دار فور ..فتاة من الضحايا روت تفاصيل الحادث قائله: فى حوالى السادسة صباحًا هاجم عدد كبير من الجنجويد المدرسة. عرفت أنهم كانوا جنجويد نسبة لبشرتهم الحمراء- تعبير محلى لوصف العرب- كانوا يرتدون زيًا رسميًا حكوميًا تمويهيًا. وصلوا فى شاحنة «بك. أب»، لونها نفس لون الزى الرسمى الذى كانوا يرتدونه، لاحظت فى اليوم السابق أن الجنود الحكوميين تحركوا فى تنظيم ليلتفوا حول المدرسة.

عندما هاجموا المدرسة صوّبوا بنادقهم على الفتيات وأجبروهن على خلع ملابسهن فأخذوا نقودهن وما بحوزتهن، كان هناك حوالي مائة فتاة فى المدرسة الداخلية، وقد وقعت الحوادث داخل غرفهن، كانوا يأخذون الضحية من بين المجموعة معصوبة العينين.

الاغتصاب استمر لحوالى ساعة، ولم يقل مرتكبو الاغتصاب شيئًا خلال عملية الاغتصاب، سمعت الفتيات الأخريات يصرخن وظننت أنهن اغتصبن أيضًا. وبعد الاغتصاب بدأ الجنجويد يحرقون وينهبون. إحدى الفتيات حملت نتيجة هذا

الاغتصاب وأنجبت طفلاً أخيرًا لكن الاجهزة الحكومية نفت بشكل قاطع وقوع مثل هذه الجريمة، فضلاً عن إتهامها المتمردين بإرتكابها حيث تلقت أجهزة الأمن شكاوي مماثلة من مواطنين يقيمون في مناطق خاضعة لنفوذهم ، كما قدمت الحكومة أدلة علي أن قوات الجيش كانت تحمي ضحايا هجمات المتمردين.

اللجنة استجوبت ضحية أخرى قدمت معلومات عن حالات اغتصاب متعددة للنساء أثناء هجوم على قرية (تيرقا) بغرب دارفور فى يناير ٢٠٠٣ قالت الشاهدة: تعرضت القرية لهجوم فى الصباح الباكر، حيث قصفت طائرة القرية وبعد ذلك وصلت حوالى ٤٠ سيارة ومعها رجال على ظهور الخيول، وقد غطوا محيط القرية.. المهاجمون كانوا فى السيارات وعلى الخيول وأطلقوا النار على القرويين، وكانوا يسرقون من المنازل، وقد تم إعدام أربعة صبية أمام أعيننا.. قام العرب بعملية السرقة..عندما وقع الهجوم جرت النساء إلى الوادى حيث أحاط بهن الجيش ووفر لهن الحماية.

20

مغامرات زرا - زورا

«المستشفى الملكى».. لافتة تغطى مدخل مبنى قديم من طابق واحد يقع فى مدخل مدينة الجنينة فى أقصى غرب دارفور على الحدود مع تشاد، بعض كبار السن فى المدينة أبلغونى بأن المستشفى هدية من «فاروق» آخر ملوك مصر، ربما كان إنشاء هذا المستشفى آخر قرارات الملك ودليلا عمليا على اهتمام الدولة المصرية بالتواجد فى مدينة سودانية تقع على حدود تشاد وأفريقيا الوسطى .

المستشفى كان يديره طاقم طبى مصرى ضمن بعثة تضم نحو عشرة أفراد كانوا بمثابة شهب تضىء سماء هذه المدينة البعيدة حيث أقامت الحكومة المصرية مدرسة ومعهدا دينيا، كما بعث الأزهر بأحد الأئمة ليراقب وينشر تعاليم الإسلام بين الناس.

شباب المدينة ورجالها لا يذكرون شيئا عن بقايا البعثة المصرية التى اختفى وجودها قبل ٤٠ عامًا، ولم يتبق منها سوى ذلك المبنى المتواضع الذى تحول إلى دليل إدانة ضد ما وصل إليه إهمال الحكومات المصرية بالحفاظ على علاقاتها الإستراتيجية فى السودان.

خلال حواراتى مع السياسيين والمواطنين السودانيين من دارفور حتى الخرطوم تبلور لدى رأى يفسر سبب خلو العلاقة بين المصريين والسودانيين من الثقة وربما يحملها الكثير من التكلف والعناء للوصول معا إلى تفاهم مشترك يقف على

أرض صلبة، فالعلاقات الشعبية بين مواطنى البلدين وصلت إلى مستوى من التداخل والترابط يميزها .. فنهر النيل الخالد صنع رباطا مقدسا عبر التاريخ بين الشعبين.

ربما مر النهر ببلاد كثيرة لكن تبقى الخصوصية التى كان مجراه بطلها حيث يقتنع الشعب والحكومة فى كل من الخرطوم والقاهرة بأن الحفاظ على النهر من بين أسس الحياة والاستقرار فى البلدين، هذه القاعدة يؤمن بها الشعبان سواء كانت الحكومات على وفاق أم خلاف.. التجارب أثبتت أن الطرفين متمسكان بهذه القاعدة حتى فى أصعب الظروف.

***

تبقى الرواسب التاريخية التى مازالت تترك بعض الشوائب، فعندما قرر محمد على باشا الذى فتح السودان كان دافعه الرئيسى البحث عن جنود أشداء يبنى بهم جيشه، فقد كان يرى أن الفلاح المصرى لا يحب الجندية ولا يجيدها، ويفضل التعب فى الزراعة عن الانتظام فى التدريبات العسكرية بجانب رغبة محمد على فى أن يبعد المصريين عن الانخراط فى العسكرية تجنبا لانقلابهم عليه فى المستقبل باعتباره قادما من خارج القطر وليس عربيًا.

ربما كانت حملات محمد على تجاه السودان وقسوته فى جلب العبيد، والمقاتلين لا تختلف كثيرا عن طرق تجار العبيد الغربيين الذين اعتادوا ممارسة هذه التجارة فى وسط السودان، مما رسخ لدى السودانيين أن المصريين لا يختلفون كثيرا عن هؤلاء الغربيين المتوحشين.. هذا الإحساس عمقه خطأ آخر ارتكبه محمد على فيما بعد عندما أرسل حكاما أتراكا ليتولوا تمثيله فى أقاليم السودان المختلفة.. هؤلاء الأتراك لا يجيدون اللغة العربية فضلا عن كونهم بيض البشرة فظل أغلب البسطاء فى السودان يظنونهم محتلين.

ورثة محمد على لم ينتبهوا لهذه النقطة الجوهرية بل تمادوا فيها إلى أبعد مدى عندما تعمد الخديو إسماعيل الاستعانة بمرتزقة أجانب من عينة «سلاطين باشا» النمساوى ليكونوا حكاما على الولايات السودانية، وممثلين للحكم المصرى هناك.. هذا السلوك المثير للقلق ظل منهجا متبعا حتى عهد الملك فاروق حيث ظلت

الحامية المصرية المتمركزة بالسودان تقيم فى معسكر عباس حلمى الذى مازال باقيا فى الخرطوم حتى الآن، ولم تنتشر القوة المصرية التى كان من بين ضباطها جمال عبد الناصر فى ربوع السودان.. هذا السلوك الانعزالى صنع فجوة عميقة بين الشعب السودانى والمصريين عمومًا.

هذا السلوك هو المسئول عن بعض الحساسيات التى مازالت تحكم العلاقة بين الشعبين ،إلى أن ظهرت بوادره بطريقة عملية فى نتائج الاستفتاء الذى جرى فى عام ١٩٥٨ على الانفصال عن مصر، حيث استيقظ المصريون، على مشكلة فى العلاقة بين الجانبين..لكن بدلا من البحث عن حلول، أرسلت الثورة المصرية الضابط صلاح سالم إلى السودان ومعه مليون ونصف المليون جنيه مصرى هدايا ورشاوى لزعماء القبائل الكبرى، ورقص المسئول المصرى مع قبائل الدنكا رقصتهم الشهيرة وهم عرايا ونقلت الصحف المصرية صورة عضو مجلس قيادة الثورة عاريا وسط جموع السودانيين، لكن هذا لم يغير فى الأمر شيئا فقد بقيت الفجوة قائمة دون علاج حتى الآن.

لا ينكر السودانيون الدور المصرى فى نشأة السودان، وسجل الخديو إسماعيل رقما قياسيا فى عدد الفرمانات الموجهة لحكامه فى الأقاليم السودانية يحثهم خلالها على الاهتمام بشئون الشعب، ويدعوهم إلى إنشاء المدارس والمستشفيات، ثم تابعت الحكومات المصرية بلورة الكيان السودانى، عبر مراحل تاريخية مختلفة:

المرحلة الأولى: تم خلالها احتواء سلطنة «الفونج» التى كانت تحكم السودان الأوسط، ثم أدخلت مصر فى إطار مملكة الفونج مناطق جنوب السودان الحالية فى عام ١٨٢١. بعد ثلاثة وخمسين عامًا ألحقت بها أى فى عام ١٨٧٤ دارفور.

مثل كل بقاع الدنيا لم تخل دارفور من الرحالة والمغامرين الضاربين فى الأرض بحثا واستكشافا فقد زارها على مدى التاريخ قديمه وحديثه كثير من هؤلاء السائرين فى الأرض منهم عرب وكثير منهم عجم.

لعل أهم ما كتب قديما عن إقليم دار فور هو ما خطه الرحالة التونسى محمد بن عمر ١٢٠٤ هـ -١٧٨٩م.:-

«كان درب الأربعين الذى يبدأ من أسيوط فى صعيد مصر هو طريق التجارة بين مصر ودارفور مرورا بالصحراء، وكانت وسيلة الانتقال هى الجمال والخيول..فى أول حدود دارفور، يتوقف التجار حتى يأتى إذن دخولهم من السلطان..بعدها سافرنا إلى(سرف الدجاج) وسرف فى لغة الفور تعنى بَركة، وهى قرب كبكابية- وفيها بت أنعم ليلة..منها مررنا بكبكابية- غربى الفاشر- وهى أشبه بريف مصر إلا أنها أعمر وأخصب، وسوقها عامرة، ومنها إلى جبل(مُرة)، ووصلنا أخيرًا إلى- حلة جولتو وهى من قرى أبى الجدول المعروفة الآن بقرية- وواد- التى بها والدى فاجتمع الشمل، وبعد ثلاثة أيام عنده جهزنى وعمى إلى الأعتاب السلطانية، مقر السلطان عبد الرحمن الرشيد ولد السلطان محمد بكر، فى تندلتى- وهو اسم قديم للبحيرة التى قامت عليها مدينة الفاشر، وكل محل سكنه السلطان يسمى فاشرًا - بهدايا منه إليه وإلى وزيره الشيخ محمد كرا وهو من الفلاتة الذى كسانى وأمر لى بجاريتين وخادم هكذا يصف التونسي دارفور قائلاً:

كانت فى ذلك العهد مستقلة تمامًا.. لا تدفع جزية لأحد، ما عدا (الحرمين الشريفين) فقد كانت تخدمهما بتجهيز- صرة مالية- سنويًا ترسل مع الحجاج وتشمل الريش وسن الفيل والصمغ وغيرها من خيرات الأرض فتباع ويجمع ثمنها لفقراء الحرمين، ويعتز أهلها بذلك ويفخرون دائما بأن أبيار على فى المملكة العربية السعودية شاهد على مجد أجدادهم حتى الآن.

حسب الروايات التاريخية يرجع اسم دارفور إلى بنى العباس، فبعد انهيار دولتهم ببغداد عام ٨٢٣ هـ- ١٤٢١م هاجر شق منهم إلى جبل «مُرة»- الذى يقول سكانه أنه سمى بذلك لأنه لم يخلق مثله.. كان ملكها فى ذلك الوقت هو «شاوذورشيث» من سلالة ملوك «كيرا»، فأعجبه عقل رجل عباسى فعهد إليه تدبير مملكته، ثم زوجه ابنته فأنجبت له «سليمان» الذى نودى به ملكًا بعد وفاة جده عام ٨٤٨هـ- ١٤٤٥م فكان أول سلالة السلاطين العرب الذين تولوا دارفور وظلوا يحكمونها نحو ٤٤٣ سنة كاملة.

سكان دارفور ينقسمون إلى ثلاثة بطون: الكنجارة - الفراتيت -التموركة. يتفرع منها قبائل الفلاتة، بنو فزارة وهم رعاة إبل من قبيلة جهينة، البرقد، الكبابيش

الذين ينتمون لبطون عربية من جهينة، الرزيقات وهم عرب، البرتى، البيقو الذين هاجروا من موطنهم الأصلى فأقطعهم سلطان دارفور أرضًا سكنوها، المسيرية الحمر، المسيرية الزرق، الداجو وهم من أقدم سكان دارفور، الفراوجية، بنو حلبة، بنو عمران الذين هاجروا من صعيد مصر، الزغاوة وهم خليط من الزنوج والتبو والليبيين، التنجور الذين يقال إنهم من بنى هلال، بنو جرار الذين يرتبطون بأواصر قربى بقبيلة فزارة، وقبائل - الفرتيت- ومنهم دار رونحية - فنقرو - بندله بينحيه - شالا، الحبانية، المساليت.

تذكر الروايات أن قبائل المساليت كان لها ملك يتمتع بسلطة مستقلة فى غرب دارفور، كما كان الملك عندهم وراثيا، إذا تولى ملكهم السلطة يجلس فى بيته سبعة أيام لا يأمر ولا ينهى، ولا تقام بين يديه دعوى، ولكل منهم طائفة من العجائز يسمون- الحبوبات- وهن طائفة عظيمة ترأسهن- ملكة - يأخذن السلطان عند توليه ويطفن به البيت.

ومن عادات ملوكهم أن السلطان لا يسلم على أحد إلا من خلال ترجمان، وإذا أطال الجلوس روّحوا عليه بمراوح من ريش النعام، وإذا خرج للصيد ظللوه بشمسية ، وإذا ركب جواده فتعثر وسقط من عليه ألقوا بأنفسهم جميعًا من فوق ظهور خيولهم..عندما يمر الملك يصيحون بصوت واحد: برنس البلاد، حر السلاطين، أذاب العاصى، فرتاك الجبال، وغير ذلك، وإذا كان بعض الوزراء أو القواد غائبًا وقت الاحتفالات ثم جاء واتهم بغدر أو خيانة يسقى من ماء «مغلى» فإذا كان بريئًا يتقيؤه فى الحال وللملك مزرعة خاصة يزرعها فى احتفال عظيم يقام فى الموسم..تخرج معه فتيات متجملات يزدن على المائة منهن حاملات آنية الطعام تغنين مع مجموعة أخرى من حاملى الحراب.

عندما يصل الملك إلى المزرعة يكون أول من يرمى البذور فى الأرض، ثم توضع موائد الطعام ويأكل الجميع قبل عودتهم إلى منازلهم. وتكريما وتعظيما له سموا المناصب فى المملكة بأسماء أعضاء جسمه، فمنصب رأس السلطان وظيفته أن يمشى بجنوده أمامه إذا كان مسافرًا أو فى رحلة صيد، ومنصب رقبة السلطان وظيفته أن يمشى بجيشه خلف الأول، ومنصب فقرات ظهر السلطان وظيفته أن يمشى خلف الجيوش فلا يعقبه أحد، ومنصب ساعد السلطان اليمين ووظيفته أن يمشى مع

جنوده يمين السلطان، ومنصب الساعد الأيسر للسلطان وهو قرين الأول فى كل شيء، ومن المناصب الهامه في سلطنة الساليت منصب ملك «الموحية»، ومسئوليته الطرب والترفيه.

التونسى يحكى عن جبل مُرة: «زرت جبل مرة عام ١٢٢٠ هـ (٨) ، وحين رآنى أهلها اجتمعوا على متعجبين من احمرار لونى، وأتوا إلى أفواجًا كأنهم لم يروا عربيًا قبلى.. المطر دائم على جبل مرة.. يزرع أهله قمحًا لم أر له نظيرًا إلا فى بلاد المغرب أو فى أوروبا لا يأكلونه بل يبيعونه ويشترون بثمنه (الدخُن). ومن عاداتهم أن النساء لا يحتجبن عن الرجال، وأن الصبيان والبنات لا يستترون إلا بعد البلوغ، ومن عاداتهم عدم الترفه والتفنن فى الأكل، بل كل ما وجدوه أكلوه، وربما أحبوا الطعام المر».

بعد التونسى يأتى المصرى أحمد حسنين خريج جامعات انجلترا.. فيعد واحدا من أهم الرحالة الذين وصلوا إلى دار فور، ففى عام ١٩٢٣جاب مجاهل الصحراء الغربية بصحبة الرحالة الإنجليزية روزيتا فوربس.. كان حسنين صاحب الفكرة ومنظم الرحلة وعقلها المدبر وقائدها.. فتنقل معها زاعما أنها زوجته.. ألبسها ثيابًا عربية وأسدل على وجهها حجابًا.. حتى يسمح لهما زعماء القبائل بالتوغل فى مجال سلطانهم وأسرار الصحراء.

عاش أحمد حسنين مع روزيتا فوربس أسابيع عديدة فى مجاهل الصحراء..كانا ينامان فى خيمة واحدة .. وعادت روزيتا إلى إنجلترا وألفت كتابًا عن الرحلة، أشارت فيه إشارة عابرة إلى أحمد حسنين وكيف أنه كان أجيرها ومترجمًا لها أثناء الرحلة.

فى العام التالى، رحل حسنين بمفرده إلى جوف الصحراء واكتشف واحة الكُفرة.. كان لاكتشافه صدى واسع فى أنحاء العالم.. حيث اجتمعت الجمعية الجغرافية الملكية فى لندن ومنحته ميداليتها الذهبية وهى أسمى وسام تقدمه لكبار المكتشفين.

نقطة الانطلاق عند حسنين كانت فى يناير عام ١٩٢٣ من السلوم على حدود مصر وليبيا فى أقصى الشمال ومنها سلك طريق القوافل القديم عبر واحات سيوه وجغبوب وجالو ليصل إلى واحة الكفرة فى أول أبريل حيث أمضى ١٨ يوما

ثم قاد قافلته الصغيرة إلى ..المجهول، واصلوا مسيرهم تحت درجة حرارة شديدة القيظ.. كانوا يخوضون تخوما لم تطأها من قبل قدم إنسان. رحلتهم استغرقت ١١١ يومًا (١٠).

جاءت اللحظة التى قبع فيها حسنين باشا فوق قمة من الرمال.. وحيدا يتأمل مواقع كانت مجهولة منسية واكتشف واحة «اركينو» ثم واحة «العوينات» التى تضم أعلى جبل فى صحراء مصر الغربية ومنها واصل السير إلى حيث انتهت رحلته التاريخية عند «الفاشر» عاصمة دارفور، وقطع فى الرحلة أكثر من ٣٥٠٠ كم .. خرج منها بخريطة هى الأدق من نوعها لكل هذه المواقع التى أضافها إلى المعرفة الإنسانية.

حسنين باشا اكتشف هذا كله.. لكنه لم يعثر على كنوز «زرازورا» التى تحادثت بها الركبان وحكت عن جواهرها أساطير الأولين.. الكاتب الأمريكى روبرت بيرغ يقول: إن الباحثين عن زرزورا سوف يجدون كنوزا بغير شك.. لكنها كنوز من المعرفة وليست من الذهب أو الياقوت والمرجان.. سوف يكتشفون قرائن تؤكد لهم أن أقواما سبقوا إلى الحياة فى تلك الأصقاع قبل أن يتغير مناخها وتقسو البيئة فى أرجائها.. بعض الرحالة مازال لديهم طموحات فى العثور على مدينة الأساطير والكنوز والأسرار فى الصحراء الأفريقية.

حسنين تنبأ بالأحداث التى يشهدها الإقليم حاليا بين قبائل اختلطت دماؤها، وامتزجت ثقافاتها، وجاء الإسلام ليلبسها لباس الأخوة، ومع ذلك لم تنته بينها الاحتكاكات بسبب المرعى والنفوذ والسيادة، فكان لابد من قوة وأداة تضبط إيقاع تعايشها، وتحافظ على التناغم بين أصواتها المتعددة، وآرائها المتباينة.

وهنا تسرد السيرة الهلالية فى السودان حكاية (أحمد المعقور) العربى العباسى الذى عصف به انهيار الدولة العباسية، فجاء إلى دارفور من تونس مرورًا بليبيا مع شقيق له متزوج بفتاة آية فى الجمال، مع أحمد كانت بداية التحضر، بالتسمية (باسم الله) عند تناول الطعام. ليتبارك الرزق، فأكل الناس لأول مرة وشبعوا واكتفوا، ومن هنا كانت البداية الحقيقية لأسرة (كيرا) التى استمرت ما يقرب من خمسة قرون وهى تدير هذا الإقليم بإمكانياته الذاتية، حتى قضى الإنجليز على آخر سلاطينها.

خمسة قرون تقريبا كان فيها سلاطين دارفور بدءا من (سليمان صولونج) يديرون

هذه الأطراف المترامية التى تعادل ما يزيد على مساحة فرنسا.. ورغم ما يبدو من حكم مطلق للسلاطين، إلا أن أعرافا وقوانين محلية نظمت حياة الناس، فقد كان القضاء شرعيًا، وجمعت الأحكام العرفية كلها فى كتاب واحد عرف (بقانون دالى) وهو بمثابة قانون عقوبات .. بعض العلماء يرون أن (دالى) كان أحد سلاطين الفور المتقدمين.

أبرز أحكام هذا القانون أن قصاص السارق غرامة ست بقرات أو ما يعادل ثمنها، فإذا لم يقدمها حُبس إلى أن يفتديه أهله؛ وقصاص القاتل القتل إذا كان القتل عمدًا، وإلا فدفع الدية مئة بقرة، إذا كان من البقّارة، أو مائة بعير إذا كان من الأبّالة؛ وأما الزانى بمحصّنة فغرامته ست بقرات، وإذا كان بـ «أيم» فبقرة واحدة؛ أو بـ«بكر» فكل منهما يغرم بقرة.

وقصاص الضارب إن كان فى الضرب جرح، ثوب من الكتان، وإن لم يكن جرح فنصف ثوب، وهكذا جزاء الشاتم.. دارفور تعرضت خلال فترة سلاطين (الفور) كما يحدث حاليًا إلى الدسائس والألاعيب والتدخلات الخارجية، فإذا نجا الإقليم من الغزو الخارجى كان لابد من تحريك رؤوس داخلية أو مجاورة لها مطامع ومصالح شخصية.. فعندما فر الأمير «أبو مدين». وكان ذلك قبل منتصف القرن التاسع عشر حاول محمد على باشا أن يتبنى قضيته ضد أخيه السلطان محمد الفضل بن السلطان عبد الرحمن الرشيد.. بعد رحلة طويلة تخللتها مغامرات ومناوشات، وصل أبو مدين إلى القاهرة ليجهز له محمد على جيشًا من جنود «الأرناؤوط»، فتعرضوا للهلاك قبل تنفيذ مهمتهم ، فصدرت الأوامر برجوع ما تبقى منهم، حيث لم يعد إلى القاهرة إلا ثلثهم الناجى من الهلاك والأمراض.

وكأن التاريخ يعيد نفسه.. فها هى قوات الضابط النمساوى المرتزق (سلاطين باشا)(١١) الذى استعان به حاكم السودان الإنجليزى (غوردون) وأرسله إلى دارفور، لمواجهة الثورة التى قادها الأمير هارون، فتعقبته جيوش سلاطين باشا إلى الجنوب الشرقى، ووقعت بينهما معارك عنيفة انتهت بمصرع الأمير ورجاله وأفراد حاشيته.

ويروى سلاطين عن هذه الواقعة: لقد محى الموت ما بيننا من عداء، لذا فإننى لم أتردد فى الاحتفاء بجثته، فكفنتها بالأنسجة الفاخرة، ودفنتها فى جامع (منواشى) باحتفال عظيم، إجلالاً لمقامه، وإقرارًا ببسالته، ثم دفنت بعد ذلك القتلى من أولاده وأكابر دولته، وعفوت عن جميع الأسرى، وسمحت لهم بالذهاب إلى حيث يشاءون.

21

سوق عالمية للأمراض

جنود معسكر مدينة نيالا، استيقظوا- ذات يوم- على صراخ وعويل «آدم» أحد زملائهم... قائد المعسكر هب مهرولاً إلى مصدر الصراخ، وبعد قليل عاد الضابط مبتسما يضرب كفًا بكف.

ففى إحدى الليالى القمرية، قرر آدم تناول جرعة من منشط جنسى مشهور فى كل دار فور، يطلقون عليه اسم «القَن»، بعدها ترك موقعه وجرى فى شوارع مدينة الفاشر العاصمة السياسية للإقليم، حيث شعر بحالة من الهياج الجنسى المفاجئة، وظل يصرخ بشكل هستيرى لساعات طويلة، ولم تهدأ حالته إلا بعد أن أجريت له جراحة عاجلة فى عضوه الذكرى.. هذه القصة مازالت واحدة من أهم الموضوعات الساخرة التى يلتف حولها الجميع فى جلسات الونسة الشهيرة.

«القَن» عبارة عن عشب خشبى يشبه «السواك»، ينبت بشكل شيطانى فى أشجار معينة فى أماكن محددة من جبل (مَرة) الشهير، القريب من مدينة الفاشر، ويتميز «القن» بمضاعفة القدرة الجنسية للرجال، كما يضاعف مدة الانتصاب لفترات طويلة، ويشترط فى تعاطيه أن يكون الشخص مستعدًا لتحمل نتائجه المثيرة، وأن يكون فى حالة استعداد لممارسة الجنس مباشرة، لأن نتائجه تظهر بشكل فورى.

و«القَن» نوعان: الأول: خام يتم وضعه خلف الضرس لامتصاص محتواه، وغير

معروف أى شىء عنه سوى نتائجه، فإذا كان طبيعيا تظهر نتائجه الفورية على من يتعاطاه بعد نصف ساعة، وهو قابل للاستخدام مرات متعددة إلى أن ينضب محتواه ويتلاشى تأثيره، ويباع هذا النوع بنظام القطع التى لا يزيد حجم الواحدة منها على سنتيمترين، سعرها مبالغ فيه خصوصا بعد أن نقله بعض أهالى دار فور من العاملين بالخارج إلى منطقة الخليج فتضاعف سعره عدة مرات، حيث اعتاد بعض أمراء الدول النفطية إرسال مندوبين إلى جبل (مُرة) لشراء كل ما يتوفر من «القَن».. هناك العديد من الروايات تدور حوله، بعضها مرتبط بأبناء قبيلة (الهوسا)، الذين يزعمون أنهم يملكون أسراره ولديهم القدرة على الوصول إلى أشجاره وسط الغابات.

فى أحد شوارع الخرطوم جلس أحد أبناء دارفور ينادى بصوت مرتفع «الحق..القَن الذى يحول الرجل إلى أسد فى فراش الزوجية، خذ حظلك من الفياجرا الطبيعية، جدد شبابك..»، لكن قن الخرطوم يختلف عن قن دار فور، فالثانى خام ويصل سعر الجرعة إلى ألف دولار، بينما الأول عبارة عن مسحوق يسهل غشه، ويتم خلطه مع اللحوم والأكلات الدسمة وتأثيره محدود.

الطريف أن «القَن» كان فى السابق سببا فى تنافس بعض كبار الموظفين فى الشرطة والأجهزة الحكومية على الانتقال للعمل ولو لفترات محدودة فى مناطق دار فور المختلفة، كما تحول أيضا إلى أحد أساليب الرشوة التى يقدمها المسئولون إلى كبار السياسيين، مقابل الفوز برضاهم والتمتع بمزايا ومناصب متميزة فى الجهاز الحكومى.

***

الاهتمام بالجنس من القضايا التى تشغل بال أغلب الرجال فى دار فور كما هو الحال تقريبًا فى العديد من الدول العربية، وربما تزداد أهمية هذه القضية فى دار فور بشكل خاص والسودان بشكل عام، مما أدى إلى انتعاش تجارة المنشطات الجنسية وأكثرها عبارة عن ثمار تتم زراعتها فى مدرجات جبل «مَرة».

فى مدينة الفاشر توجد سوق رئيسية، وسط المدينة، لتجارة هذه الأنواع من الثمار، منها نوع شعبى يسمى «الكونجليز» هو أشبه بثمار الجميز يتم امتصاص

محتواه السكرى، ويباع بالواحدة.

لذلك يتكرر كثيرا مشهد شاب يدفع أمامه عربة خشبية عليها كميات من ثمار الكونجلز، البائع يزود المشترى بالطريقة النموذجية لاستخدام هذه النوعية من المنشطات، كما تفترش بعض البائعات الأرض فى السوق، وأمامهن بعض الثمار والبضائع المماثلة التى تخص المرأة، بعضها يضاعف من رغبة المرأة على القدرة الجنسية، وبعضها الآخر يعطر جسدها بأنواع من البخور التى تنبعث منها رائحة مميزة تثير الزوج، ولا تتحرج البائعة أن تنادى عليك وهى تبتسم لترويج هذه النوعية من البضائع.

مثل هذه السلع تنتشر تجارتها بين الناس بسبب تفشى ظاهرة تعدد الزوجات فالكثير من الرجال يتزوجون أكثر من امرأة بدوافع اقتصادية، لأن المرأة السودانية عموما تعمل كثيرا، ويتم الاعتماد عليها فى القيام بمهام كثيرة فمثلا مسألة تأمين احتياجات القبائل من المياه فى البادية تكون من نصيب المرأة عادة، خصوصًا فى البادية التى تندر بها عيون المياه الصالحة للشرب.

كما أن مشهد المرأة السودانية وهى تقود قطيعًا ضخمًا من الأغنام والأبقار أمرٌ متكرر فى البادية الواسعة، فضلا عن مشاركتها فى كل الأعمال سواء الزراعة أو حتى فى التجارة، وقد لاحظت أن معظم المقاهى والمطاعم فى كل مدن دار فور الكبيرة أغلبها يعد حكرًا على النساء.

عموما تزدهر تجارة الأعشاب فى معظم أرجاء دار فور، ويعتمد عليها قطاع كبير من السكان فى علاج مختلف الأمراض فى ظل ندرة الأطباء والمستشفيات وارتفاع أسعار الأدوية التى يتم استيراد معظمها من خارج السودان، مما ساهم فى انتعاش هذه التجارة بصورة أوسع فى ولاية الجنوب نظرًا لقربها مع حدود العمق الأفريقى باعتباره مصدرًا رئيسيًا لكثير من الأعشاب النادرة.

فى دارفور ظهر محترفون، مهنتهم الرئيسية بيع وترويج هذه الأعشاب، وهؤلاء معروفون بين السكان، بعد أن تحولت هذه التجارة إلى مهنة يتوارثها الأبناء عن آبائهم، ويعتبر معظمهم أن لعملهم أسرارًا يجب أن يحافظوا عليها، باعتبارها مصدرًا أساسيًا للرزق حتى أنهم لا ينتشرون فقط فى القرى النائية بل يتواجدون فى المدن الكبيرة،

حيث يضعون لافتات على محلاتهم معلنين عن أشهر التركيبات التى تعالج مختلف الأمراض. ويعتبر على عثمان واحدًا من أشهر هؤلاء التجار.

وسط سوق مدينة نيالا التقيت، مع «على» الهوساوى الذى يأتى إليه المرضى من القرى والبادية البعيدة بحثًا عن علاج لأمراضهم، سعيًا وراء شهرته الواسعة، وأمام محل فى الميدان الرئيسى بالمدينة يضع «على» حقيبة ضخمة مكتوبًا عليها بخط يد واضح العديد من الأمراض واسم العشب الخاص بعلاجها، والناس يتعاملون معه كأنه يمتلك مفتاحًا سحريًا لعلاجهم من أخطر الأمراض مهما كانت درجة خطورتها.

الهوساوى ورث هذه المهنة عن والده الذى كان يرافقه فى تنقلاته لعلاج الناس فى القرى البعيدة منذ صغره.. عند وفاة الوالد احترف الابن المهنة، بعد إلمامه بأدق أسرارها والتعرف على معظم تركيبات الأعشاب ومصادرها، ثم واصل مشوار الأجداد فى تخفيف معاناة المرضى.

«على» يؤمن بأن لكل داء عنده دواء، بدءًا من تسوس الأسنان وانتهاء بفيروس (الإيدز) مرورًا بحصوات الكلى والمرارة، بالإضافة إلى الأمراض التناسلية الخطيرة الأخرى، جازمًا بفاعلية هذه الأعشاب ونتائجها العملية التى تدفع الناس إلى الاستعانة به، والبحث عنه أثناء الأزمات الصحية مهما كانت خطورتها باعتبار أن هذه التركيبات لم تأت من فراغ بل توصل إليها بعد ممارسات وتجارب طويلة حتى وصلت إلى الشكل النهائى المضمون النتائج.

وحول نوع ومصدر هذه الأعشاب؛ يرى أن معظمها غير موجود فى السودان بل مصدرها الأصلى فى ولاية بحر الغزال بالجنوب، وشمال أوغندا وأفريقيا الوسطى ونيجيريا، حيث تنمو وتتواجد معظم هذه الأعشاب بكثافة فى المناطق الاستوائية الحارة.. هذه النباتات لها أسماء متداولة ومعروفة بلغة قبائل الهوسا الممتدة فى معظم القلب الأفريقى.

الهوساوى يجزم بأن لكل مرض تركيبة عشبية معينة تصل إلى ٨ عناصر فى بعض الأحيان معظمها إما عبارة عن لحاء شجرة بعينها أو لبها أو أوراقها، وبعض التركيبات تأتى من جذور الأشجار، وهذه هى الأغلى فى السعر، ومثلاً فى حال علاج المغص الكلوى توضع أربعة عناصر من لحاء وأوراق بعض الأشجار ثم تجفف ويتم سحقها

حتى تصبح مثل البودرة وتغلى جيدًا فى الماء ويشربها المريض ثلاث مرات يوميًا، وهذه الوصفة جرى تجريبها كثيرًا، ونتائجها مضمونة بنسبة عالية.

تعتبر أمراض الكلى الأكثر انتشارًا فى دار فور، نظرًا لندرة المياه وعدم توافر معدات التنقية، تليها أمراض عسر الهضم والجلدية، أما الأمراضُ التناسلية فهى الأكثر شيوعًا بين الشباب، ويحرص التجار على توفير الأعشاب المناسبة لعلاجها بشكل دائم.

.. وهناك متخصصون فى عملية خلط الأدوية المحلية بالمستوردة من الدول المجاورة فهى الأرخص والأكثر انتشارًا بين السكان، وأشهر الأعشاب التى يعمل فى تجارتها عشب «اللالوب»، وهى ثمار أشجار منتشرة فى البادية بدار فور حيث يغلى الثمر فى الماء ويشربه كل من يعانى من ضغط الدم أو المغص والتعسر فى البول.

وكذلك شجرة (التبلدى) الشهيرة لها ثمر شبيه بالقرع يتم استخراج محتواهواستخدامه كعصير شعبى، وعلاج لعسر الهضم ومشاكل المعدة، والطريف أن أحد التجار لجأ إلى حيلة ذكية لتسويق منتجاته العشبية عن طريق طبع اسم العشب وطريقة استخدامه والأمراض التى يعالجها.

وأغلب هذه الأسماء من وحى خياله .. لم يثبت لها أساس علمى أو طبى، والمثال على ذلك عشب «نجدا مين» وكتب على تعريفه الآتى: يعنى الداء الآمين لجميع أمراض القلب والأمراض الصعبة كالأنيميا والصمام والانسدادات الحادثة فى الدورة الشهرية وعوارض الإنجاب وتنشيط الأجهزة الجنسية رجالاً ونساءً بجانب الرطوبة المزمنة، «نجد مين» أعشاب خالية من الكيماويات استعمل «نجد مين» تجد قيمة العافية ومتعتها!!

أما «المعسولين».. فهو الدواء الأكثر انتشارًا فى محال بيع الأعشاب لدى «الشيخ أحمد»، حيث وضع روشتة للعشب، وكتب عليه «مركب معسولين كالريح الجارف تقتلع الأمراض قلعًا بأمر ربها فكان دواءً لكل هذه الأمراض: الرطوبة، الكبد، الطحال، الأزمة، أمراض الصدر، آلام الظهر، الفتور الجنسى، بجانب الفتور العام لكثرة الأخلاط، السكرى. الصحة تاج ستجدها فى معسولين جرب ولاحظ الفرق».. يبرر الشيخ أحمد دقة هذه المعلومات بأنه استنتجها عبر ممارسات عملية طويلة عندما كان يعمل مع والده فى هذه التجارة وهو صغير!!

قطاع كبير من المواطنين فى دار فور مازالوا يؤمنون بالفوائد، وبالنتائج الفعالة لهذه الأعشاب، معتمدين على أن هناك أقساما فى كلية الصيدلة فى العاصمة الخرطوم أدخلت الأعشاب ضمن برنامجها الدراسى وأصبح علمًا قائمًا بذاته، له أسراره ومعجزاته التى يعجز الطب الحديث عن إيجاد علاج كيماوى لها، وشفاء العديد من الحالات المرضية بعد تناول هذه التركيبات العشبية.

تركيب الأعشاب وخلطها مع بعضها لا يتم بطريقة يجيدها التجار حيث تتطلب خبرات عملية طويلة بحيث تعطى نتائج إيجابية للمرضى، ليست مسألة عشوائية بل هى سر مهنة «العشاب» التى يصل إليها عبر خبرات وتجارب طويلة، لذلك كل واحد منهم يحافظ على عمله، ويورثه أولاده من بعده.

أصحاب الصيدليات المحدودة فى دارفور، يستخفون بعلاج الأعشاب، ويؤكدون أن هذه التجارة لا تخضع لأى منطق علمى، وتعتمد على قليل من الصدفة، وكثير من الدجل، رغم اعتراف البعض منهم بدور الأعشاب، وعدم تجاهل مفعولها فى علاج بعض الأمراض، وليس كلها كما يزعم هؤلاء الذين يصنفهم الصيادلة كونهم مستغلين لظروف المرضى.

أغلب الصيادلة يرون أن هذا الأسلوب فى علاج المرضى كان يمكن الاعتماد عليه فى السابق، أما حاليًا فقد تراجع دور الأعشاب كعلاج بعد انتشار الصيدليات، ففى مدينة نيالا وحدها حوالى٨ صيدليات، و١١ مركزا طبيا، وثلاثة مستشفيات، كما يعمل فى المدينة ١٦ أخصائيا، و٢٤ طبيبا ممارسا.. فى الفاشر يوجد عدد مماثل بينما يتراجع العدد إلى النصف، فى المدن الأخرى.

صيدليات دارفور تحرص على توافر أدوية علاج الملاريا، باعتبارها أكثر الأوبئة انتشارا، ثم تليها أدوية البلهارسيا، بجانب الأدوية الخاصة بعلاج الأمراض الباطنية والكلى بسبب التلوث الدائم لمياه الشرب التى تسبب الكثير من المتاعب الصحية لقطاع كبير من السكان، مع أن الوعى التدريجى والاهتمام بالصحة العامة فى تصاعد مستمر مما جعل الكثير من المرضى القادرين يلجئون إلى العلاج الذى يحدده الأطباء، بعيدًا عن استغلال العاملين فى تجارة الأعشاب.

22

ترويض النمرة الأشرس

قبل زيارتى لدار فور كنت لا أعرف وظيفة أخرى للأشجار، غير الحصول منها على الأخشاب، أو الاحتماء بظلها من الحر؟، غير أننى لاحظت أن أهالى دار فور ابتكروا لها وظيفة جديدة، فقد حولوها إلى خزانات لمياه الشرب النقية. كيف تم ذلك ولماذا ؟!.

مياه الشرب، تعتبر فى مقدمة المشكلات التى يعانى منها سكان البادية الذين يشكلون أغلبية سكان دارفور، فارتفاع درجة حرارة الشمس يبخر جزءًا من المياه، بينما الجزء الآخر تمتصه التربة الرملية ليتم تخزينه فى باطن الأرض، وتتحول مع مرور الوقت إلى مياه جوفية تتميز بقربها من السطح على عمق يصل إلى مترين.

أهالى دار فور يقومون بتفريغ قلب الشجرة، وعمل تجويف كبير فى وسطها.. من ثم يحولونها إلى خزان للمياه، وقد شاهدت شجرة «التبلدى» الاستوائية الضخمة، وقد تحولت إلى ما يشبه خزان المياه التقليدى، الذى يوفر احتياطيًا معقولاً من مياه الشرب، يكفى عددًا من الأسر المتجاورة لفترة معقولة.

الحقيقة.. أن السكان هناك يواجهون سلسلة من المعاناة اليومية، فى طريقهم للبحث عن لقمة العيش، وسط حياة بدائية صعبة.. أن سعر بيضة الدجاج قد وصل إلى ٥٠٠ جنيه سودانى!، والشخص يحتاج إلى ألف جنيه ثمنًا لطبق فول!!، ومع

ذلك لاحظت زحاما على المطاعم، فى الصباح الباكر بمدينة الفاشر شمال الإقليم، لكن الأمر يزداد صعوبة فى القرى البعيدة وقلب البادية.

يتحسر السودانيون على الوضع الذى آل إليه الجنيه..، فمراحل تدهوره تدعو للفزع الاقتصادى، ويحلو لهم المقارنة بين قيمة صرف عملتهم، فى الماضى وقيمتها حاليًا.. فارق رهيب، خصوصًا بعد أن اضطرت حكومة جبهة الإنقاذ إلى إدخال «الدينار» إلى جانب الجنيه فأصبح كل دينار يساوى عشرة جنيهات، ويعرفه السودانيون البسطاء بزيادة صفر على أوراق الجنيه ليصبح الجنيه دينارًا.

***

إنسان دارفور يخوض رحلة من أجل البقاء، والتحايل على الطبيعة القاسية، حتى صار مجرد بقاء الإنسان على قيد الحياة، إنجازا فى حد ذاته.. فالأوضاع الاقتصادية مأساوية، تفتقد لأبسط مقومات الحياة الأساسية؛ فلا مرافق عامة فى أى مجال؛ والتنمية بمفهومها الشامل غائبة تمامًا، ولم يتنبه أحد إلى خطورة هذا الوضع على مستقبل الإقليم، إلا مع تدويل الصراع ودخوله أروقة مجلس الأمن!

وبسبب هذه الأوضاع السيئة، إضافة للمناخ شديد الحرارة، تحول ثلث المجتمع الذى يقدر عدد سكانه بحوالى٦,٦ مليون نسمة، إلى لاجئين يعيشون على المعونات الخارجية، بينما يحاول الثلثان التكيف مع هذه الأوضاع بابتكار نماذج وأدوات اقتصادية بدائية، تكون بديلاً لغياب مقومات التنمية.

الأهالى ابتكروا مشروبات شعبية متميزة، معتمدين على ما توفره الطبيعة من ظروف مناخية، فهم يستغلون الأمطار فى زراعة البطيخ، ودفنه فى الرمال، وبمرور الوقت يتحول إلى عصير سكرى يعتبره الأهالى مشروبهم الشعبى الأول.

صعوبة المواصلات أزمة لا يمكن تجاهلها، فرغم أن مساحة إقليم دارفور تقدر بحوالى مليون كم مربع،أى أنها فى حجم دولة مثل العراق، لا تتوافر فيها طرق ممهدة تربط بين المدن الرئيسية للإقليم، وهى: (الفاشر، نيالا، الجنينة)، كما لا يوجد طريق يربط بين الخرطوم ومدن دارفور!

لا يتوقف الأمر عند هذا الحد، فأسعار الوقود مشتعلة، رغم أن السودان أصبح ينتج أكثر من ٣٠٠ ألف برميل نفط يوميًا، لكن سعر لتر البنزين يتجاوز نصف دولار، وهو ما لا يقدر الأهالى على دفعه، من هنا يتم البحث عن وسائل مواصلات تستهلك وقودًا أقل.

نقل الركاب بين المدن يشكل عقبة كبيرة؛ فعدم توافر الطرق يفرض على المواطنين تحويل شاحنات النقل الكبيرة إلى باصات لنقل الركاب، خاصة أنها تسير وسط دروب، وتعبر جبالا ومستنقعات لا تستطيع غيرها من السيارات المرور بها، فضلا عن التكدس الذى يلجأ إليه أصحابها حتى يحققوا أكبر عائدٍ اقتصادى من ورائها.

أما الكهرباء فهى نادرة فى دارفور.. أغلب سكان الإقليم يعتمدون على كهرباء المولدات، مرتفعة الثمن؛ مما يجعل الأهالى يعتمدون على الحطب والأخشاب كمصدر رئيسى للطاقة، وهو أسلوب حياة عشرات القبائل التى تسكن فى جبل (مُرة) منذ مئات السنين، فهم لا يعرفون شيئا عما يجرى حولهم، حياتهم تقريبا شبه بدائية، يعتمدون على الطبيعة كمصدر أساسى للحياة، فى كل شىء.. حاولت استخدام شبكة الانترنت، فقضيت ساعة كاملة أحاول الوصول إلى الشبكة.. ففشلت.

***

ولأنها طبيعة قاسية، يحاول المواطنون استثمار كل ما هو متاح أمامهم حتى لو كان فيه خطورة على حياتهم، فمثلا تزدهر فى الإقليم صناعة الجلود بكافة أنواعها خاصة جلود الثعابين غالية الثمن.

ففى مدينة الجنينة يروى تاجر جلود ثعابين أن ثمن جلد الثعبان من نوع «أم النوام» الضخم يصل إلى حوالى١٠٠ دولار؛ فهو يكفى لتصنيع نحو ٣٠ زوجًا من الأحذية، هذا النوع من الثعابين يبتلع الفريسة، ثم يفرز مادة لتحليلها وتحويلها إلى غذاء على فترات طويلة خاصة أنه يتميز بالكسل.

بعض الهواة يحاولون صيد هذا النوع بطرق خطيرة.. فالصياد يتعرف على

مكانه من آثاره على الرمال، ثم يقوم بوضع قطعة قماش على وجهه، ويتمدد على الأرض، واضعًا ساقيه فى اتجاهين متباعدين بالقرب من مخبأ الثعبان، ويبقى فى مكانه هكذا لعدة ساعات، حتى يشرع الثعبان فى التحرك خارج المخبأ، ثم يبدأ فى ابتلاع إحدى ساقيه.. عندما يشعر الصياد بأنه قارب على منطقة الفخذ، يهرع على رأسه بسكين حاد، فى ضربة واحدة تقضى عليه، فيظل يتحرك بعصبية، بينما هو يكون قد أخرج ساقه من فمه، سعيدًا بصيده الثمين!!

***

المسكن بدوره يمثل ملمحا مهما فى دارفور، فبناء بيت أو «قطية» مسألة فى غاية البساطة، حيث يتجمع عدد من الأهل أو الأقارب ممن يعيشون فى منطقة واحدة، ويختارون موقعا لتأسيس قريتهم التى تكون عبارة عن مجموعة من «القطاطى» المتجاورة بشرط أن يكون هناك مصدر قريب للمياه.

و«القطية» شكل منتشر فى معظم الدول الأفريقية، وهى عبارة عن «عشة» متطورة بحيث يبنى الجزء الأسفل منها بالطين، والجزء الأخير بالبوص وجذوع الأشجار، كلها مواد متوافرة فى محيط المكان الذى يجرى فيه البناء، ويتم فرش أرض القطية بجلود الأغنام والأبقار لعزل الرطوبة.. هذا التكوين يساهم فى تلطيف حرارة الصيف، ويمنع تسرب مياه الأمطار فى الشتاء.

كل قطية تتسع لإيواء أسرة مكونة من أب وأم وثلاثة أطفال، وهو متوسط الأسر فى دارفور.. الأب عادة ما يقضى معظم النهار فى البادية، وتتولى الأم تدبير الطعام من خلال «كانون»- موقد بلدى- تجيد معظم النساء بناءه.. يتجاور مع القطية دورة مياه، من البوص، وكل قطية محاطة بسور من الأشجار يوفر لها الحماية، ويمنع تلصص الجيران.

الملابس- أيضًا- تعتبر من المشاكل التى تواجه السكان فى دارفور، حيث يستوردونها من الخارج، وتقوم كل قرية بإنشاء ما يسمى بسوق «ليبيا»، وهو مركز لتجميع البضائع المهربة عبر الحدود الليبية المشتركة مع شمال دارفور.

أبناء قبائل الزغاوة يحتكرون هذه التجارة، بعضهم يُصَدِرُ الأبقار والجمال لليبيا،

ويعود محملا بالبضائع المختلفة خاصة الملابس.. فملابس الرجال بيضاء لتعكس حرارة الشمس، أما النساء فلهن أثواب تتميز بالألوان الزاهية.

***

الطعام والشراب له خصوصية تناسب هذه الأجواء، فقد فرضت الحرارة الشديدة على مواطنى دارفور التوصل إلى أنواع من الغذاء الخاص، الذى يساعد على تلطيف حرارة الجسد.

«العصيدة».. من أشهر الأكلات، وهى عبارة عن الذرة المسحوق، مضافا إليه لبن وسكر، ويُغلى جميعه على النار لفترات طويلة، ثم يتناولونه فى البادية كغذاء لمقاومة الحرارة.

مشروب «المديدة»، خليط من الطحين والسكر والسمسم ومسحوق الفول السودانى والبهارات، توضع على النار لفترات طويلة، ثم يعاد تبريدها، وتكون فى النهاية مستحلبا باردا يقاوم الظمأ، ويمد الإنسان بالطاقة والحيوية.

من الأكلات التى يفضلها كثير من السودانيين «الأقاشى»، وهى وجبة محلية تنتشر محلات بيعها وسط الأحياء الشعبية والراقية، ويُقبِلُ عليها الأغنياءُ والبسطاء على حدٍ سواء، ويحرص معظم السودانيين على تناولها جاهزة من محلات معينة، يشرف عليها أبناء قبيلة «الهوسا» ذات الأصول الأفريقية المعروفة.

الأقاشى فى لغة الهوسا تعنى الوجبة «السحرية»، وهى شرائح من اللحم الضأن الحمراء، تُتْرَك لعدة ساعاتٍ فى الشمس حتى تجف، ويتم تتبيلها لساعتين داخل تركيبة من البهارات تأتى خصيصًا من أشجار معينة تنمو فى المناطق الاستوائية، بمنطقة بحر الغزال فى الجنوب، ثم توضع الشرائح والبهارات فى الليمون الحامض والفلفل، ثم تقلب فى مسحوق الفول السودانى، وتوضع فى أسياخ على الفحم لدقائق معدودة، ثم تُؤكل مباشرة بالخبز، ومعها كميات من البصل وسلاطة الشطيطة الحريفة.

هذه الأكلة معروفة، ومحبوبة لدى أبناء الشمال والجنوب، وكذلك شرق وغرب السودان، لكن أكثر الناس إبداعًا فى صناعتها هم أبناء جنوب دار فور، خاصة أنها

من الأكلات المنسوبة إلى قبائل الهوسا، المتواجدين على امتداد الحدود مع أفريقيا الوسطى وأوغندا حتى نيجيريا.

فى مدينة نيالا تُعتبر الأقاشى الوجبة الشعبية الأولى التى تجذب الشباب والمتزوجين حديثًا، لاعتقادهم أنها تعطى طاقة مضاعفة للجسم، فيعتبرونها «فياجرا» طبيعية، خصوصًا أن محلات بيعها تبدأ عملها فى الفترة المسائية، فهى بالنسبة لهم ليست وجبة رئيسية فحسب، بل هى أكلة مسلية، ومصدر للطاقة والقوة والحيوية.

فى أحد الشوارع الرئيسية بنيالا تناولتها عند إبراهيم آدم-٣٠ عامًا- أشهر من يقدمها، وهو من قبيلة الهوسا، قد ورث صناعة الأقاشى عن والده، الذى كان يعمل نفس المهنة وكذلك الجد.

السر فى الإقبال الشعبى على هذه الأكلة بالذات يعود من وجهة نظر البعض، لأنها وجبة صحية تمامًا، خالية من الدهون والكوليسترول، فاتحة للشهية، يتناولها الكثير من الناس على أنها علاج وغذاء فى نفس الوقت.

ورغم انتشار محلات «الأقاشى» فى معظم مدن السودان، إلا أنها تزداد كثافة فى مناطق دار فور، نظرًا لتوافر اللحوم بأسعار مناسبة، وبنوعية مميزة عن غيرها، فى باقى المدن، كما أن أبناء قبائل الهوسا منتشرون بكثافة فى جنوب دار فور.

كما توجد «الأقاشى» فى العاصمة الخرطوم، ومدينة أم درمان، حيث تتوافر محلات تقدم هذه الأكلة، لكن عددها محدود للغاية، لذلك تشهد هذه المحلات ازدحامًا بشكل دائم.

تتميز محلات تقديم الأقاشى بالبساطة والتواضع، كعادة أهل السودان، حيث يحرص أصحابها، على أن تكون فى مكان مفتوح، يسمح لهم بوضع عدد من المقاعد والأرائك الخشبية وطاولات صغيرة، يُوضع فوقها طبق الأقاشى، بجانبه طبق آخر مملوء بالبصل، وطبق ثالث يحتوى على الشطة «الحامية» التى يفضلها السودانيون مع مختلف الوجبات.

يعتقد كثير من السودانيين أن «الأقاشى» تضاعف مناعة ومقاومة الجسم

الطبيعية، فيتناولها البعضُ كعلاج لمقاومة حُمى الملاريا المنتشرة بكثافة فى مختلف أرجاء السودان، فضلاً عن أن مكوناتها تمُد الإنسان بطاقة وحيوية غير عادية، خصوصًا فى أوقات الشتاء، حيث يعتبرها الأهالى علاجًا للبرد والأنفلونزا.

***

ويبدو أن الصراع المسلح فى الإقليم، ترك آثاره على مختلف جوانب الحياة، فأصبحت ثقافة العنف هى الأكثر انتشارًا بين الشباب، وبرز ذلك من خلال نوعية الأفلام التى تعرضها السينما الوحيدة الموجودة فى مدينة نيالا، حيث تسيطر أفلام الرعب والأفلام الهندية المليئة بالإثارة والقتال عليها، وتشهد إقبالاً واسعًا من الجمهور.. السينما تقدم عروضها المسائية بشكل منتظم، منذ إنشائها عام ١٩٦٧، وهى تتبع الشركة السودانية للسينما التى تعود ملكيتها إلى رجل أعمال سودانى من أصل مصرى.

الزحام يبدو أمام مبنى السينما لافتًا.. فكل ليلة يحرصُ الشبابُ من الجنسين على حضور العرض، الذى غالبًا ما ينتهى قبل حلول موعد تطبيق حظر التجوال الذى تفرضه قوات الشرطة السودانية فى كافة أنحاء المدن الرئيسية .. بمقتضى هذا الحظر يتم منع دخول أو خروج أى شخص من المدينة، ليلاً حتى الصباح، بهدف تجنب الهجمات التى تشنها ميليشيا التمرد على مراكز الشرطة وقوات الأمن فى كل المدن والقرى بإقليم دار فور.

مدير سينما نيالا «شاب فى مقتبل العمر» قال إن لديهم عرضًا يوميًا يقدمون خلاله أحد الأفلام الهندية، بناءً على رغبة الجمهور، الذى يمثل الشباب أغلبيتُه، باعتبار أن السينما المصدر شبه الوحيد للترفيه فى المدينة، فهى تخفف عن السكان قيود حظر التجوال، وتبعدهم عن الجو المشحون، الذى يفرضه استمرارُ المعارك بين المتمردين والحكومة.

هذه السينما تغطى مساحة يقيم عليها أكثر من مليون ونصف مليون مواطن، تقريبًا هم عدد سكان جنوب دار فور.. إدارة السينما جربت عرض الأفلام الأمريكية، لكنهم لاحظوا تراجع الإقبال الذى وصل إلى حد المقاطعة، فاضطروا للعودة مرة أخرى إلى العروض الهندية، خصوصًا أفلام «الأكشن»، التى تستهوى

القطاع الأكبر من الجمهور، أما القطاع الثانى فهم التجار الوافدون على المدينة، من القرى والبادية المجاورة، وهم يقضون عدة أيام قبل عودتهم لقراهم، فتكون عروض السينما جزءًا أساسيًا من برنامجهم الترفيهى، باعتبار أن السينما متوافرة فى المدينة فقط.

المدير الشاب قال أيضا إن جزءًا كبيرًا من جمهور السينما يطلب الأفلام المصرية التى تعالج قضايا الجاسوسية، وتتناول الصراع بين المخابرات المصرية والإسرائيلية.. هذا النوع من الأعمال السينمائية يضاعف حجم الجمهور، ويحقق عرضه أرباحا ضخمة، واللافت أن ارتياد السينما ليس مقصورا على الرجال، بل أحيانًا تحرص العائلات على حضور العروض المختلفة، حيث تتسع السينما لأكثر من ٣٠٠ شخص فى كل عرض.

23

بتورنق تونقا

قطعة من الجنة، يتغنى به الشعراء، يقصده المرضى للعلاج، ويجد فيه المتزوجون سر السعادة، يلجأ إليه الباحثون عن الإنجاب، فكما أنه بيت الشيطان، ومأوى للوحوش وموطن للسحر.. هو أيضا واحة للتأمل وساحة للخرافة والخزعبلات فهو أقرب للأساطير عن الواقع، موقعه المحصن، أغرى المتمردين بالسيطرة عليه، ودفع أسامة بن لادن زعيم تنظيم القاعدة لزيارته خلال فترة إقامته فى السودان، وأوصى أتباعه بدراسة استخدامه كمركز حيوى فى المعركة مع الشيطان الأكبر«الولايات المتحدة».

إنه جبل «مَرة» بفتح الميم وتشديد الراء، باعتباره فريدا من نوعه ولامثيل له، كما أنه أهم معالم غرب السودان، هواؤه نسيم، جوه عليل، مقصد الباحثين عن السكينة، تتدفق من عيونه مياه عذبة، تلامس أطرافه أقاليم دار فور الثلاثة.. مساحته الكلية ضعف مساحة سويسرا، ويبدأ من مدينة كاس جنوبًا إلى ضواحى الفاشر شمالاً، ارتفاعه ١٠آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر، ويتكون من سلسلة من المرتفعات بطول ٢٤٠ كلم وعرض ٨٠ كلم، تتخللها الشلالات والبحيرات البركانية.

طقس جبل «مَرة» معتدل يغلب عليه مناخ البحر الأبيض المتوسط ، حيث تتساقط الأمطار كل فصول السنة، مما يتيح الفرصة لنمو الموالح والتفاح والأشجار الغابية

المتشابكة.. هذه الأمطار الغزيرة توفر إمدادًا مائيًا مستمرًا للأراضى الزراعية مما يجعل تربتها صالحة لزراعة الذرة و«الدخُن» والخضروات.

يوجد بالجبل العديد من أنواع النباتات التى ينفرد بها دوليًا بالإضافة إلى مجموعات كبيرة من الحيوانات النادرة والأليفة.. تربته تغطيها طبقة رسوبية سميكة من الرماد البركانى الذى يصلح للزراعة ويتميز بقابلية عالية للتعرية وتكوين الأخاديد.. تنتشر بداخله غابات طبيعية ومزروعة، بها شلالات ومساقط مائية دائمة، أشهرها شلالات قلب (راديو) وبركة الفيل وبركة الشيطان، فى منطقة «نرتتى».

قرية «مرتجلو» بوسط الجبل تشتهر بكثرة (القرود) بمختلف أنواعها، أما منطقة «ضريبة» فهى عبارة عن بحيرة الفوهة البركانية للجبل حيث توجد بها بحيرتان إحداهما دائرية والأخرى مستطيلة وبها أشجار كثيفة، بجانب بحيرة «كندى» المعروفة بمياهها الكبريتية الصحية التى كان يتوافد عليها المرضى من كافة بقاع السودان قبل أحداث التمرد الأخيرة.

جبل «مَرة» مأهول بالسكان، والقرى الطبيعية الجميلة التى تنتشر حتى أعلى نقطة فيه، ويعتبر منطقة جذبٍ سياحى للكثير من الزائرين للتمتع بالمناظر الخلابة والبيئة النقية، فى أعلى قمته الشاهقة، تعيش قبائل على الفطرة ، شبه معزولة عن محيطها الخارجى ،حياتهم بدائية بعضها مازال ،يستخدم الحجارة كمصدر للنار والطاقة.

المصادر التاريخية المتعلقة بأصول قبائل دارفور تشير إلى أن معظمها قبائل وافدة عدا قوم يطلق عليهم «التورا» وهم إحدى قبائل الفور حاليا وأنهم أول من تواجد على أرض دار فور، كانوا طوال القامة ذوى أجسام ضخمة، سكنوا جبل مرة فى بيوت دائرية مبنية من الحجر تعرف عند الفور بـ «بتورنق تونقا» أى بيوت العمالقة.

وما زالت هناك قرية صغيرة فى جبل «مَرة» تحمل هذا الاسم وإن بعض الفور يطلق عليها البيوت الأثرية أو بيوت «أبو قنعان» أى بيوت بنى كنعان، والمعروف عن بنى كنعان الذين عاشوا فى شمال الجزيرة العربية قبل الإسلام أنهم اشتهروا بطول القامة وضخامة الجسم.. الاستكشافات الأثرية الحديثة.. عثرت على

جماجم وعظام طويلة للأرجل والأذرع ومقابر كبيرة فى حجمها يزيد طول الهيكل العظمى على مترين.

تنتشر البيوت الدائرية حتى الآن على طول سلسلة جبل «مُرة» بدءا من عين فرح فى شمال دارفور إلى جبل سى وجبال كاروا فى الوسط وعلى قمم الجبل وسفوحه الجنوبية، لكن لم يتضح بعد ما سر العلاقة ما بين «التورا والكنعانيين»، أم أن الأمر لم يعدُ أكثر من مجرد تشابه، خصوصا أنه لا توجد فترة أو تاريخ محدد يؤكد حقيقة تواجد الكنعانيين بدقة فى تلك المنطقة، ويجرى علماء الآثار تحليل العظام لتحديد أعمارها الزمنية التى عاش فيها.

لم تكن مفاجأة للسودانيين أن يعلن زعيم تنظيم القاعدة أسامة بن لادن أن السودان ودارفور تحديدا ستكون مسرحا لحرب طويلة المدى ضد ما أسماه «اللصوص الصليبيين». وأعلن فى رسالة واضحة[١٢] «أعزم على المجاهدين وأنصارهم عموما وفى السودان وما حولها بما فى ذلك جزيرة العرب خصوصا أن يعدوا كل ما يلزم لإدارة حرب طويلة المدى ضد اللصوص الصليبيين فى غرب السودان».

قد يظن البعض أن تهديد بن لادن هو كالعادة للاستهلاك والدعاية الجوفاء، لكن الملاحظ لمسار بن لادن الحياتى ولوجود العديد من التنظيمات المتطرفة المنتشرة حول السودان، عربيا وأفريقيا، علاوة على أن السماح بالوجود الأجنبى أو قوات دولية فى دارفور كفيل بأن يطلق تنظيم القاعدة ومؤيديه صوب السودان، كما حدث فى العراق، الذى يرى هذا ويدرك عن قناعة أن تحذير بن لادن جد لا هزل، وأن معطيات الواقع تؤيده بقوة.

فالسودان ليس بلدا غريبا على بن لادن الذى عاش فيه منذ أواخر الثمانينيات وحتى عام ١٩٩٦ حين اضطر لمغادرته إلى افغانستان حيث تمكن خلال تلك الفترة أن يتجول فى ربوعها حتى أصبح يعرف السودان جيدا، ومنه أراد الترعرع لتنظيمه الجهادى السلفى العالمى، وتأسيسه لتنظيم القاعدة فى عام ١٩٩١، ثم نقل معركته ضد الأنظمة الحاكمة فى البلدان العربية إلى مسانديها ممن أطلق عليهم «حلف الكفر والصليبيين» الذى يضم الولايات المتحدة والحكومات العميلة والشركات الدولية المحتكرة.

وبموجب هذا دعا منظره «أيمن الظواهرى» كل المعادين لحلف الكفر.. الاستعداد للجهاد، وأصبح كل من يؤيد حلف «الموحدين» أو «الحلف الأصولى العالمى» ينتمى فكريا إلى القاعدة حتى لو لم ير بن لادن.. هؤلاء بشهادة الأمم المتحدة فى زيادة مطردة، كلمات بن لادن عن السودان كأنها ترسم خطوطا عريضة لخطة قطع الطريق إلى دار فور، والاستعداد للمعارك المقبلة، حينما يردد: «وإنى أحث المجاهدين أن يتعرفوا على أرض وقبائل ولايات دارفور وما حولها.

فى ذروة الأزمة بين السودان والولايات المتحدة طرح أسامة بن لادن رؤيته للصراع فى هذه المنطقة، على أساس أن هنالك حربا صليبية صهيونية ضد المسلمين، وفى إطارها كون الغرب جيشا من أهل الجنوب بالسودان ودعمهم بالمال والسلاح ووجههم للمطالبة بالانفصال، ويقول: «وتبنت أمريكا هذا الجيش بالدعم المادى والمعنوى وعبر أدواتها الدولية كالأمم المتحدة توجهت لإثارة فتن أخرى. وكان من أكبرها فتنتها فى السودان، مستغلة بعض الخلافات بين أبناء القبائل وإثارتها حربا شعواء فيما بينهم تأكل الأخضر واليابس تمهيدا لإرسال قوات صليبية لاحتلال المنطقة وسرقة نفطها تحت غطاء حفظ الأمن هناك».

التدخل الأجنبى فى السودان، أيا كان مضمونه، يعتبره البعض يوفر الدافع لكل من ينتمى لتنظيم القاعدة فكريا أو عضويا لمنازلة من يرونهم كفارا وصليبيين وصهاينة.. فالمناطق القريبة والمحيطة بالسودان، عربيًا وأفريقيًا، تسهل تسرب المقاتلين العرب والأفارقة بعكس أفغانستان مثلا التى لم يكن يوفر موقعها الجغرافى إمكانية كبيرة للانضمام للمقاتلين ومن ثم فقد يمتد وجود القاعدة فى السودان لسنوات عديدة.

وأبرز ما يمثله السودان من فرص لأعضاء القاعدة ومعتنقى فكرها يتضح فى توفيره إمكانية تنفيذ هدف فكرى هو منازلة قوات خارجية على أرض إسلامية أخرى غير العراق.. هدف آخر عملياتى وهو أن طبيعة الجغرافيا السودانية وما يحيطها من مناطق يسهل عمليات الكر والفر ويدخل القاعدة فى حرب طويلة الأمد مع القوات الأجنبية.. ربما تكون أرض السودان منطلقا لمقاتلة، من تطلق عليهم «القاعدة» عملاء الداخل من حكام المسلمين بالدول المجاورة.

الولايات المتحدة تخشى من قيام تحالف فى المستقبل بين تنظيم القاعدة والتنظيمات المسلحة فى الصحراء الأفريقية فى شكل حزام يضم السودان وتشاد وأفريقيا الوسطى ثم الجزائر وموريتانيا.

هذا التخوف يدعمه وجود عناصر جهادية «نائمة» فى عدة مناطق بالقرن الأفريقى تنتظر الأوامر لتصبح نشطة.. لعل هذا هو الداعى لرغبة أمريكا تكوين قوة عمل تشارك فيها ١١ دولة أفريقية لمكافحة الإرهاب فى منطقة شرق ووسط أفريقيا، تنتشر فى كل من مصر وأثيوبيا وإريتريا وجيبوتى وبوروندى ورواندا والكونغو وكينيا وأوغندا وتنزانيا وسيشل، تشرف على عملها جميعا القيادة المركزية الأمريكية.

بعض التقارير الليبية تشير إلى أن «الجماعة السلفية للدعوة والقتال» أقامت قاعدة للعمليات فى مرتفعات تيبستى الجبلية الصحراوية فى شمال تشاد، وتجند بالقوة متطوعين تشاديين، سودانيين، ليبيين، ماليين، موريتانيين.. هؤلاء المقاتلون يتدربون على استخدام المتفجرات عبر أجهزة متطورة بالإضافة إلى ما تسرب عن الجماعة السلفية للدعوة والقتال التى نشأت عام ١٩٩٦ من رحم الجماعة الإسلامية المسلحة فى الجزائر. ويقدر عدد مقاتليها بنحو ٣٠٠ مقاتل، حيث تسعى إلى الإطاحة بالحكومة الجزائرية، وإقامة دولة إسلامية فى الجزائر ومهاجمة المصالح الغربية فى المنطقة.. هذه الجماعة مدرجة على القائمة الأمريكية للجماعات الإرهابية منذ عام ٢٠٠٢ وترتبط بصلات بتنظيم القاعدة الذى يقوده أسامة بن لادن.

وقد استطاعت الجماعة السلفية إلى حد ما تجنيد أشخاص كثيرين من جنسيات أفريقية مختلفة، خاصة من النيجر وموريتانيا ومالى وتونس ونيجيريا وليبيا وتشاد، ممن يؤمنون بالفكر الجهادى للقاعدة.. هؤلاء يرون أن السلفية الجزائرية أفضل إطار يمثل هذا الفكر فى شمال أفريقيا والساحل.. يتزامن ذلك مع إعلان الجيش الموريتانى عن أن أشخاصا ينحدرون من الجنسيات المذكورة شاركوا فى هجوم على ثكنة تقع بمنطقة المغيطى القريبة من الحدود مع الجزائر فى يوليو ٢٠٠٥، وخلف الاعتداء ١٥ قتيلا فى صفوف الجيش الموريتانى.

كل هذا أيقظ هواجس الأنظمة الأفريقية من خطر الجماعات المسلحة التى تتبنى أسلوب القاعدة فى العمل المسلح.. الولايات المتحدة أسرعت بالاستعداد وهذا يفسر السر وراء عمليتى «فلينتلوك» و«بان ساحل» وهما عبارة عن مجموعة برامج لتكوين جيوش الساحل والشمال الأفريقى برعاية (البنتاجون) لمواجهة خطر المسلحين، بالإضافة إلى تدريبات فى السنغال وموريتانيا شاركت فيها جيوش المنطقة فى عام ٢٠٠٥.

هناك شكوك أمريكية بشأن وجود امتداد للقاعدة فى تشاد خصوصا بعد أن أصبحت المنظمتان تتشاركان المصلحة نفسها فى محاربة الجيش التشادى، مع ملاحظة أن الجماعة السلفية للدعوة والقتال كانت أعلنت فى سبتمبر ٢٠٠١ عن ولائها لتنظيم القاعدة.. من أجل ذلك سعت إلى توحيد الجماعات الجهادية بالمنطقة لضرب المصالح الغربية والأمريكية، ولذا كلفت عضوين بارزين فى صفوفها بالتغلغل فى أقاصى الصحراء، وربط الاتصال بالجماعات المسلحة المعارضة للأنظمة، فى تشاد ومالى والنيجر وموريتانيا وفى ليبيا، وهذان العضوان هما «عمارى صايفى» و«مختار بلمختار».

المعروف أنه لم تظهر فى شمال أفريقيا جماعات مسلحة منظمة مثل الجماعة السلفية، ونادرا ما تبرز هذه الجماعات من خلال أعمال مسلحة لشد الانتباه إليها. ومن أهم تلك الجماعات، «الجماعة الإسلامية المجاهدة» فى ليبيا و«الجماعة الإسلامية المقاتلة» بالمغرب.

لهذا كله فقد عقدت الاستخبارات الأمريكية فى فبراير ٢٠٠٦ اجتماعا بالجزائر جمع مسئولى المخابرات من كل شمال أفريقيا والساحل لبحث مطالب تلك الحكومات لمواجهة خطر مثل هذه الجماعات.. الأمريكيون تعهدوا بتزويد جيوش تلك الدول بعتاد عسكرى وأموال ضخمة لهذا الغرض، وكلف «المركز الأفريقى» الموجود بالجزائر بالتنسيق بين الدول التى تواجه خطر الإرهاب بالمنطقة.

فضلا عن عدم غرابة أفريقيا على أعضاء القاعدة ومقاتليها فإن القارة السوداء تمثل بطبيعتها مرتعا خصبا لأفراد وعمليات القاعدة وتدريباتها وتجنيدها لعناصر جديدة، نظرا لصعوبة ضبط الحدود ومنع التسللات.

المجموعة الدولية لمعالجة الأزمات حذرت فى أوائل عام ٢٠٠٥ من أن الولايات المتحدة ستعمل على زيادة «التشدد الإسلامى» فى الدول الواقعة بمنطقة الصحراء الأفريقية بتنفيذها وتطبيقها سياسة «القبضة الثقيلة» فى مكافحة الإرهاب بهذه المنطقة، فى الوقت الذى تنشط فيه جهود الإغاثة والدعوة إلى الإسلام فى المنطقة.

تقرير المجموعة أشار إلى أن تدريب القوات الأمريكية فى مالى والنيجر وتشاد وموريتانيا وهى من أفقر دول العالم قد يجعلها مرتعا خصبا للمتشددين الذين يسعون لتجنيد عناصر جديدة، وأن سياسة أمريكا العسكرية «قد تسبب المزيد من الاستياء واستعداء السكان المحليين مثل الطوارق فى النيجر ومالى الذين ينظرون بعين الريبة لوجود القوات الخاصة الأمريكية فى بلدانهم.. هؤلاء ربما يتحولون هم وجماعات أخرى فى اتجاه الأصولية التى تروج لها تلك الجماعات المنتشرة فى تلك البقاع كخطوة أولى نحو الانخراط فى التشدد الإسلامى الذى يتسم بالعنف».

إجمالا فإن هذه المعطيات جميعها تشير إلى أن حديث بن لادن عن السودان وعن الدعوة للقتال هناك لم يكن حديثا دعائيا عابرا، فثمة معركة شرسة قد تقع بين أنصار القاعدة وأية قوى أجنبية خارجية قد تتدخل فى دارفور.لعلنا قد نكون فى دارفور أمام تجربة أخرى للتدخل الخارجى أكثر فشلا من تجربة العراق.

24

الخلاص الأمريكى

علت الدهشة وجه خليل إبراهيم، رئيس حركة العدل والمساواة (المتمردة)، عندما سأله مدير مخابرات دولة مجاورة للسودان: هل أنت إسلامى تسير على خطى حسن الترابى، وهل تتبع جماعة الإخوان المسلمين السودانية؟.. إبراهيم أنكر الاتهام فى هدوء، ثم فوجئ برجل المخابرات يطلب منه أن يسب الدين!

وهكذا ظل شبح الدكتور حسن الترابى، القيادى ومؤسس حركة الإخوان المسلمين السودانية، يطارد الدكتور خليل إبراهيم منذ استقالته من وزارة الصحة عام ١٩٩٩م، إلى أن أعلن تأسيس حركة العدل والمساواة، وتأليف «الكتاب الأسود»، ثم الانضمام إلى قوى التمرد ضد الحكومة فى إقليم دارفور ليمثل قبيلة الزغاوة ذات الجذور الأفريقية.

خليل إبراهيم لم يتردد فى اتهام الترابى بتوظيفه كوزير للصحة فى حكومة «الإنقاذ» لتبرير استمرار احتكار الثروة والسلطة، وحرمان أبناء دارفور من الوصول إلى المناصب العليا، واستمرار استبعادهم من دوائر صنع القرار، فالترابى من وجهة نظره.. لا يختلف كثيرًا عن البشير، وإن كان لكل منهما أجندته، لكنهما متفقان على تركيز السلطة والثروة فى أيدى مجموعة محددة، وكلاهما حريص على أن يبعد أبناء باقى الأقاليم الأخرى عن المناصب العليا فى البلاد.

ويرى أن اقترابه من الترابى كان فرصة للتعرف على حقائق غائبة عن مشروعه

الإسلامى الذى لم يركز على رفع مستوى البشر، معتبرًا أن حكومة الإنقاذ ذات التوجه الإسلامى تعد أسوأ الحكومات، وأكثرها فشلاً فى علاج مشاكل الإنسان السودانى، سواء بالنسبة للتعليم، أو الصحة، أو الضمان الاجتماعى، أو غيرها من باقى أوجه التنمية.

الشىء الوحيد الذى حققته بتفوق إدخال البلاد فى حروب عديدة.. خليل إبراهيم أبلغ المسئول المخابراتى أن الحكومة استخدمت ورقة الترابى لتشويهه، بعد أن أصبح الترابى شخصًا مكروهًا عربيًا ودوليًا.

جبهة الخلاص الوطنى، كانت الإطار الذى حاول متمردو دارفور أن يجعلوه تجمعًا يجرى من خلاله بلورة مطالب أبناء دارفور فى جولات المفاوضات مع الحكومة.. الجبهة جاءت ردًا على نجاح الحكومة السودانية، فى اختراق الحركات من الداخل، وأقنعت فصيلا من حركة تحرير السودان يقوده منى أركو مناوى بتوقيع اتفاق جزئى للسلام، فى الوقت الذى رفضته باقى الحركات.

عواصم عربية عديدة لم تتعاطف مع قادة التمرد.. السبب أن المتمردين هم الذين حولوا الغضب الجماهيرى إلى عمل مسلح، الحكومة نجحت فى إقناع أغلب الأنظمة العربية، أن الثوار خارجون على القانون، يمارسون التمرد وفقا لأجندة خارجية تتعارض مع الثقافة العربية والإسلامية، فكان الرد من جانب المتمردين هو اختيار العواصم الأوربية، مقرا لإدارة معاركهم السياسية مع الحكومة، كما اعتمدوا على فرق مدربة ومتعلمة تعليما متميزا فى التعامل مع ملف قضيتهم.. هؤلاء الشباب حققوا تفوقا على الحكومة السودانية، فى كسب التعاطف العالمى، حتى أصبحت مأساة دارفور، واحدة من اعقد الأزمات الإنسانية فى العصر الحديث.

الظروف الأمنية فى مدن دارفور حالت دون لقاء قادة التمرد،حيث يرى الثوار أن أى عربى يزور الإقليم ربما يكون تابعا للحكومة، وبالتالى يصبح هدفا سهلا، ورهينة يمكن المساومة عليه، بجانب القيود التى تضعها الأجهزة الحكومية على اتصال الصحفيين بالمتمردين أو حتى بعض شيوخ القبائل المتعاطفين معهم.

الزيارة الأولى التى قام بها الدكتور خليل إبراهيم رئيس حركة العدل والمساواة

للقاهرة بدعوة من جهات سيادية كانت فرصة للتعرف المباشر على رؤية الثوار للأزمة، وأفق الخروج منها. خليل إبراهيم حدد فى لقاء معه الإستراتيجية التى تحكم تحركاتهم.. هذه الإستراتيجية تقوم على محور التمسك بوحدة السودان، واستبعاد كافة دعاوى الانفصال، مقابل منح دارفور حكما ذاتيا ضمن حكم فيدرالى.. الدكتور خليل إبراهيم طرح النموذج الأمريكى، واعتبره أكثر الحلول الحاسمة لكافة مشاكل السودان السياسية فى المستقبل.

خليل تحدث عن برنامج سياسى متكامل قابل للتنفيذ يقوم على أساس بناء الولايات المتحدة السودانية! يتم ذلك من خلال الدعوة لمؤتمر وطنى جامع لممثلين حقيقيين للمهمشين فى أقاليم السودان، للاتفاق على وضع دستور جديد يحدد قواعد عادلة لتوزيع السلطة والثروة فى كافة الأقاليم.. حركة العدل والمساواة تسوق لفكرة المؤتمر حماية للسودان، من شبح التقسيم ووضع حد للحروب الأهلية.

معاداة العروبة، والمطالبة بالانفصال.. سمعتها كثيرا فى بعض معسكرات اللاجئين، من مواطنين متضررين، وسط مشاعر الغضب المسيطرة عليهم بسبب الموقف الحكومى الذى شجع وتغاضى عن بعض جرائم الجنجويد، ضد المواطنين الأبرياء.

جغرافية دارفور لا تسمح للثوار بالدعوة إلى الانفصال، لعدم توافر مقومات الدولة فلا شواطئ ولا حدود مفتوحة تربطه مع العالم الخارجى.. لكن للثوار رأيا آخر، لأن الإقليم نفسه خاض تجربة الاستقلال فى عصر على دينار آخر سلاطين دارفور.. فى عهده تمتعت دارفور بالاستقلال والاستقرار.. فهو أكبر منتج للصمغ العربى، ولديه مخزون واعد من البترول، يستحوذ على ٢٥٪ من ثروة السودان الحيوانية، موطن زراعة الدخان، «التمباك»، الفول السودانى، ونباتات وزراعات نادرة، موارده الذاتية تزيد على احتياجات السكان عدة مرات.

حول اتهام الحكومة لهم ببدء القتال واختيار السلاح وسيلة لتحقيق مطالبهم. يرى رئيس حركة العدل والمساواة بأن الحكومة الحالية هى التى فرضت على المتمردين اللجوء إلى هذا الخيار.. ففى عام ١٩٩٧ نقل خليل إبراهيم رسالة من

أبناء دارفور إلى الرئيس البشير يطالبون فيها بمضاعفة نصيبهم من التنمية، ومزيد من الحقوق المتوازنة مع باقى أبناء الأقاليم الشمالية الأقل عددا من دار فور، لم يرد الرئيس على الرسالة، بل تلقى خليل إبراهيم ردًا غير رسمى بالرفض. كما نقل له وسطاء قول الرئيس «بيننا وبينهم القتال» فقدم استقالة مكتوبة من منصبه الوزارى.

ثم شرع فى تأليف الكتاب (الأسود) الذى يعتبره المتمردون مرجعهم الأساسى لحمل السلاح فى وجه التهميش والظلم الحكومى لهم..

بعدها انفجرت المواجهات المسلحة، فكان الرد الحكومى حرق القرى وقتل العشرات من أبناء القبائل الأفريقية فى حملات تأديب مدعومة بميليشيات مسلحة تحمل غطاء «الشرطة الشعبية» ولم يكن أمام أبناء القبائل المستهدفة سوى الاستعداد للدفاع عن أنفسهم وحماية قراهم.

ثم بدأت تظهر خلايا ومجموعات متفرقة من أبناء القبائل الأفريقية، تقاوم القتل الحكومى بعمليات مضادة.. هذه المجموعات استولت خلالها على عتاد وسلاح كثير من أيدى القوات الحكومية التى كانت تهرب وتتركه فى مواقع تمركزها.. أصبح تحت أيدى المتمردين كميات ضخمة من العتاد والسيارات.

القتال ظل عشوائيًا إلى أن تم تنظيم عمل هذه الجماعات، وتقسيمها إلى حركات لها جناح مسلح يعمل فى الميدان وآخر سياسى يتولى إدارة المفاوضات مع الحكومة، العدل والمساواة ضمت أبناء قبيلة الزغاوة بينما تشكلت حركة تحرير السودان من أبناء قبائل «الفور» الذين اتخذوا من جبل «مَرة» الحصين مركزًا لإدارة عملياتهم ضد الحكومة، ثم تلاقت الحركتان باعتبارهما تمثلان أكبر قبيلتين من أصول أفريقية وتمثلان أغلبية سكان دارفور.

المتمردون لديهم رفض جماعى لوجود قوات أجنبية فى الإقليم، ويرون أن دخول الأجنبى أمر سهل، بينما خروجه مهمة صعبة يدفع ثمنها الحكومة والمتمردون معًا، الاستثناء الوحيد لقبولهم بوجود دولى أن يكون هو آخر الحلول لوقف أعمال قتل وتشريد المدنيين.

كما أن لديهم قناعة بأن الحكومة لن تصمد فى موقفها الرافض لنشر قوات دولية بالإقليم، وإذا خيرت بين بقائها فى الحكم أو الوجود الدولى ستختار الثانية.. المتمردون لديهم اعتقاد بأن الدور العربى ضعيف متردد، متواطئ ومنحاز مسبقا مع الموقف الحكومى.. يعتبون بشدة على الدور الإنسانى للمنظمات العربية والإسلامية الهزيل فيما يتعلق بتخفيف معاناة اللاجئين مقارنة بالدعم الأجنبى الذى يشكل ٩٥٪ من حجم المساعدات التى تصل إلى معسكرات اللاجئين.

المطالب المبالغ فيها من جانب الثوار كانت عائقًا أساسيًا يعرقل جولات المفاوضات مع الحكومة، حيث تمسكوا بتقسيم الثروة والسلطة، حسب الكثافة السكانية لكل منطقة، وأن يحصل الإقليم على منصب نائب الرئيس السودانى، وتدوير منصب رئيس الجمهورية، على باقى أقاليم السودان الرئيسية، بحيث لا يظل هذا المنصب حكرا على أبناء منطقة واحدة، وتخصيص صندوق لتعويض المتضررين من الحرب، دفع ما يعادل ألف دولار لكل أسرة فقدت عائلها وممتلكاتها، التزام الحكومة ببرنامج لإعادة بناء القرى التى تم تدميرها.

الرد الحكومى على مطالبهم كان صادما.. فمثلا بالنسبة لموضوع نائب الرئيس، وافقوا على مستشار وهو منصب وهمى لا يرقى إلى مركز اتخاذ القرار، لأن اتفاق «نيفاشا» للسلام بين الشمال والجنوب حدد سلطة اتخاذ القرار فى أيدى الرئيس السودانى عمر البشير ونائبيه «سلفا كير وعلى عثمان».

فأى قرار لا يحظى بموافقة الثلاثة يعد باطلا، وبالنسبة للتعويضات وافقت الحكومة على منح كل أسرة تضررت فى دار فور ما قيمته ١٠ دولارات، أما مسألة التوزيع العادل للثروة فقد ماطلت الحكومة، وفيما يتعلق بإعادة بناء القرى المدمرة لم تلتزم الحكومة بأى شىء باستثناء عرض توفير وظائف للقيادات التى تحمل السلاح.

الكتاب الأسود الذى ألفه خليل إبراهيم يعتبره كثير من الأهالى وثيقة دامغة تبرر حملهم للسلاح فى وجه الحكومة المركزية، ردًا على سياسة الإقصاء والتهميش، فى نفس الوقت الذى تتحدث فيه الحكومة عن أن أبناء دارفور هم الأكثر تعليما وثراء وأغلب قيادات القوات المسلحة والشرطة ينتمون إلى قبائل الإقليم.

لكن خليل إبراهيم يدافع عن محتوى الكتاب بأنه محصلة بحث إحصائى يضم حصرًا لكل القيادات العليا فى الدولة منذ الاستقلال حتى الآن، وقد كان عنوانه الأصلى (اختلال ميزان الثروة والسلطة فى السودان)، لكن العامة أطلقت عليه اسم (الكتاب الأسود).

منذ استقلال السودان عام ١٩٥٦ تولى رئاسة الجمهورية ١٢ رئيسا، جميعهم من منطقة واحدة فى شمال الخرطوم لا يزيد عدد سكانها على ٥٪ من سكان الدولة، جميعهم من جذور عربية، ناهيك عن التوزيع غير العادل لثروة البلاد.. يكشف الكتاب عن توجيه معظم موارد الدولة إلى مناطق محددة فى الخرطوم وشمالها. المناصب العليا، التعليم، التنمية كلها مركزة فى منطقة بعينها.

الكتاب اتهم الحكومة باتباع سياسة «المناطق المغلقة» ضد بعض الأقاليم وهى نفس السياسة التى سبق أن طبقها المستعمر الإنجليزى ضدهم، حيث تقوم على أساس الاستفادة من ثروات الولايات، وتحديد سقف تعليم أبنائها إلى مستوى متوسط وحرمانهم من الوصول للمناصب العليا.

على الدارسين من أبناء دارفور فى الخرطوم أن يقضوا ١٠ أيام داخل شاحنات ضخمة ليصلوا إلى قراهم.. الحياة فى مدن وقرى الإقليم تحولت إلى قطعة من الجحيم، أثناء وجود خليل فى منصبه الوزارى طلب من مسئول كبير أن يعجل برصف الطريق الغربى الواصل بين العاصمة والإقليم، فكان رده لو تم ذلك سوف تجد أغلب أهالى دارفور فى الخرطوم بالدراجات!!

حركة العدل والمساواة تدرس التحول لحزب سياسى فى حال الوصول إلى نهاية للمفاوضات مع الحكومة وإقرار السلام فى الإقليم.. للحركة رؤية سلبية تجاه الأحزاب السياسية تتلخص فى أنها لا تقل عجزًا عن الحكومة وأن نشأتها كانت عائلية، فحكمت على نفسها بالسلبية والضعف، فمثلا حزب الأمة الأكبر والأقوى زعيمه الصادق المهدى منذ ١٩٦٦م، ولم يتغير حتى الآن، هكذا الحال بالنسبة للحزب الاتحادى، فالميرغنى تولى قيادته عام ١٩٦٧، أما بالنسبة للحزب الشيوعى فزعيمه تولى قيادته عام ١٩٧٢، أما حركة الإخوان فيقودها الترابى منذ تأسيسها فى السودان قبل ٤٢عاما!

الهوامش :

(١) مقال بعنوان (من أشعل الحريق) المفكر السودانى حسن مكى مجلة وجهات نظر المصرية

(٢) كتاب السودان وأهل السودان المؤلف يوسف الشريف

(٣) دراسة للصحفى السودانى ضياء الدين بلال

(٤) كتاب (دارفور الحقيقة الغائبة) صادر عن المركز السودانى للخدمات الصحفية - السودان ٢٠٠٤

(٥) تقارير منظمة هيومن رايتس ووتش الأمريكية ٢٠٠٤

(٦) لقاء (ميندى نازر) أجرته معها هيئة الإذاعة البريطانية.

(٧) مقال للكاتب البريطانى ألكس دى ول

London review of Books

(٨) تقرير الأمم المتحدة حول انتهاكات القانون الدولى فى دارفور

(٩) كتاب (تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان (الرحالة محمد بن عمر التونسى عام ١٨٠٣م

(١٠) كتاب (من أسرار الساسة والسياسة(المؤلف محمد التابعى

(١١) كتاب (السيف والنار) المؤلف سلاطين باشا النمساوى.

(١٢) شريط صوتى لأسامة بن لادن بثته قناة الجزيرة الفضائية يوم ٢٣ أبريل ٢٠٠٦

فهرس الكتاب

رقم الإيداع	٢٠٠٧/٣٦٨٣
الرقم الدولى	977- 201- 188- 3

طبع بمطابع

روزاليوسف

دارفور أرض السحرة والقرآن



حمدي الحسيني
كاتب وصحفي
بمجلة روزاليوسف

دارفور مساحتها أكبر من العراق ، الأرض الخصبة فيها ضعف المساحة المزروعة في مصر ، ثروتها الحيوانية تكفي لسد احتياجات دول المغرب العربي من اللحوم ..خليط من الثقافات والأعراق، تاريخ حافل بالبطولات والعجائب والغرائب ..الاستثمارات فيها محدودة ،البنية التحتية شبه منعدمة، المواصلات نادرة، الأمان مفقود.

هذه البقعة تعد موطن القرآن، والسحر والخرافات والحروب، ومسرحا لواحدة من أكبر الكوارث الإنسانية في العصر الحديث.. الكارثة حولت الآمنين إلي مشردين ،والمستقرين إلي لاجئين ينتظرون المعونات.. وهذا طبيعي بعد أن انفجرت براكين الغضب، واشتعلت نار الفتنة وتحولت أرض السلام إلى ساحة حرب يتقاتل فيها الجميع .تبقى مأساة دار فور تجسيدا حيا لمعاناة القارة السوداء.. هذه الصراعات خلفت قصصا إنسانية مؤلمة ،ومشاهد سياسية استثنائية القبح، وأخفت مناظر طبيعية ساحرة .

في دارفور يشعر المرء أن عجلة الزمان متوقفة.. في هذا الكتاب يغوص المؤلف في هموم شعب دارفور.

الناشر



دار الخيال - القاهرة - لندن